

ملیكة أوفقییر الضریبة



ترجمة: حسین عمر



خرجت مليكة أوفقيير الى
الحرية. بعد عشرين عاماً
من السجن. لم تكن مواجهة
هذه الحرية بعد هذا
الانقطاع الطويل بالأمر
المهين.

ليس من السهل أن تعيش
في عمر الأربعين. مع من هم
في سنك. وكأنك عشت
مثلهم. فيما أنت قضيت 20
عاماً منها في السجن.

ما عاد شيء كما كان، لا
الأصدقاء، ولا اللغة
المشتركة. ولا سائق التاكسي،
ولا السوبر ماركت، ولا
طريقة الحصول على المال،
ولا صرفه.

إنها حياة جديدة، لا
يمكنها أن تنسى أو أن تتجاوز
20 عاماً من الغياب، وأيضاً لا
يمكنها أن تعيش بعشرين
عاماً إلى الوراء.

الغريبة

إهداء ٢٠٠٨

رصيد عام

الكتاب: الغريبة

المؤلف: مليكة أوفقي

المترجم: حسين عمر

الغلاف: مؤسسة مصطفى قانصو للطباعة والتجارة

الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت

هاتف وفاكس : 471357 / 1 / 00961 - 03 / 728471 - 03 / 728365

E-mail: kansopress@hotmail.com

kansopress@yahoo.com

جميع حقوق الطبع محفوظة ©

سنة الطبع: 2007

تباع النسخة الكترونياً على موقع:

www.arabicebook.com

ملیکہ اوفقیہ

الغریبة

ترجمة: حسین عمر



العنوان الأصلي للكتاب:

MALIKA OUFKIR

L'ÉTRANGÈRE

Préface de Michèle Fitoussi

© editions Grasset & Fasquelle, 2006.

إلى ذكرى سعيدة منبهي

إلى جاندا وحدها، طبعاً.

حسين

مقدمة

رنّ الهاتف نحو الساعة السابعة مساءً. عرفتُ في الحال، أنّها هي.

مليكة.

أو كيكّا، بالنسبة لمن يحبّونها.

تستطيع مليكة الاتصال بي ساعة تشاء، كما لو أنّنا افترقنا في الأمس: إنّها في باريس لبضعة أيام، وستعود إلى ميامي لتعيش هناك بعد الآن، ستُقلع إلى نيويورك ومراكش ولوس أنجلوس...

استأنفنا في الحال حديثاً متصلاً منذ ما يقارب تسعة أعوام. ثمة الكثير من الأمور التي يجب أن تُقال. بدأنا بأخبار عائلتنا وزوجينا وأطفالنا ونوال ابنتها بالتبني. ثم أخذتنا الثروة. عن حياتها الجديدة في الولايات المتحدة، وعن أصدقائنا المشتركين، وعمّا يشغلنا راهناً.

تبادلنا الحديث فيما يشغلنا حالياً، وتبادلنا المشورة، كما تمارحنا كثيراً. لمليكة روح الدعابة وميلٌ واضحٌ إلى السرد الساخر، وهي دائماً مهَيّأة لأن تسخر من كلّ شيء، وخاصة من نفسها.

في ذلك المساء، هتفت لي من المغرب. من عادتها، حينما يكون لديها خبرٌ لتبلغني به، أن

تستخدم أسلوب المداورة على طريقة المرأة الشرقية. وتعود

إلى جذور الإنسانية. « سأحدثك عن ليلي... ولكن في البداية، لابد من معرفة أنه كان لجدها عينان خضراوان وكبرياء رجل من الصحراء... » ومضت ساعات وهي في سرد تكمن أهميته بطريقتها في تدبير الوقائع وفي جعل مستمعها في حالة انتظار وترقب.

خلال أحاديثنا، فاجأها بأن تستعجل ورجوها أن تهتم بالوقائع. « Only facts »، مثلما رددت عليها سندس صديقتها الوفية. لم تبال مليكة بذلك. كانت، مثل شهرزاد، تود أن تأخذ وقتها الكافي. كانت بحاجة لأن تتناول وجبتها بانتظام. طبق أول مشهي، طبق رئيسي، تحلية، قهوة، مهضومات. أي على النقيض تماماً من طريقتنا في العيش على الوجبات السريعة، التي تنفر منها.

جعلتها أصولها وتربيتها ومن ثم لمدة سجنها الطويلة جداً أن تعزف عن مفهوم الساعات، وعن صيغة الأمر « حالاً ». كثيراً ما مرت السنوات وقلما تملكها الرغبة في الامتثال لها.

مع ذلك، كانت، في ذلك المساء، تختصر الكلام. ذهبت مباشرة إلى الهدف أو كادت. قلت في نفسي أن الأمر هام. وقد صح ظني.

– ميشيل، هناك خبرٌ عظيم. لقد تبينا صبيّاً صغيراً. يدعى آدم. عمره أربعة أشهر.

سمعتُ صوتها يرتعش. أحسست أنها على وشك أن تذرف الدموع، وشعرتُ بدموعي تنمو في مآقي. ساد الصمت بيننا

للحظات. لم ينقطع الخطّ بين مراکش وباريس، ولكن جرى فيه الكثير من الانفعال. لطالما تملكها الرغبة في إنجاب طفل، كان ذلك بالنسبة إليها بمثابة جرح لا يندمل. في بداية فترة اعتقالها، ترك فيها التهاب في الصفاق عاقبة فظيعة، بعد أن كاد يؤدي بحياتها لانعدام الاهتمام والرعاية. لم تتمكن مليكة من تحقيق أمنيتها الأعلى: أن تمنح الحياة. ومع ذلك، بذلت كل ما بوسعها.

لا زلتُ أتذكر هيئتها الشاحبة، بعد ظهيرة كل يوم من تلك الأيام من سنة 1998، حينما كانت تأتي إلى بيتي هاربة من ماضيها كسجينة. كانت تذهب كل صباح تقريباً إلى المستشفى في محاولة منها لتحدي الطبيعة بجرعات من الأدوية كانت تُنهكها. بيد أن كل محاولاتها باءت بالفشل. كان يلزمها الكثير من الوقت و القوة المعنوية لتقتنع بأنّها لن تُرزق بأطفال.

طبعاً، هناك نوال إلى جانبها، نوال ابنة أختها العزيزة، التي تحبّها كابنتها. لدى وصولها إلى باريس، عام 1997، وجدت مريم، أختها الصغرى التي كانت تعاني من نوبات صرع عنيفة، أنّه من المستحيل أن تربي بمفردها الطفلة البالغة سنتين من عمرها. وكان والد الطفلة قد عاد حينها إلى المغرب ليعيش فيها. وشعرت مريم، بصحّتها الضعيفة، بلا عمل ولا مال، أن لا حول لها ولا قوة.

أخذت مليكة الصغيرة إلى بيتها، بموافقة زوجها ايريك. فمكثت نوال عندها. بحيث يشكّلون اليوم عائلة حقيقية. يقيمون معاً في ميامي، «لأنّ السماء دائمة الزرقة هناك»، بهذه

العبارة برّرت لي مليكة سفرها. نورٌ لطالما حُرمت منه عائلة أوفقيّر خلال كلّ تلك السنوات المظلمة.

سيأتي آدم ليتمم سعادتهم. فهو الطفل الذي حُرمت منه طويلاً. طفلٌ يخصّها. لأنّ نوال، وإن كانت عزيزة جداً على قلبها، لديها أبوان: فاما مريم، حتى وإن لم تكن دائماً إلى جانب ابنتها، تبقى قريبة ومحبة لها.

استرجعتُ في ذاكرتي وأنا أستمع إليها تكلمني بكثير من الحبّ والسعادة عن هذا الصبيّ، الذي يملأ حياتها، كلّ الطريق التي سلّكت مذ تلاقى قدرانا قبل تسع سنوات.

كانت تلك مغامرة غير مألوفة بقدر ما كانت غير متوقّعة. Stolen Lives في الولايات المتّحدة، Die Gefangene في ألمانيا، La Prisionera في إسبانيا أو Printesa Captiva في رومانيا... لقد فنت رواية السجينة، التي تروي قصتها المذهلة، بترجماتها التي تقارب الثلاثين، ما يقارب مليون قارئٍ في العالم.

لم يراودنا الظنّ في ذلك المساء من آذار 1997، حينما التقينا في بيت صديقتنا المشتركة ثريا التي أقامت حفلة استقبال بمناسبة رأس السنة الإيرانية الجديدة.

تحت ثريا الاستقبال في مسكنها الفسيح الكائن في نوبي. حفلاتها ساحرة، يتكلّم المشاركون فيها الفرنسية والفارسية والإنكليزية والإسبانية والإيطالية... ونلتقي فيها بـ golden boys وبنفّين إيرانيين وبأناسٍ ظرفاء جرى اختصارهم بعناية فائقة وبالكثير من النساء الحسنان.

جلست واحدة منهن برزانة، وصمت، إلى حافة حلبة الرقص... لاشكّ أنها كانت تؤدّ الاختلاط بالآخرين لكنّ شيئاً ما كان يمنعها عن ذلك. شعرتُ بها مغتمة كئيبه. أثارت اهتمامي وفضولي ولم أكفّ عن التفرّس فيها.

- هذه مليكة أوفقي، أرايت مَنْ تكون؟ همست لي سوز، وهي محامية إيرانية تربطني بها صداقة طويلة الأمد.

لعبت سوز، الحسناء الطويلة السمراء المندفعة، دوراً حاسماً في هذه الحكاية. إنها هي التي جعلتنا نلتقي بعد ذلك بمدة وجيزة، مثل الجنية الخارجة من قنديل زيت. في الشرق، لا توجد مصادفة، القدر هو ما يقرّر. في ذلك المساء، ستكون سوز هي وسيط «المكتوب». ما قالته لي للتو جعلني فُهب التأمل والتفكير.

طبعاً، عرفتُ مَنْ تكون المرأة الشابة الحزينة. إنها الابنة البكر للجنرال محمد أوفقي، صاحب محاولة انقلابية ضدّ عاهل المغرب، الحسن الثاني، في 16 آب 1972، والذي كان حينذاك وزير دفاعه ورئيس أركان جيشه.

فشلت المحاولة. مات الجنرال أوفقي، أُعدم بخمس رصاصات في جسده. بعد الحداد الرسمي، أُرسلت عائلة أوفقي، فاطمة زوجة الجنرال وأطفالهما الستة ومنهم مليكة البكر التي كانت في التاسعة عشرة من عمرها، وعبد اللطيف أصغرهم الذي بالكاد بلغ الثالثة، إلى أعماق الصحراء، ليقبعوا في سجونٍ فظيعة لا إنسانية. أريدُ لهم الموت فيها مجتمعين.

لقد حُسب ذلك بمعزل عن إرادتهم في الحياة التي كادت تكون مشتركة بينهم. بعد خمسة عشر عاماً، تخلصوا من قدرهم في نهاية فرار مذهل، جعل هذه المزق المتضورة جوعاً والمحكومة من قبل حاكمٍ مستبدٍ تبعثُ من الظل والظلمة. كما قضت العائلة خمس سنوات تحت الإقامة في مراکش، عوملت خلالها على نحو أفضل، ولكنها ظلت مأسورة.

في عام 1991، وبعد عشرين عاماً من الأسر، عجل نشر رسالة الناقدة جيل بيرو الناقدة "صديقنا الملك" في إطلاق سراحهم. وقد احتاجوا إلى خمس سنوات إضافية ليحصلوا على جوازات سفرهم ويغادروا المغرب، بعد فرار خيالي ثانٍ، قامت به هذه المرة، على متن سفينة، ماريا إحدى شقيقات مليكة الصغيرات.

عشرون عاماً. حياة واحدة. انقبض قلبي لرؤية مليكة وسط تلك الحجرة الفسيحة، تحاول عفويّاً أن ترقص ثم تعدل عن رأيها، وقد بدا عليها التأثر والخجل أيضاً. كلما اشتدت الموسيقى وباتت أكثر طرباً، كلما رنوت إليها دون علمها، وأسرنى حزنها العميق.

آنذاك دخلت سوز المسرح جديّاً. انتظرت إلى أن جلست مليكة ثم قادتني نحوها.

وكانت صعقة الحب، صعقة القلب، لنسمّ ذلك كما نشاء. ولدت صداقة للتو. لأنها كانت مليكة ولأني كنتُ ميشيل، كما سنقول فيما بعد ضاحكتين. في الحال، شعرنا

بشدة بذلك الفيض من الود والانجذاب المتبادلين، وان لم
تبادل أي حديث، عدا الترهات، كانت عيوننا تتبادل
الكلمات والابتسامات.

- ميشيل صحفية وكاتبة، تابعت سوز. مليكة، إذن،
إنها... مليكة أوفقيير.

رسمت نظرة ثانية ومصافحة ذلك التواطؤ الوليد بيننا.
أدرك رجُلانا، اللذان كانا حاضرين معنا في ذلك المساء،
حدسياً وحتى دون أن يتداولوا مع بعضيهما - لم يكونا قد
تعارفا بعد - أهمية ذلك اللقاء في حياة كلتينا الخاصة.

لدى انصرافنا من سهرة ثريا، تبادلنا أرقام هاتفينا.

أخذني رفيقها ايريك جانباً أغرتني في الحال نظرته
الماكرة من خلف نظارتيه الصغيرتين المدوّرتين، وابتسامته الودية
ومصافحته الحارة.

قال:

- اتصلي بها. إنها لا تعرف الكثير من الناس في باريس.
فتستسلم للأفكار المحزنة وحيدة في البيت. وأنا أعمل طيلة
النهار.

لدى عودتي إلى البيت، لم أتم تلك الليلة. لازمني وجه
مليكة الحسن. طرحتُ على نفسي ألف سؤال. ما الذي ألمَّ بها؟
كيف يشعر المرء بنفسه، حينما يبعث، حياً، من سرداب
الدفن؟ مرّت رؤى مرعبة في مخيلتي. قرأتُ مقالاتٍ عن

قصّتهم، على فترات متباعدة، لا سيما في فترة فرارهم. كان فصل من كتاب جيل بيرو مكرّساً لهم، ولكنّ الشهادات التي رواها، وهذا ما سأعرفه لاحقاً، غالباً ما كانت غير دقيقة. كانت الحقيقة أصعب من ذلك بألف مرّة.

استولت حكايتها على كياني. أردتُ أن تقصّها عليّ من البداية وحتى النهاية، أردتُ أن أعرف أدقّ تفاصيلها وأردتُ أن أكتبها معها. اختلط كلّ شيء في داخلي: الإثارة الصحافية والتزوع إلى ما هو خيالي واهتمام الكائن البشري بهذا القدر الغريب. ثمّ أن المرأة أثّرت فيّ، أثّرت فيّ للغاية.

لكنني لن أتجرأ قط على سؤالها عن ذلك. لأنه قد يكون نكثاً بالتوازن الهشّ الذي أقيم بيننا ذلك المساء. أرسلتُ إليها مؤلفاتي، على أمل أن تُعجبها وأن تشهد ضمناً على جدارتي.

بعد بضعة أيام، سمعتُ صوتها الواهن عبر الهاتف. ومن خلال لحظات صمتها، شعرتُ بما تعانيه من كرب وأسى. إنّها في باريس منذ ما يقارب ثمانية أشهر، تسكن في الدائرة الثالثة عشر في بيت ايريك. قلّما تخرج منه ودائماً بصحبته. تُخيفها المدينة الكبيرة. كانت سجيّة، ولا تزال كذلك في مخيلتها، في سلوكها اليومي، على الرغم من الحرية المطلقة التي قدّمت لها. لم تكن نوال، ابنة أختها، قد دخلت حياتها بعد. ولتمضية الوقت، كانت تشاهد التلفاز أو أفلام الفيديو.

اقترحتُ عليها أن نتناول الغداء معاً. ووافقت في الحال.

بعد ذلك بيومين، وأنا أجلس إلى المائدة رفيقة مليكة،

أدركتُ على الفور بأنني لم انخدع بها. هذه المرأة التي تأكل السلطنة بطرف شفيتها وبطريقة غاية في الرقة كأميرة متميزة. أدركتُ شخصيتها الفريدة وذكاءها الوقاد وتأهبها الدائم وظرفها و« شامة الجنون » تلك التي تمنحها قطعاً مكانة خاصة.

إنها هي من ستقترح عليّ كتابة ذلك الكتاب معها، بعد أن روت لي جانباً كاملاً عن طفولتها والذي كنتُ أجهله ويعرفه القليل من الناس. في الخامسة من عمرها، جرى تبني مليكة من قبل الملك محمد الخامس، لتكون إلى جانب ابنته الصغرى الأميرة للأمانة التي كانت تصغرها بسنة.

عند موت الملك، تكفل الملك الشاب الحسن الثاني بالطفلتين. وستعيش مليكة أحد عشر عاماً بعيدة عن أسرهما، بين الثيلا حيث تعني مربية ألياسية بالفتاتين الصغيرتين بقبضة حديدية، والقصر حيث يرعاها العاهل الجديد بلطف مع عطف وصرامة أبوين. قلماً كان ينشغل عنهما: بين حرم المحظيات ولعبة الغولف والفروسية والأسفار والحفلات، تلقت مليكة تربية أميرة حقيقية. مع ذلك، ومع كل ما كانت عليه من دلال، فإن القفص قفص، ليس سجنًا ولكنه حجز للحرية. في السادسة عشرة من عمرها، توسلت مليكة إلى الملك كي يفتح باب القفص. اشتاق ذروها إليها كثيراً. فوافق الملك. ستدور الفتاة الشابة لأول مرة، ولمدة عامين فقط، عذوبة العيش في كنف عائلة حقيقية. مع أخوة وأخوات كانت لا تعرفهم حتى هذه اللحظة، وأمٌ كانت مولعة بها، اشتاقت إليها أشد الاشتياق أثناء غيابها، وأب قلماً أخافتها سلطته التي

كادت أن تكون مطلقة. لقد وجدت نفسها من خلال نفسها، وهي المنغلقة داخل حياة تكتّم حدودها والتزاماتها على أنفاسها.

بعد محاولة الانقلاب، واجهت مليكة مأزقاً مؤلماً. فوالدها البيولوجي حاول قتل والدها بالتبني، والذي، بالمقابل، قتل الأول، وأرسل، في حالة هيجانه، مليكة لتقع في السجن مع كل أسرها.

كانت مليكة تحبّ بشغف هذين الرجلين. لا يمكنها أن تختار بينهما ولا أن تكرههما على الرغم مما ألمّ بها. حينما تفكر بالملك الحسن الثاني طيلة سنوات الحبس الطويلة تلك، لا تُقدم على الوثوق بأحد. يبدو لها أنها ستخون ذويها لو أنها فكرت به بمحبة. فهم لا يرون فيه سوى جلاد. تتحسر مليكة على الرجل الذي رعاها.

القدر الفريد لمليكة يرفعها، رغماً عنها، إلى مصاف بطلة لتراجيديا قديمة. المؤامرة، الخيانة، الموت العنيف، الانتقام، القسوة: هذه الأحداث الطارئة التي تبدو وكأنها من زمن آخر صاغت صيرورة حياتها. كانت المحاكم الملكية مسرحاً لمأسات منطقها معظم الفنانين. سحرنى كل ما روته لي عن ذلك، ولا زلتُ لا أعرف سوى بدايات مسيرتها.

طالت فترة الغداء. لم تعد لدي رغبة في الرحيل. تتقن مليكة لعب جميع الأدوار، وجميع الشخصوس. تكون بالتناوب امرأة مسنة أو طفل، تنتقل من الضحك إلى البكاء والعبرات في أقل من لحظة.

لقد سبق وطلب منها أن تكتب قصتها. ورفضت كل العروض. تريد أن تشعر بالأمان. وعلى حين غرة، اعتقدت أنها وجدت في الشريكة المثالية. تعارفنا منذ أمد قريب، ولكننا شعرنا بأن الصلة التي شرعت تُنسج بيننا متينة. وباستمرار، ستختبرني خلال الشهور التالية. ودون أن أدري ذلك، تجاوزت «الاختبارات» الحاسمة في نظرها. تخشى مليكة كثيراً الخيانة، بحيث أنها تحتاج إلى أن تطمئن في كل لحظة إلى الصداقة التي تربط الآخرين بها.

وأقنعها جان - كلود فاسكيل، الذي استقبلها، بالانكباب على الكتابة. لقد سارت الأمور بينهما بيسر. طرح عليها المعلم الكبير لدار نشر غراسيه، متأثراً بالعينين الحزينتين للمليكة وبقصتها التي يعرفها جيداً، ومفتوناً بسحرها وبهيبتها، صراحة، السؤال الوحيد الهام في نظره. السؤال الذي يبرهن لها أن المقصود سوف لن يكون تحقيق «سبق» في مجال النشر، وأن هذا الرجل الشهم يحسب قبل كل شيء حساب سلامتها.

- هل أنت متأكدة من أن كتابة هذا الكتاب ونشره سوف لن يلحقاً الأذى بك، ولا بأسرتك؟

كان الحسن الثاني لا يزال حياً ولا يزال يقبض على بلاده بقبضة من حديد. وكتاب جيل بيرو محظوراً في المغرب. وقد وضع ناشره، أنطوان غاليمار، الذي زار الدار البيضاء بمناسبة معرض للكتاب، تحت الإقامة الجبرية في فندقه لثلاثة أيام. هذا يعني أننا قدّرنا المخاطر. فقرّرنا أن وحدهم أقاربنا سيُطلعون على السر. وسنستخدم حياً بارعة طيلة عام كام

للحديث عن كتابنا عبر الهاتف. في كلّ حديث، استخدمتُ مسجلتين. وأخفى ناشرنا اليقظ مانويل كاركاسون، الذي أظهر دعماً أكثر من نفيس أثناء كلّ مغامرة هذا الكتاب، نسختي الأسطوانات في خزانة. ربّما بدا ذلك من سخف الطفلي: إذ ما الذي تجازف به في فرنسا؟ ولكن لم ينسَ أحدٌ من أين قدمت مليكة، ولا ما عانته، ولا قدرة جهاز الاستخبارات المغربي، حتى خارج بلاده.

واجهنا حادثٌ عرضيٌّ في حرصنا واحتراسنا. كانت مليكة بحاجة لأن تتيقّن من أنّها مستعدة لتقول كلّ شيء. وستكون رحلة قصيرة إلى المغرب حاسمة بالنسبة لها. في أيار 1997، قررت الذهاب لرؤية والدتها في الدار البيضاء أثناء عطلة آخر الأسبوع. أُحتجزت مليكة هناك لستّة أشهر. أُشّبهتُ بأنّها تريد كتابة شهادتها. فمن الذي أخبر بهذه الدقة المخبرين الذين كانوا يضايقونها؟

والمفارقة أنّ ذلك الحادث العرضي أعطى للمليكة الدافع الذي كانت تنتظره. وحينما التقيت بها من جديد في كانون الأوّل، كانت قد نضجت لرحلتنا الطويلة في ماضيها.

شكّلت سبعة أشهر من المناقشات بواقع ثلاث «جلسات» أسبوعياً، من بداية كانون الثاني وحتى نهاية تموز 1998، المرحلة الأولى من العمل. أكتب كلمة «جلسات» بمعرفة. ولتلطيف الجو بعد اعتراف مؤلم على نحوٍ خاص، كنتُ أهمس لها غالباً، بعد أن أطفى المسجّلة:

- حسناً، أنت مدينة لي بـ 300 فرنك، هذه هي التعرفة التي سأأخذها منك أخصائي نفسي، أليس كذلك؟

طبعاً، كانت تفهقه وهذا ما كنت أنتظره. أن أجعلها تضحك. في مكثي الصغير الذي كنا نجلس فيه متقابلتين براحة واطمئنان، كانت تُعقد جلسة سرية غريبة، يقطعها أحياناً أطفالهم وهم يطلّون في الوقت المناسب لتخفيف التوتر.

هي تتكلّم وأنا أتخيّل. غالباً ما يعتصرنا الانفعال معاً. وغالباً ما كانت الكلمات تخذلها. وتفقد القدرة على الاستمرار. ولا ألحّ عليها. وستعود بنفسها، فيما بعد، إلى الأحداث التي ترهقها.

أحاول أن أتمثّل ماضيها. كل شيء يفرّقنا. الدين، الثقافة، التربية، الدراسة. لم أعش قطّ في قصر ملكي، ولم أعرف شخصياً لا ملوك ولا محظيات ولا كبار الخدم، ولا مربّية الزاوية. وكجمهورية مقتتعة، يشقّ عليّ أن أتمثّل رعايا خاضعين لملك ذي سلطة مطلقة. كما لم أحظّ بحياة المراهقة الطائشة تلك، والفتاة ذات المقام العالي، والشباب الزاهي لابنة المجتمع المخملي.

حتى وإن كنتُ أعرف الشرق من خلال إقامتي في السنوات الخمس الأولى من حياتي في تونس التي ولدتُ فيها، فقد بدا كل ذلك بعيداً جداً عني.

بينما كان الزمن يمضي بطيئاً جداً في سجنها، وهذه أيضاً تجربة لم أكن أعرفها، درستُ وعملتُ وأحببتُ، وعرفتُ اليأس

والعسر، ككلّ الناس، ولكن بمقياس كلّ الناس. لقد تزوّجت وطلّقت وأنجبتُ طفلين أعشقهما. إنّ حياتي، على ابتذالها، هي قبل كلّ شيء ما أنجزته خلالها. أنا سيّدة مصري. أمّا مليكة فليست كذلك. في الأربعين من عمرها، وجب عليها أن تتعلّم الحياة. وهذا أكثر ما يفرّقنا في العمق، هذا الزمن الساكن بالنسبة لها والثري باللقاءات والعواطف بالنسبة لي.

ومع ذلك نحن قريبتان من بعضنا. ونشعر بذلك كلّ يوم أكثر من ذي قبل. أفهم وجعها، أجعل منه وجعي. أحياناً أصبح فاطمة، أمّها التي كانت عقوبتها الأكثر قسوة بلا ريب: لقد حبّست مع عبد اللطيف، أصغر أبنائها، لأحد عشر عاماً دون أن يكون لها الحقّ في رؤية أولادها الآخرين. لم يكن بوسعها سوى أن تتخيّلهم من خلال الجدران السميكة للسجن. على بعد بضعة سنتمترات، كانوا يرون انطفاء شباهم وجهاتهم، دون أدنى أمل في الخروج إلى النور. هل هناك عذابٌ أفظع من هذا بالنسبة لأمّ؟

لقد نجحت في أن تدسّني في جلد كلّ واحد من إخوتها وأخواتها. أنا عبد اللطيف الصغير، الذي سُجن في عمرٍ صغير جداً لدرجة أنّه حينما سيفرّ رفقة ثلاثة ممن يكبرونه، سيرنو بفضولهم إلى عالمٍ يجهله. لم ير قط طريقاً ولا بقرة ولا شجرة ولا عمارة ولا حمّاماً. أو أنّه لم يعد يتذكّرها. لم يستطع سوى أن يتخيّلها. وحدها الحكايات التي روتها مليكة تربطه إلى الواقع.

أنا أيضاً رؤوف، الوحيد واليأس في زنزانته، الذي يحلم بوالده وبالحيوات التي لن يعرفها. ونحن أيضاً الفتيات الثلاث.

ميمي التي بقيت راقدة لسنوات عديدة جراء انخفاض حاد في الضغط والتي تعرف أن تحدّد الوقت، بدون ساعة، لأختها الثانية بالقرب من أسفل فراشها المحشو بالقش؛ وسكينة وماريا، المسجونتين في العاشرة والحادية عشرة من عمرهما على التوالي، واللّتان تنتظران كلّ شيء من مليكة. علاوة على أنّها أختهما البكر، ستكون أمهما ووالدهما و مربّيتهما، ومنازقتهما التي تضيء ذلك الليل الطويل الذي لا نهاية له، تلك التي تروحي بالأمل وتمنع الاهيار والاستسلام. تلك التي ترغبك أن تبقى كائناً بشرياً.

أخيراً، أنا عاشورا شّنا وحليمة عبودي، ابنة العم والخدمة، اللتان لم تشاءا أن تتركّا آل أوفقيير في منفاهم، وتقاسمتا طواعية مصيرهم، دون أن تتذمّرا أبداً.

كلّ واحد منهم يشبه شخصية روائية. حينما التقيت بهم أخيراً، شقّ عليّ أن أصدّق نجاحهم ووجودهم. يتحرّكون أمامي، يفكّرون، يتكلّمون، إنهم تلقائيون. لم يعد كلام مليكة ولا كلماتي هي ما يجعلهم يحيون. في البداية، شقّ عليّ بعض الشيء أن آلف ذلك.

حينما روت لي مليكة فرارهم، تمسّكتُ بأريكتي وكأنيّ أمام رواية مغامرات أو فيلمٍ مبهر. ستستمرّ الحكاية أسبوعاً كاملاً. بعد ظهيرة كلّ يوم، حينما كانت تختم حكايتها بعبارة: «أنا متعبة، سنلتقي غداً»، كنتُ أشعر بنفس الضيق الذي يشعرُ به من يتعلّق بمسلسلٍ تلفزيوني وهو يرى على شاشة تلفازهِ العبارة القدرية: «يتبع». في الصباح، حينما

أستيقظ، أتفاجأ بالبحث عن نظارتي على طاولة السرير لأقرأ
تتمة القصة التي لم أكتبها بعد...

حينما أكون معها، لا أملّ أبداً، أضحك، أبكي، أرتجف،
أرتعش. ويقلقني تأخرها. يدور الزمن. تتصل بي.

- ميشيل، لقد تغير شارع بيتك هذه الليلة: لقد اختفى
بيتك.

لعشر مرّات، لعشرين مرّة، جاءت إلى بيتي ولا تزال تخفق
في العثور على طريقه. أفهقه.

- والمترو؟ ألا يزال موجوداً على الأقل؟

أساعدها بصبر وأناة في استعادة وجهتها. ولحسن الحظ
أن الهاتف المحمول موجود. إنه بوصلتها، مفتاحها السحري،
دليلها، إنه حصة بيتي بوسيه *petit poucet** لإرشادها (1)
وسيلة الإبقاء على الاتصال مع الواقع، أي نحن، إيريك وأمه
فرانسواز وبعض الأصدقاء والأقارب.

ولا أضجر عندما أنكبّ على الكتابة. 40 أسطوانة.
1500 صفحة من المخطوطات. لا بدّ من الحذف والشطب
والتشذيب. لربّما أمكننا أن ننشر ثلاثة أجزاء. اخترنا أن
نتوقّف بالضبط بعد استعادة الحرية، مع بعض الصفحات في

* *petit poucet* عنوان حكاية للأطفال واسم شخصيتها الرئيسية التي
كانت تصفّ الحصى لتستدلّ بها على بيتها، وهي للكاتب الفرنسي الشهير شارل
بيرو (1628-1703) وله أيضاً حكاية ذات القلنسوة الحمراء - المترجم -

النهاية لنعرض السنوات الخمس التي أمضيناها في المغرب بانتظار الوصول إلى فرنسا.

في البداية، كنا قد استحضرنَا فكرة حوار بيننا، مليكة وأنا. بيد أن قصّتها خيالية لدرجة أنني قرّرتُ كتابتها بصيغة الشخص الأول لنعطي تجسيداً أكثر للكتاب. خلال تلك الأشهر الثلاثة من الكتابة، وأنا حبيسة منزلي أمام حاسوبي، بلا طعام تقريباً، عصبية ومنهوكة، وبلا اهتمامٍ بأهلي الذين، لحسن الحظ، لم يحتجوا، كنتُ أنا مليكة.

— لقد جعلتني الفرد الثامن في عائلة أوفقر، قلتُ لها متظاهرةً بالتشكّي، خلال مخابراتنا الهاتفية الخمسين في كلّ يوم.

مانويل كاركاسون هو قارئنا الأوّل. وإذا تأثر بالقصة في الحال، أبدى فضولاً حيال كلّ التفاصيل وحثني على إعادة السؤال عنها، كلون ثوب وعيني محظية وقسوة سجّان. كان لديّ، في دفتر ملاحظاتي، حتّى مخطّط زنزانة بير—جديد، مرسوماً ومعلّقاً عليه بخط يد مليكة، لكي أفهم أكثر ما ترويه لي.

بدأتُ أرتعد أمام تلك الجدران الورقية. ذات يوم، كانت حقيقية. ظلّ الثقب الذي أشارت إليه برأس القلم لتشرح كيفية تواصلها مع أمّها، من زنزانة إلى زنزانة، على حاله.

رسمت نموذج جهاز الصوت البدائي الذي صنع من قبلهم. كانت تتيح لهم كلّ مساء الاستماع معاً إلى الراديو، رغم

الحواجز السميكة التي كانت تفصلهم عن بعضهم، وتتيح
لمليكة رواية قصص لجمهور عائلي محروم من كل شيء.

وكان مخطط النفق، الذي حفر على مدى ثلاثة أشهر
بملاعق صغيرة وأغطية علب معدنية، دقيقاً أيضاً. في الليل،
عانيت من الكوابيس. هربت معهم. قبض الحراس عليّ ثانية.
استيقظت عرقانة لأجد بأنّها لم تكن سوى كوابيس، وأنني في
سريري في جوّ حارّ. حدث لي مراراً أن شعرت بأنني مذنبه
برفاهيتي البسيطة تلك.

حتى إذا كانت الصحافية تطالب بالمزيد من الإيضاحات،
كان لديّ في الغالب الهواجس من أن أفاجأ مليكة بذلك، من
أن أوقظ في كلّ مرة الوحوش. من كلّ ما روتّه لي، كانت
حكاية موت أبيها أكثر ما بلبلها وأثار هياجها. شقّ عليها أن
تعيد القراءة. هناك الكثير من الأمور التي لم تروها قطّ لأيّ
شخصٍ.

خلال كلّ تلك السنة، شاهدت مليكة تتغيّر. تستعيد
الثقة بنفسها. لا تزال تقلّل وتُسيء التغذية بطريقة فوضوية،
ولكنّها استعادت وزنها. غالباً ما تضحك. يمنحها ايريك الحبّ
الذي تحتاجه لتعود من جديد إلى العالم. لم يعد لديها ذلك
المظهر الشبحي ولا تلك النظرة الطفولية التائهة التي تثير
الرغبة في احتضانها لمواساتها والهمس لها « لن يتكرّر ذلك
أبداً ».

قرّرت أن تنظّم حياتها: أن تتزوج وتنجب وتنقل مسكنها

وتتزوج. في تشرين الأول من عام 1998، كنّا حفنة من الأشخاص في دار بلدية الدائرة الثالثة عشرة لحضور زواجها. كان جورج كيجمان، محاميها خلال الأيام العصيبة، حاضراً. وكان الجميع متأثرين أشدّ التأثر.

تخيّلْتُ أبهة الزيجات وبذخها في القصر، وفكّرت في ما كان سيكون عليه زواجها في العشرين من عمرها، في المغرب، لو لم يكن قدرها قد انقلب. عرضت لي صوراً لها في عيد ميلادها الثامن عشر ملصقة في ألبوم من الجلد الأحمر، وهي أحد أشياء الماضي النادرة الناجية من الإعمار. أقام والداها حفلة راقصة احتشدت لها الدار البيضاء بأكملها، وحضرها حتى الأمير مولاي عبد الله، شقيق الملك الحسن الثاني. بذلك الثوب الطويل من ماركة ديور، وشعرها المنتظم، وابتسامتها المتصنّعة بعض الشيء، لم أعرفها. حقّاً أنّها كانت واحدةً أخرى.

جرت حفلة العرس عند والدَي إيريك، في ثانوية راسين، التي كانت مديرتها فرانسواز بوردروي، وهي سيّدة قويّة الشكيمة، لها ابتسامة ساحرة وظرف ابنها. التقيتُ بتلك المناسبة بأفراد عائلة أوفقيّر الذين لم أكن أعرفهم بعد.

أعجبتُ بجمال فاطمة الخارق. وهي في الستين من عمرها، لا يحمل وجهها الذي لا زال يحتفظ بشبابه - كأنّها الأخت البكر - آية أمارّة على محنها. وحده الحزن الأبدي في أعماق عينيها الكبيرتين الكئيبتين يشهد على آلام الماضي.

شدتُ على يد رؤوف الذي أدهشني وقاره وشبهه بوالده.

اكتشفت ماريا، امرأة جميلة، في غاية الأناقة، عازمة على نسيان الماضي، وعبد اللطيف شابٌ وسيمٌ وخجول. وكنتُ قد التقيت من قبل بسُكينة الفتاة المسترجلة ذات الساقين الطويلتين كشادن، والتي تحلم بالنجاح في مهنة الغناء، وميمي، الرقيقة والطيبة، التي تكتب أشعاراً شجيّة. ونانو الصغيرة، وهي البنية الحازمة والفضولية، التي على الرغم من الزأزة الخفيفة في نطقها، لها رأيٌ في كل شيء، وتوشوش بصوتها الجهوري وهي تحدّجك بعينها المدوّرتين كحبي زيتونٍ سوداوين.

كما تعرّفتُ إلى والد ايريك، بير بوردروي، وهو باحثٌ ذو مظهر وديع وجذاب مثل الأستاذ نيمبوس، بلحيته وشعره الأبيض الثلجي؛ وأخته ماريون، شبيهة إريك الشقراء، وبولو، جدّته، وهي سيّدة مسنة مدهشة، ذكيّة وحيوية. جميعهم يحبّون مليكة وعائلتها، يتفهمونهم ويعتنون بهم ويحمونهم ويقيمون بينهم وبين العالم الخارجي جسراً من المحبة والعناية. هؤلاء الناس المدهشين يعيشون الدفء في القلب.

كانت مليكة محظوظة بأن جرى تبنيها بهذه الطريقة. وهي تعرف ذلك: فبادلتهم محبتهم وأحبت إريك حباً شديداً. حينما يُنظر إليهما من الخارج، يشكّلان ثنائياً رائعاً، ومؤثراً للغاية حينما تُعرّف حكايتهما.

منذ صدور الكتاب في شباط 1999، كان نجاحه** سريعاً

* الزأزة، هي لفظ الجيم (ج) كحرف الزين (ز)
** أي كتاب: "السجينة"

ومفاجئاً لنا. تسابقت إليه حتى قبل ترجمته، محطات التلفزة والإذاعة والصحف الفرنسية والأجنبية. وانهالت الطلبات على مليكة. وأعمل كلود دالا تور، الملحق الصحفي لدار غراسيه، والسيجارة بين شفتيه، بهمة ونشاط علاقاته بالصحافة. لم يهدأ للحظة، وسيبقى الكتاب، الذي يحقق أفضل المبيعات على الإطلاق، لأسابيع عديدة على رأس قائمة المبيعات.

في اللحظة التي انخفضت فيها المبيعات، أنعش موت الملك الحسن الثاني الفضول حيال المغرب وسنواتها المظلمة وحكاية عائلة أوفقيير. وكانت تلك انطلاقة جولة إعلامية واسعة، ومن جديد قفزت السجينة إلى رأس قوائم المبيعات. كانت مليكة حزينة بغرابة لموت الملك. حتى بمعرفة مشاعرها المتناقضة وجدانياً - غالباً ما تحدثنا عن ذلك - ربّما كنتُ لأتصور العكس.

ولكن كلا. إنّ كلّ شابها هو ما تبدّد معه نهائياً، هذه المرأة. بقيت متسمة طيلة النهار أمام تلفازها الذي التقط بثّ القناة المغربية وانفعلت وهي ترى بشرود القصر والمحظيات والملك محمد الخامس على صهوة جواده المزيّن بالريش. هل ستنتهي مليكة ذات يوم إلى حلّ مع ماضيها؟

مع ذلك، سوف تساعدنا المقابلات التي ستعطيها، في فرنسا أولاً، ومن ثمّ في كلّ مكان، في التثام جراحها. ولو أنّها أصبحت رغماً عنها كائناً إعلامياً، ومطلوبة باستمرار من قبل صحف وتلفزيونات العالم بأسره، ومعارض الكتاب وحفلات التوقيع واللقاءات. كما التقت بأصدقاء منسيين، ومعارف

قدماء لوالديها أو من الفترة التي كانت فيها فتاة شابة من المجتمع المغربي السعيد، وتلقت بريدًا غزيرًا. وبات استخدامها للوقت مثقلًا جدًا لدرجة أنني قدّمت لها فيلو فاكس بدلاً عن الدفتر المدرسي ذا المربّعات الصغيرة الذي كانت تكتب فيه مواعيدها. لست متيقّنة من أنّها استخدمته. ولكن كان ذلك مناسبة للتفكّه بيننا من أجندتها الجديدة كوزيرة.

خشيت أن يكون ذلك مفرطاً وأن يجعلها تجترّ ماضيها سريعاً. ما حصل هو العكس. لفرط ما روت حكايتها، تعرّفت مليكة . لا تكلّ أبداً من تكرار حكايتها حتى وإن كانت جولاتها في أوروبا، حيث يلقي الكتاب نجاحاً، لاسيما في ألمانيا، تنهكها أحياناً و تترف طاقاتها.

يرغمها وهنها وضعفها على أن تراعي صحتها. غالباً ما تعاني من آلام غامضة أسميتها «أوفقيريات» في محاولة مني للتخفيف عنها. تعاني من آلام في الرأس أو البطن، يبقى تشخيص أسبابها مجهولاً وتزول إن لزمّت السرير لبضعة أيام.

لقد قضم السجن جسدها من الباطن. الأفراد الآخرون للعائلة يعانون بدورهم من هذه الآلام. وبعضهم يعاني من أمراض أكثر خطورة.

اهتمت السينما بحكايتها. دعتها ناتالي مارسسيانو، وهي منتجة سينمائية شابة من أصل مغربي، إلى لوس أنجلوس حيث تعيش. أبت إلا أن تنتج الفيلم. لن يحدث الأمر في النهاية، ولكن مليكة ارتبطت من جديد مع أمريكا شابها، حينما كانت تحلم بأن تصبح ممثلة.

وجذبتها تلك البلاد بشكل حاسم من خلال أوبرا وينفراي. التقت المرأتان بمناسبة الجولة الأمريكية للمليكة لدى صدور الكتاب في الولايات المتحدة.

أوبرا، «سيدة شيكاغو» التي تسيطر على اثنين وعشرين مليون مشاهد في العالم وتحقق أفضل الأعمال رواجاً والتي يتخاطفها الأمريكيون - توني موريسون التي دفعتها إلى القمة، تدين لها بمبيعاتها الهائلة - افتتت بمليكة وبالكتاب وجعلت من نادي أوبرا كتاب الشهر من خلال شرائها لسبعمئة ألف نسخة دفعة واحدة من الناشر الأمريكي. ولم تفعل ذلك قط مع كتاب فرنسي آخر.

بفضلها سيبقى السجينة لأكثر من عشرين أسبوعاً على رأس قائمة الكتب الأفضل رواجاً لصحيفة نيويورك تايمز. وهذا أيضاً لم يحصل قط لكتاب فرنسي.

حينما اتصلت بي مليكة لتزفني الخبر، ذكرتها بأنها، حينما كنا نحن الاثنتين محبوستين في مكنتي، كانت تتوقف عن الكلام لتسألني بحسرة:

- ميشيل... أجيبني بصراحة. مَنْ سيهمُّ هذا الأمر؟

- أنا، كنت أقول دون اضطراب. أنا. هذا يسحرنني. هلاً

تابعنا؟

أحياناً كنا نتوقف، ونحلم. وماذا لو سار الأمر على ما

يرام؟

حدثتها ذات يوم عن اوبرا:

- أتعرفين، هناك في الولايات المتحدة، ذلك البرنامج التلفزيوني الذي تنتجه وتقدمه تلك المرأة المذهلة التي أصبحت أكثر شهرة من رئيس الولايات المتحدة. إنها قُتِمَ بالحكايات الشبيهة بحكايتك. هل تتصورين لو..؟

ولكن لم نشأ أن نتخيل أي شيء. ذلك بعيد المنال جداً وغير واقعي تماماً. فواصلنا العمل.

استدعنا اوبرا في أيار 2001 إلى شيكاغو. كانت مليكة ضيفتها النجمة. كان الجمهور عبارة عن هيئة من ربات المنزل الأمريكيات، القادِمات من أركان البلاد الأربعة والمنتخبات من بين آلاف المرشحات. ماري من فيسكونسن وسو ايلن من أتلانتا تتجاوران مع جيسي من نيو جيرسي. كل هؤلاء النساء قرأن بدقة *Stolen Lives* (حيوات مسروقة)، هكذا عُنونَ كتاب السجينة في الولايات المتحدة.

« لقد أُغْرِمَ بالكتاب »، أسرّ لنا غريك، مساعد أوبرا.

لقد صُمِّمَ العرض حقاً على الطريقة الأمريكية. قبل البرنامج أحاطنا الجميع برعايتهم. وقبل التسجيل بيضعة دقائق أجلسنا في الصف الأمامي. نحن، أي ميمي، أخت مليكة، ناتالي مارسيانو وأختها جويل، ميشيل شريكة ناتالي وأنا. أشاعَ القائمُ على البرنامج الدفء في الصالة.

وصلت أوبرا إلى خشبة المسرح، ملكية ومهيبه في ثوبها الأصفر. طرحت الموضوع وألقت أسئلة على الجمهور. ثم

انضمت إليها مليكة بجور شديد وسط احتفاء وترحيب.
فتحت أوبرا ذراعيها مستقبلة إياها: "ملكية أنتِ بطلتي"
-Malika, you`re my hero

وتمّ الأمر. بكى الجميع، بين الجمهور وعلى المنصة. وحتى
نحن الخمسة، ذرفنا الدموع. استغلّ أحد الحاضرين بث فيلم
عن مليكة فوزع محارم ورقية على الحضور ورحّب بهم.

بعد البرنامج الذي كان انتصاراً كبيراً، غادرنا على وجه
السرعة. التقطت أوبرا معنا، ومن ثمّ مع مليكة، الصور
التقليدية التذكارية. صفقت تصفيقاً سريعاً وانتقلت إلى الحالة
الأخرى.

لدى خروجنا تجولنا من جديد مشياً على الأقدام في
"مغنيفسانت ميل" الجادة الرئيسية، في شيكاغو. بحثنا ونحن لا
نزال تحت تأثير البرنامج، عن مطعم.
قلتُ:

- مليكة، أجيبي بصراحة. بماذا تشعرين بعد أن كنتِ
الضييفة الرئيسية للبرنامج الأكثر شهرة في العالم؟
توقفت. أطرقت في التفكير. نظرت إليّ.

- أنا سعيدة. ومرتاحة للغاية. أنا لا أبالي بالنجاح والمال،
أنت تعلمين ذلك. ما يهمني هو أنني حققتُ أمنية راودتني في
السجن. في بعض الأيام، حينما كان السجن قاسياً للغاية،
كنتُ، لأعين نفسي على الصمود، أردد مراراً وتكراراً
الجملة التالية: ذات يوم، سيعرف العالم أجمع حكايتي. اليوم،

بفضل أوبرا، يعلم اثنان وعشرون مليون مشاهد عبر العالم ما جرى لنا. لقد تحققت أغلى أمنياتي.

تبين لي بأنه سيمكنني بسهولة أن أكتب كتاباً كاملاً عن كيكاً. مرة أخرى، سأتنحى جانباً وأترك لها الكلام. حينما كنا نشتغل على السجينة كنتُ أدري بأن تلك الفكرة كانت تراود ذهنها.

كان لدى صغيرتي هبيرناتا، العائدة من بلاد الموتى، الكثير والكثير من المواضيع المثيرة للاستغراب أو الحيرة أو الغضب، وهي تراقب عالم الأحياء، لما كان المجتمع قد آل إليه خلال عشرين عاماً. كان كل شيء يصددها ويفزعها ويؤنبها. إنها حساسة للغاية. غالباً ما كانت تستخف بنفسها وبصعوبة حياتها اليومية.

ثم آبتُ إلا أن تروي تجربتها في النجاة التي تشاطرها مع الكثير من السجناء الذين قضوا فترات طويلة في السجن، أمثال نيلسون مانديلا، والناجين من سجن ترمامارت للأشغال الشاقة، والكثيرين سواهم، والقائمة تطول كثيراً. كيف للمرء أن يتعلم من جديد أن يعيش بعد السعي إلى النجاة؛ النوم، الحلم، التغذية، الحب، المشي... ما يبدو لنا عادياً وما بدا لها، آن أُطلق سراحها، أنه لا يقاوم. تقدّم من جديد شهادتها. بإنسانيتها وبفكاهتها المتحفظة.

كيكا الحاضرة بيننا. أنا سعيدة بأن تجدي، أخيراً، هناك في ميامي، بين إيريك ونوال وآدم الذي سينضم إليكم قريباً،

ملاذك الآمن. بيتك الصغير. ركنك الضيق من الفردوس.
 غالباً ما أفكر بك. وإن كنا نلتقي قليلاً. رغم مزاجك
 الغريب الأطوار (ما كنت أبداً متصنعة) أعرف، في
 الحقيقة، برؤيتك ألف مرة أثناء العمل، أنك من خيرة
 الأشخاص. مستعدة لعبور الأطلسي لتنامي في غرفة
 المستشفى، على الأرض وعلى فراش رديء، لأن صديقة
 مريضة بحالة خطيرة تحتاجك. لم يكن لقاءنا عبثاً. ما بعد
 الكتاب، هناك ترجمات ونجاح عالمي وإمكانية أن تعيدي بناء
 ذاتك بعد إدلاء هذه الشهادة للعالم، كما أن هناك ما
 أثرته في: الإعجاب بشجاعتك، وصبرك، وإرادتك. وفوق
 كل شيء ذلك الشغف بالحرية الذي جعلكم، أنت وعائلتك،
 في حالة تأهب قصوى، تستردون مصيركم بيديكم وتحفرون
 نفقاً تحت زناناتكم. هذا درس جميل في الأمل.

لم أتصور قط أن يكون الألم مخلصاً. لا يصبح المرء
 بالضرورة صالحاً لأنه قاسى محناً مرعبة.

ولكنك يا عزيزتي كيكاً، كنت من طينة أخرى. وبقيت
 كذلك. روح جميلة سامية. امرأة حقيقية.

ميشيل فيتوسي

باريس، كانون الثاني 2006

الرجل الأول في حياتي

آدم. صغيري آدم، حبيبي، حياتي. لقد احتجتُ إلى كلِّ هذه السنين وكلِّ هذه المحن، حتى أولدَ أنا بنفسي وأسلمَ بواقعي. لقد ولدتُ امرأةً في حين أن امرأةً في عمري، تكفُّ أحياناً، عن أن تكون كذلك. يمكن لامرأةً طبيعية، إن كانت تعجز عن منح الحياة، أن تنقذ على الأقلَّ حياة. إذ كان آدم ليكاد أن يموت. ما كان أحدٌ ليعلم بذلك. إنه طفل المعجزة.

في الطابق الأول من مبنى رابطة حماية الطفولة الذي كان الضياع الساطع لمراكش يغمره، أخذت الرائحة المشربة بالحليب والسكر والأسرة والأدوية بتلابيبي. كلنا متساوون هنا. امرأة شابة محجبة، باسمة، تلعب على مقربة من امرأة إسبانية تنتظر منذ أسابيع الطفل الذي وعدت به. جئتُ أتبنى طفلةً. أنا محظوظة: فهناك واحدة. طفلة رائعة شبك شعرها، إنها الفتاة الوحيدة بين ما يقارب الثلاثين من الرضع الذكور الذين يكون أو يثنون أو ينامون بوداعة. إنها هادئة. لاشكَّ أنها كانت تأمل قدومي. أخذتها بين ذراعي. لم أفهم. لم أشعر بأي شيء. لم هذا الغياب للمشاعر؟ أليس ذلك جائزاً على نحوٍ مرعب؟ شعرتُ أن هذه الفتاة الصغيرة ذات العينين السوداوين لن تكون طفلي. تفحصتُ الرضع من خلال الزجاج الواقى لمهودهم. كنت متوترة، على عتبة اللحظة الأهم في حياتي. مدتُ أُمِّي، فاطمة أوفقي، التي كانت ترافقني، كرة من شعر داكن وجلد متغصن. قالت لي بكل بساطة: « هذا هو؛ إنه ابنك. » كيف استطاعت أن تعرفه بيقين كهذا؟ « لا أدري يا أُمِّي، هذا صبي.

نعم، أنه ابنك»، قالت متشبّثةً برأيها. أخذتُ بين ذراعيّ ذلك الكائن الصغير البالغ أسبوعين من عمره، والذي بالكاد يزن ثلاثة كيلو غرامات، وشعرتُ في أعماقي بفرح ممزوجٍ بالهم وخوفٍ. شعرتُ في لحظة بتمزّق وبأعباء الأمومة.

آدم هبةٌ من السماء، لأنّ السماء أنقذته. كمعظم الأطفال الذين يتوقفون في هذا الميتم، لا ريب في أنه تُرك في مستشفى مراكش من قبل أمّه الأكثر فقراً من أن تستطيع إطعامه. سأعلم فيما بعد أنه في حزيران 2005، وفي أتون حرارة الصيف، كانت متسوّلة مسنّة تحمله تحت إبطها، مجعداً كصرّة قماش متسخ، يوشك على الاختناق. للأسف لاحقت الشرطة، الخبيرة للأسف في هذا النمط من التهريب، تلك التعسة، وأنقذت الطفل، الذي علّقت صورته لاحقاً في إعلان في كلّ مخافر مراكش لمنح الأمّ فرصة العودة عن قرارها. ولكنّها لم تفعل. في تموز 2005، قرّرنا، أيريك وأنا، تبني ذاك الذي ساسميه آدم. بعد الكثير من الإجراءات الإدارية، لكون التبني غير جائز في الشريعة الإسلامية^{*}، حمل اسمي. اسم أبي. أوفقي. إنّها طريقي في ألا أنسى من أين أتيت. احتجّت إلى هذا الطفل - المشعاع. منحته هذه الكنية غير المألوفة، لأزيح كلّ ألمي، لأنسى القتلة الذين سرقوا عشرين عاماً من حياتي، بإسنادهم إليّ إلى الأبد دور الضحية، وبحرمانهم لي من قدر كلّ امرأة: الحقّ في الإنجاب. كنتُ أحسُّ بنفسي ضعيفة منهارة.

* التبني كما ينصّ عليه القانون الفرنسي محظور. بالمقابل، يلجأ الوالدان الراغبان في تبني طفل إلى الكفالة. والمقصود هو وصاية أو تفويض سلطة قرايية تتوقف عند بلوغ الطفل لسنّ الرشد.

أشعر أن جزءاً مني مبتور. كنتُ قد تألّمتُ كثيراً لعجزي عن منح طفل لا يريك، إلى درجة أننا كنا نصل أحياناً إلى حافة الانفصال. لم أعد أريد أن أكون ضحية، ولا أن تكون لي رسالة أطلقها للعالم. أريد أن أعيش، لا أن أنجو.

ليس هذا بيسير. كنتُ منذ بعض الوقت وليّ أمر نوال ابنة أختي، التي أحبّها كما لو أنّها ابنتي وهي تعيش معنا في ميامي. ولكن لنوال والداهما. كانت نقطة التحوّل مباغتة وغير متوقّعة. كنتُ قد التقيتُ سندس أثناء حملة إنسانية لمنظمة صيادلة بلا حدود بينما كنا نعبّر رمال الجنوب المغربي. كانت تكافح حينها التراخوما، وهو مرضٌ يصيب العين. وقد اضطرّرت صديقتي الوفية جداً سندس، وعلى نحو غريب، أن تخضع في شباط 2005 لعملية جراحية في مستشفى باريسسي. كان الموت قاب قوسين أو أدنى من الحياة. كنتُ أنام إلى جانبها كلّ مساء، وكانت تحدّثني عن التّبي. إنّها هي من أقنعتني بهدوء أنّ من الممكن مواجهة الأمر. كان حبُّ ايريك، وسخاءه وجلده، يدفعني أيضاً نحو ذلك الطفل الذي لم أكن أعرفه بعد. انتظرتُ عشرة أعوام كي أتخذ القرار بأن أكون أمّاً، لأقرّ بأنّه هناك أيضاً حرّيةٌ يمكنني معانقتها. يمكنني أن أحظى بقدرٍ يخصّني. كلمةٌ ذاتُ مذاقٍ غريبٍ على شفتاي، الحرية. حرّيةٌ مرّةً، طبعاً. من قصر محمّد الخامس الذي كنتُ فيه أميرة لا تُمسّ إلى السجن الكريه الذي كنتُ فيه شهرزاد بين أهلي، ومتى لم أكن سجينّة؟

العقبات والحواجز في كلّ مكان، الحقيقة والخفيّة،

وخاصّة في رؤوسنا. ولكن ليس هناك أسوأ من أن تكوني سجينّة. نفكر على نحو أفضل. نتعلّم من الزمن الذي يمرّ. بدأتُ حياتي الثالثة، بعد السجن في المغرب، والتدرّب الأليم على الحرّية في فرنسا. أدركتُ بأنّه لم يكن هناك سوى الحبّ. الحب الذي نمنح، الحبّ الذي نتلقّى. أدركتُ هذا الأمر البسيط جدّاً. كان الوقت يحين لذلك.

الحرية المرة

دقائق معدودة، وسوف يعبر الشبح الثقيل للطائرة 747 ستارة الغيوم، فاتحاً أمامي سماء الحرية فهايتهاً. في جهة ما، على مسافة عشرة آلاف متراً تحت قدمي، ينتظرنى رجل حياتي وعائلي وأصدقائي وحياة جديدة تكاد تكون بكرة، وكأن تلك السنوات الأربع والعشرين من السجن المنعزل لم تكن إلا كابوساً. السماء زرقاء، زُرقة تكاد تكون خيالية، وشعرتُ بنفسى كائى فى عالم آخر.

ابتعدت السواحل المغربية وتوارت، ولاحت إسبانيا. كم من السنوات كنتُ سأحتاج لأصل إلى هنا، فى هذه الطائرة المصممة بهديرها، وسط وجوه غريبة...

بدأ كل شيء فى عام 1958، حينما استُقبلت الفتاة الصغيرة التى كنتُها فى القصر بناءً على طلب الملك محمد الخامس (1911- 1961)، خليفة النبي، وسليل العلويين، لأربى فيه كأميرة إلى جانب ابنته للأ مينة، الابنة الأثيرة المدللة للملك وللا بهية. كان اسمى يعنى فى اللغة العربية « الملكة الصغيرة ». كنتُ إلى ذلك الحين « الملكة الصغيرة » ل محمد أوفقى، والذى. وسأصبح على نحو غريب الأميرة بالتبني، الهزلية، النبيهة والحزينة فى آن، لبلاط من القرون الوسطى كانت المحظيات فيه يتجسسن على بعضهن، والحُرْمُ تنغلق على العيون الكثبية للمفضلات، وكان الخدم فيه يصلحون سلوكك مباشرة بسوط. أنا مدينة لشخصيتى القوية فى مقاومة التعليم

الأكثر من صارم لجان ريفل، المريّة الإلزامية، المرسلة إلى الملك من قبل كونت باريس. هذه العانس بعينها الواسعتين ذات الزرقة الفاقعة وكرهها للرجال، والتي لم تكن تحبّ لا تناول الطعام ولا التسلية، سوف تعودنا على تناول خبز الباغيست* . إلا أنني لن أنسى الضحكات المشتركة والزّهات بعربة الخيل، والقصور ذات الصّحون الدوّارة العملاقة وحلبات التزلج في ايفران المخصّصة لنا وحدنا. متأرجحة بين الشرق والغرب، أتكلّم الفرنسية في بيت أهلي والعربية في القصر، راعيتُ عبارات لهجة البلاط. أينما أحلّ في المغرب، أسأل باستمرار ان انتسبتُ إلى

«Dar-el-Mahzran»، أي دار السلطنة. ولكنني لستُ أميرة، وبقية حياتي، التي قضيتها في السجن، سوف تؤكد ذلك. كنتُ، ولا زلتُ، حروناً، على كلّ شكل للسلطة. تحت طيش طفولة باذخة، كان تمرّد يقبع في أعماق أعماقي. لم أكن أريد أن أكون نكرةً. مسبقاً! مذ كانوا يتبنّونك في البلاط، كانوا يقطعونك عن ماضيك وعن جذورك، كانوا يفعلون كلّ ما من شأنه إقناعك بأنّه لم تعد تملك عائلة. كانت السراي تعجّ بنساء لا هويّة لهنّ، بنساء مجهولات كنّ يختمن حياتهنّ حزينات في عزلة ترتسم تفضّناً على وجوههنّ، بعد أن كنّ قد مجذّن مخدع الملك. طبعاً، كنتُ أحبُّ الحسن الثاني، أبي بالتبني، الصارم، الساخر، قبل أن يصبح الجلاد الشرس لأهلي. كنتُ أريد الخروج من القفص، كنتُ حبيسةً، ولكنني كنتُ أعلم أنّ لي عائلة وأريدُ الالتقاء بها.

* الخبز الفرنسي الشهير

أحياناً حينما أروي هذه الحكاية الخارقة، أشعر بأنّ الناس لا يصدّقونني. يتساءلون: أخذ طفلة في الخامسة من السديها؟ قد يبدو هذا قاسياً، ولكن كان من المستحيل لوالديّ أن يرفضاً طلباً كان يصدر عن ملك يقبل الناس يده راكعين. حينها، كان أبي جندياً، متزوجاً منذ 29 حزيران 1952 من الحسناء فاطمة شتا، البالغة من العمر 15 عاماً، ولم يكن قد أصبح بعد الرجل الثاني في النظام. كان الفارق في السن بين والديّ عشرين سنة. ولد محمد أوفقي في 29 أيلول 1920 في عين شعير، في إقليم تيفلايت، منطقة نفوذ البربر في الأطلس الأعلى المغربي. كان لقبه أوفقي يعني «المفقر». في السابعة من عمره، فقد والده، أحمد أوفقي، زعيم القرية، وقد لقب بـ باشا بودنيب من قبل الماريشال ليوتي: سرعان ما حلّ الجيش محلّ عائلته في حياته. كان متألقاً، ولا جدال في ذلك. في الحادي والعشرين من عمره، تطوّع كملازم احتياط في الجيش الفرنسي، جُرح في إيطاليا، ونال رتبة نقيب في الهند الصينية، ثم عُيّن سريعا رئيس مرافقي محمد الخامس. مع تولّي الحسن الثاني للسلطة، الذي توجّ في 3 آذار 1961، حاز على ثقة الملك الجديد. إبان الأزمة العصرية لاختطاف زعيم المعارضة السياسية المهدي بن بركة* في سان - جيرمان، في عام 1965، اتهم بالتواطؤ وحُكم عليه غيابياً بالسجن المؤبد من قبل فرنسا. كان حينها جنرالاً، وزيراً للداخلية.

كان يقال عنه بأنّه كليّ السلطة. وقد كان كذلك بالفعل. اتّهم النظام بالفساد والاستبداد ومظاهر بذخ ملكٍ

* زعيم يساري للمعارضة، حُطِف في باريس، في 29 تشرين الأول 1965، واختفى أثره بعد ذلك - المترجم -

يدعمه الغرب دعماً مطلقاً. بعد انقلاب الصخيرات، غيّر الخوف معسكر والدي. ذات يوم من تموز 1971، اقتحم فوجان من المدرسة العسكرية للملازمين قصر الصخيرات أثناء الاحتفال بعيد ميلاد الملك. قتلوا المئات من المدعوين، ونجا الملك بالاختباء في المغاسل. دافع والدي، الموالي للجيش المتمرد ولكنه المنعزل عنه، عن براءة 1081 تلميذاً من الضباط وتمّ له ذلك. وظلّ متأثراً بقسوة القمع والعقاب. تغيّر أبي واكتأب، حلم بحياة جديدة، أكثر بساطة وتجرداً.

مع ذلك، لم يسبق أن ركّز هكذا سلطات بين يديه. سميّ وزيراً للدفاع، قائداً لأركان القوات الجوية الملكية. كان يتوفّر على كلّ شيء. امرأة فاتنة، ستّة أطفال، منصب في قمة الدولة. هبة جنديّ بوجه مسنون كنصل. وسيفقد كلّ شيء، حياته أولاً. أتذكر صديقة، ابنة جنرال قُتل لاشتراكه في انقلاب الصخيرات، غيّرت لقبها، إمّا دُعراً أو جراء خوف مفهوم من أن تعاني من مضايقات النظام. صدمني ذلك القرار. كنتُ أقول في نفسي: مهما حصل في حياتي، سأبقي على اسمي. أوفقيّر: في المغرب، كما في غيرها من البلدان، كان اسمي مفتاحاً سحرياً، خليطاً من احترامٍ وخشيةٍ وحياةٍ خارجة عن المألوف.

إنّ هذا اللقب نفسه هو الذي كلّفني الجحيم. كنتُ في باريس، أحضّر البكالوريا على هواي، بالخروج في كلّ ليلة، وكنتُ سأبقى طائشة وقحة جداً لولا حادث السيارة الذي كاد أن يكلفني إحدى عيني. بقيت أحمل آثار الجروح، وكثيراً ما قهّج وجهي، في السجن، وعانى التشنجات. كان عليّ أن

أعود إلى المغرب وأن أتعلّق. ولكنّ الأحداث قضت بخلاف ذلك. كنّا على شاطئ البحر، في قبيلة، كان والدي، البعيد أكثر من أيّ وقت مضى عن الخطّ السياسي للملك، يبدو مختلفاً. أتذكره، كنيّياً، متطلّعاً إلى الأفق، ثمّ فجأة راقصاً، مغنياً، فكها، محاولاً التزلّج على المياه، تحيط بجذعه عوامّة ضخمة مضحكة. ذات صباح، ضمّني أبي، الذي لم يكن مفرطاً في إظهار الحركات العاطفية، بحنوّ بين ذراعيه. نظر إلى بحدة. هل كان يعلم بما كان ينتظره؟

السادس عشر من آب 1972. كنتُ في صالون بيتنا في الدار البيضاء، أدّرتُ جهاز التلفاز، فسمعتُ صحافياً يذيع أنّ انقلاباً قد وقع، وأنّ الطائرة الملكية قُصفت فوق تطوان. ولم يُعرَف بعد مَنْ هو مدبّر الهجوم. انهرتُ قلقاً. في الليل، اتّصل جدي وطلب مني العودة إلى الرباط. ثمّ اتّصلت بي أمّي في الخامسة صباحاً، وأخبرتني بصراحة قاسية:

— مات أبوك. خذي حوائجك وعودي إلى الرباط.

لم أفهم. لم أصدّق ذلك، بل رفضتُ الحقيقة حتى اللحظة الرهيبة التي رأيتُ فيها جسد أبي، ممسّط الشعر، مغسولاً، تعلو شفّته ابتسامة مزدرية كأنّها تتحدّى الموت. وكأنني في كابوس، رأيتُ آثار الطلقات الخمس في الجسد: واحدة في كبده، واحدة في رثته، واحدة في بطنه، واحدة في ظهره، والأخيرة التي قضت عليه، في رقبته. يقول القرار الرسمي: انتحار. ماذا بوسع المرء أن يفعل كي ينتحر بخمس طلقات؟ ولا ينمّ ما تلا ذلك عن شجاعة مفرطة.

كان أبي، الوفي بين الأوفياء، قد خان، وترغم المؤامرة،
والآن سينصب غضب الملك علينا. منذ متى وجريمة النسب
موجودة؟ منذ متى على الأبناء أن يُعاقبوا بدلاً عمّن أنجبهم
وجاء بهم إلى الدنيا؟ لم يكن بوسعي أن أسامح أبي بالتبني،
الحسن الثاني، على قتله والدي. ثم كرهته بسبب الطفولة
المتورة لأخوتي وأخواتي. كرهته لأننا كنّا أطفالاً أبرياء. لقد
وجدت نفسي مرمية في السجن دون أن أصدق، كمجربة، مع
أمي وأخواتي سكيّة ومريم وماريا، وأخوتي رؤوف وعبد
اللطيف، اللذان كان لأصغرهما ثلاثة أعوام، وامرأتين، عاشورا
شّنا، ابنة عم أمي التي تكبرها بعام، وهي كانت مربيتنا،
وحليمة عبودي، مربية عبد اللطيف، التي كانت بعمري.
الضحيتان المسكيتان الراضيتان اللتان سيكبلهما القدر الساخر
في هذه المأساة دون أن يكون لهما فيها أيّ ذنب.

— آنستي، أترغبين بمشروب؟

المضيقة التي انحنى نحوي وعرضت عليّ مرطباً، مبتسمة،
لا تدري من أيّ جحيم أنا عائدة. ماذا عساها أن تتخيّل ان
رأيتني مثلما كنتُ هناك حيث عشت، إذ كان شرب عصير
برتقالة في كأس من البلاستيك يبدو لي ذروة الرفاهية.

رويت في السجينة ظروفنا أثناء الاعتقال: كان يُعتقد بأننا
كنّا مدلّين، في مقر إقامة مراقب على الأكثر، ولكنني أتخيّل
رؤوس أصدقائنا — كلّ أولاء المتملقين الذين كانوا يتجمعون
إلى مائدة والدي — إن علموا بأنّ البراغيث كانت تنهش
سيقاننا حتى الدم، وأنّ الفئران كانت تنهب القليل من الطعام

الذي كان يتوفر لنا، وأن الجرذان كانت تسير على أطرافنا، دون أن ننسى العقارب والجراد بضجيجها الجهنمي.

أيمكنني نسيان محاولات الانتحار؟ مداعبات السكرين الذين كنّا اللحم الطازج لهم؟ إزعاجات ومداهمات الجنود القساة بقدر حماقتهم، وعجرفة النظار الصغار؟ كيف قاومنا؟ ربّما لأننا كنّا عائلة، ربّما لأننا كنّا نحفظ حتى وسط الرعب بشيء من الفكاهة. لاشكّ، لأننا كنّا قد أبقينا على الأمل. كنتُ سجيناً نابضة بالحياة.

بقيتُ زمناً طويلاً في سجن وهمي، منفرد، مُكبّ، مُذعّر. لا تمرّ الدقائق بالنسبة لي بالطريقة نفسها التي تمرّ بها بالنسبة للآخرين: إنّها طويلة، متوعّدة، غامضة. لقد احتفظتُ من الزمن بمنظور مشوّهٍ يعني اليوم من أن أكون دقيقة في مواعيدي. لقد تخلّفت بخمسة عشر عاماً عن الحداثة. لولا الراديو، الذي كنّا نخفيه عند أيّ تفتيش، ما كنّا لنعرف أيّ شيء عن أخبار العالم. حينما حفرنا نفقاً بأيادينا المجرّدة، وحينما اكتشفت الشمس والسيارات والبشر والجمال الأخاذ لبلدي، حينها زاد احتقاري لبطانة الطاغية التي كانت قد سرقت منا تلك الثروة النفيسة للغاية: شبابنا. كنّا مخلوقات من خارج الأرض، مخلوقات من المريخ منفيين إلى كوكب الأرض. يفسّر ذلك لي الكثير من الأمور. لقد بقيت لزمان طويل غريبة.

بعد هروبنا الذي أعلن عنه في وسائل الإعلام، الذي كلّف جلاّدين بأن يعرفوا بدورهم متع التعذيب، كنّا قد أصبحنا مشكلة للملك. فمن غير الممكن التخلّص منّا، كما من

غير الممكن إعادة حرّيتنا إلينا أمام عدسات الصحفيين. أُعطيت لنا قِلاًّ مسوّرة بجدران عالية في طرجا، على بُعد بضعة كيلو مترات من مراکش، المكان المفضّل لدى الطبقة البرجوازية في الدار البيضاء. لم نكن نخرج منها، ونحن نلتقي ليلاً في بعض الأحيان، وقد استيقظنا مدعورين من أشباح الماضي، أو مرهقين بسُعار مفاجئ. لا نزال نأمل، بفضل محاميننا الفرنسيين، بنيل سمة خروج إلى كندا، البلد الذي كانت نداوة مناخه المرغوبة قد اختلست أرقنا وسهادنا في السجن الذي كنّا نتعفن فيه. الآن بدأنا نحلم! كنا مكبوتين، عاطفياً وجنسياً. لقد جمّد السجن رغباتنا، وأطلقت الحرية، وإن كانت مؤقتة، كلّ غرائزنا الجنسية واندفاعاتنا. أحلنا حاجتنا إلى الحب على القِطط العشرة والكلبين الذين ربّيناهم. فجأة، ودون أن ينذر أيّ شيء بذلك، قيل لنا: أنتم طلقاء! اخرجوا من البيت!

هل من الضروري أن يكون هذا جميلاً للغاية حتى يكون صحيحاً؟

في 26 شباط 1991، وأنا أرتدي بنطلون جيتز وقميصاً رجالياً، خطوتُ أولى خطواتي في الدنيا. واحسرتاه! سنكون، لخمس سنوات، ملاحقين، مراقبين، ويُتنصّت علينا. حُذّر عليّ أرباب العمل المحتملين من إعطائنا فرصة للعمل. استجوب كلّ معارفنا وأحبّتنا وحتى عشاقنا من قبل جهاز المخابرات المغربي. أهذه هي الحرية؟ كلا: أوصل العيش في السجن، ولكنّه ببساطة سجنٌ أوسع، وعليّ أن أتدبّر أمري بمفردي. لم أعد أعرف أن أفعل أيّ شيء. لا بد لي من أن أتعلّم كلّ شيء من

جديد. يشقّ عليّ أن أفهم وقت البشر، سرعتهم أو بطئهم، وضرورتهم المتعلقة بالوقت. يشقّ عليّ فكّ رموز العادات، والارتباط بالعيش من جديد. السعادة كلمة مقصية عن مفرداتي. لم أعد أعرف أن أكون الحسناء الطاغية التي كانت تحتفل بعيد ميلادها الثامن عشر في حفلة راقصة باهرة. مليكة أوفقيّر؟! إنها امرأة أخرى.

كنتُ بلا مسكن، بلا ترخيص للعمل، كنتُ شبحاً. حتى وإن استطعت، لفرط العناد، وأيضاً بفضل شجاعة نور الدين عيوش، أن أحظى بوظيفة في مجال الإعلان، فقد عشتُ أسير إلى جانب الجدران مخافة. اليوم أيضاً، أنا شبح، بيد أن الكرة التي أجرّها بقدمي غير مرئية.

بعد ساعتين، سألتقي من جديد، ماريا أختي، التي سيمنحني فرارها، في 25 حزيران 1996 من المغرب إلى إسبانيا على متن سفينة عابرة، فرصة أن تعود إلى الحياة. إنها هي من استنفرت الرأي العام الفرنسي، هي التي أتاحت لي أن أجد نفسي هنا، قريبة جداً من العالم الحرّ. جواز السفر الذي في متناولي، هي مَنْ أدين لها به. عمري 43 عاماً وأخيراً بدأ كسل شيء.

بدا لي الطيران من الرباط إلى باريس زمناً طويلاً جداً، ومع ذلك لستُ أنا مَنْ يطير، بل هذه الآلة الضخمة، التي ترتجّ تحت رحمة الرياح. من حولي، هناك العشرات من الوجوه المجهولة، العدوانية، رجالٌ ونساء محزّمين في أرائكهم. مضيفات في لباسهنّ الموحد، على شفاههنّ ابتسامة جامدة. الصوت

الرَّثَانِ لِلْكَابِتَنِ الَّذِي مَا كَانَ أَحَدٌ لِيَرَى وَجْهَهُ... وَحِيدَةً، تَائِهَةً
عَلَى مَقْعَدِي كَأَنِّي فِي لَجَّةِ الْمَحِيطِ، ارْتَعَدْتُ لِفِكْرَةِ أَنْ يَحْدَقَ بِي
هَؤُلَاءِ النَّاسِ، وَيَسْبِرُوا أَعْمَاقِي، وَيُبْدُوا رَأْيَهُمْ فِيَّ. أَنَا غَرِيبَةٌ
عَلَى السَّفِينَةِ، فِي عَالَمِهِمْ كَبِشْرٍ أَحْرَارٍ، عَالَمِ هَجْرَتِهِ مِنْذُ أَمَدٍ
طَوِيلٍ لَأَنْجَحَ فِي خِدَاعِهِمْ. ضَاقَ صَدْرِي بِشُعُورٍ بِالْاضْطِهَادِ
رَغْمًا عَنِّي. لِنَظَرَةٍ وَاحِدَةٍ، مَادَتْ عِبرَ النَّافِذَةِ سَمَاءً شَاسِعَةً بِلا
حُدُودٍ.

انفتح الباب أخيراً على الحرية. نفقٌ ضيقٌ من البلاستيك
يربط الطائرة بمبنى المطار. في ذلك الممرِّ المتداخل، تعرّفتُ إلى
وجه أختي، غاصّة بين الكاميرات والمصوِّرين والميكروفونات
الممدودة. طقطقت ومضات العدسات والأسئلة الطائشة بنفس
الإيقاع. بماذا تشعرين؟ ما أثر أن تشعرِي بنفسك حرّة؟ أَلديكَ
مشاريع تفكرين بها؟ بما سيحفل غدك؟ هل لديك ما تقولينه؟

لدي الكثير من الأشياء لثقال، ولكنني، منذ زمنٍ طويل، لم
أعد أجيد الكلام إلى الآخرين.

عشتُ حيوات عديدة، حياة فتاة ميسورة الحال، وحياة
أميرة، وحياة سجينّة. يستحيل تلخيصها في بضعة كلمات!
فضلاً عن أنّ حيواتي قلّما أثارت اهتمام الرهط المتلهّف الذي
انقضّ عليّ. انتظروا مأساةً، ودموعاً، وشقاءً. في تلك اللحظة،
لم يكن لديّ لأعطيهم سوى مشهد الضيق الذي أشعر به. لا
كلمة، ولا نظرة. لستُ أكثر مما أنا عليه.

لم أرَ شيئاً، تقدمتُ بطريقة ميكانيكية. فجأة، تخطّى رجلُ

حياتي حائزاً، رفعتني وذهب بي.

رؤيتي الأولى لباريس، امتلكتها بين ذراعي ايريك.

ايريك الشرقي

مَنْ أنا؟ هل أنا تلك التي نُقِلْتُ كَصِرة على مستن تلك السيارة؟ هل أنا تلك التي أطلقها للتو ملكٌ مستبد، مثل أمة في العصور الحديثة؟ نحن في 13 تموز 1996. لابد لي من أن استمتع بالمرور في باريس هذه، التي استمتعتُ فيها كثيراً أثناء دراستي للباكالوريا. لابد للحياة أن تسترد حقوقها. لم يحدث أي شيء. كنتُ خاوية، بلهاء، مقفورة. لفرط ما مُزّق قلبي لم يعد يشعر بأي شيء. إنه بحاجة لصدمة كهربائية. أحياناً، في تلك اللحظات الأكثر قتامة من أي وقت مضى، كنتُ أشك حتى في قدرتي على الحب من جديد. منذ وصولنا، مع رؤوف وسُكينة، المحررين أيضاً، توقفنا عند خالتي فوزية، شقيقة أمي: تذوقنا لبن الترحيب، كما تقضي تقاليد الاستقبال المغربية. تعانقنا، وتنسّمنا رائحة الحرية. ومع ذلك، كنتُ ساهية في ذاتي. عندما وصلت إلى بيت ايريك، حينها أدركتُ أن السجن في رأسي فقط. شعرتُ بأنني سَجّانة نفسي. دون الصبر اللامتناهي لايريك، وحده، ودعمه الدائم، لكنتُ قد انهرتُ بالتأكيد. ايريك الشرقي.

التقيتُ ايريك بوردرروي في ربيع سنة 1995. حينها، ولكوني محرومة من الحقوق المدنية وبدون جواز سفر، انكبت باندفاع على العمل، وذلك أولاً بفضل نور الدين عيوش الذي أخذني على عاتقه لدى وكالة للاتصالات كنتُ مسؤولة الإنتاج فيها. ولأنني قلّما كنتُ أخرج، وحصرأ لأسباب مهنية، فكان المنطق يقتضي أن أرفض دعوة صديقاوي مريم وكميل بن

جلّون لحضور حفلة زفافهما، مع ذلك الموكب من النساء
المتزيّئات بالحليّ والمتبرّجات بإفراط الأمر الذي لم أكن أُطيقه.
كان كلّ ذلك التكلّف الاجتماعيّ يزعجني. لو أنني رفضتُ
الدعوى، لما كنتُ التقيتُ بايريك أبداً. كانت مريم قد طلبت
منّي أن أساعدها: ما كان بوسعي أن أهرّب. في الصباح نفسه،
بعد طقس الحَمّام، الذي تذهب إليه العروس صحبة صديقاتها،
تلقيتُ مكالمَةً من إحدى قريباتي، وهي عرّافة متواضعة. قالت
لي، متحمّسة:

– كيكا، لقد التقيتُ به، ذلك القادم عبر الأطلسي،
رجل حياتك.

يا لها من ترّهات! لم أصدّق ذلك. من جهةٍ أخرى، ليس لي
حرية في أن أحبّ من أشاء بما أن الأمن يستجوب بانتظام كلّ
الذين يتقربون منّي. كان دوري مع الأجانب يقتصر على
اصطحابهم إلى طائراهم. كنتُ أشعر في كلّ مرّة بأنني حبيسة
ثياب الغوص، أنظر إلى العالم من أغوار عزلتي.

حينما رأيتُ إلى جانبي، على المائدة، رجلاً أسمر البشرة،
طويل القامة، بشوش الوجه، له عينان بلون كستنائيّ مبهم،
فيهما نظرة ماكرة، وحينما أدركتُ أنّه يتكلّم العربية،
استسلمت. من أين

أتاني هذا الأمل الواهي؟ ماذا لو كان هذا هو؟ لم تأتيني
صعقة الحب. شعرتُ بالمزيد من الأمان والمشاركة العاطفين،
كدفءٍ كان يشيع فيّ بهدوء. كنتُ أخاف طبعاً، وسأحتاج إلى

سنوات كي يتلاشى هذا الخوف المحفور في أعماقي. طيلة عام، عندما كان مراقباً يجري التحري عنه، وملاحقاً، كان إلى جانبي كل يوم جمعة، وحينما كان يغادر، كان شعورٌ مرعبٌ بالإهمال ينهكني ويضني. كان له الجلد في أن يسايرني في أهوائي ونوبات هذيان، وأن يروض الفتاة الصغيرة المتكررة في هيئة امرأة ناضجة في الأربعين من عمرها، العاشقة الكتومة السقي كانت تحرم نفسها من اللذة بالإثم. كان يفهمني من الداخل.

ذات يوم، قلتُ له: « ليس لك من الرجل الأوروبي سوى المظهر الخارجي. لك قلب الرجل الشرقي. أنتَ رجل شرقي. »

لقد ورث إيريك التسامح من عائلة بروتستانتية عريقة متجذرة في "نيم وارييج". والداه شخصان غير عاديين. والده، بيير بوردروي، عالم آثار، باحث في المركز القومي للبحوث، لقبته بالجيولوجي الذي يعثر على كل شيء. إنه رجلٌ مسكونٌ بعاطفته، أحياناً إلى حدٍّ غير واقعي. مع أن إيريك قد وُلِدَ في ستراسبورغ، فإنه كان في الثالثة من عمره حينما وصلت عائلته إلى القدس الشرقية في زيارة دراسية، ثم كبر في لبنان حيث كانت حماي فرانسواز مديرة لثانوية بيروت البروتستانتية. يا لها من امرأة! جعلت منها شجاعتها واستقامتها المعنوية امرأة تتحمل مسؤولية دور متميز أثناء الحرب في لبنان، وتواجه مختلف الأطراف المقاتلة، مسيحية وإسلامية. بل وفتحت مدرستها أمام الفلسطينيين ووجد شقيق عرفات ملاذاً فيها. حينما جاءت إلى مراکش لتقابل خاتمة ابنها، عرضتُ كلَّ

مفاتي لأغريها. كنتُ على فارق إحدى عشرة سنة فقط منها! إنها تعرف حكايتي، وتدرني أن الأمر لن يكون سهلاً أبداً. تزوّجنا في 10 تشرين الأول 1998 أمام بعض الأصدقاء المقربين، في دار بلدية الدائرة الثالثة عشرة، في باريس. شعرتُ بالانتقاص بعض الشيء: زواجٌ على عجل، شاهدان، والحيلة كانت قد وقعت. ولكن هل كنتُ قادرة على شيء آخر سوى الارتجال؟ كنتُ قد أنجزتُ ما هو جوهري: دفع ايريك إلى أن يطلبني للزواج!

مراراً عديدة، اختبرت ايريك، محرّضة إياه على هجراني، أنا الآثمة بعدم منحه طفلاً، وبعدم كوني من تلك الزوجات المثاليات اللواتي يمنحن النسل. قاربتُ حينها اللّجج. كان باستطاعتي التمدّد طيلة ساعات، ساهية، غير قادرة حتى على مشاهدة التلفاز. أثناء رحلتنا الأولى، في تموز 1996، إلى ساحل العاج، نزلنا في فندق ايفوار، لزيارة أحد أعزّ أصدقاء ايريك، الذي كان مهندساً معمارياً مثله. لقد كان المكان كالفرديوس، على الأقلّ من حيث المظهر. وقفتُ في الشرفة. كنتُ عاجزة عن الكلام وعن توزيع انفعالاتي. كنتُ أرى العشب الناعم، الغزير، فجأة، توجّهت إلى الله، أسأله: ما جدوى هذه الحرية؟ ما جدوى إخراجي من زنزانة، طالما لم يعد بي رغبة في العيش؟ سيعينني ايريك على إعادة ملمة تخوم الحياة، تلمّساً، ويشجعني على الخروج من الخفاء، من هذه العتمة التي طالما كرهتها. لم أكن «شخصاً». سيحثني على أن أتكلّم إلى العالم، وأروي الرعب الذي عاشته عائلة لعشرين عاماً. كانت لدي رسالة. ستكون مغامرة السجينة.

ولكن لا بدّ من العودة إلى الواقع العادي. الخروج، تناول الطعام، النوم، ووضع قدمٍ أمام الأخرى.

« البسي، يا كيكا، سنخرج لتعشى. » إيريك ذوّاقته وشهيتته مفتوحة، هل نسيت أن أذكر ذلك؟ للأسف لم أعد أعرف متعة الطعام ولذّته.

في "الكوبول"، المطعم الشهير في مونبارناس، حيث كنتُ قد تناولتُ العشاء آخر مرّة في عام 1972. كان إيريك يعلم، بتدبيره لهذا العشاء الأول كعاشقٍ، أنّه يحقّق أحد أحلامي في هذه السنوات الأخيرة.

أكان قد توقّع صمتي المطبق، ذلك الفراغ العميق جداً الذي يجمّد عظامي بصقيعه ويمنعني من التفوّه بكلمة؟ أشكّ في ذلك، ولكننا جلسنا إلى المائدة هناك، وبذلت أعظم الجهود كي أخرج من وهني. ولكن عبثاً. طاقم الخدمة في المطعم باستراهم البيضاء، طنين الأحاديث، الألوان الحامية، الأنوار، الأطباق المتلألئة... لقد أضنتني الحرية ونهشتني من الداخل. لقد فسات الألوان على كلّ شيء. أو ربما تحطّمتُ إلى الأبد. حال كوبول كحال كلّ الأشياء التي نحيطها بهالةٍ لزمنٍ طويلٍ جداً حتى تفقد بذلك هويّتها الخاصّة. كان المكان يخصّني في الحلم، كنتُ قد تناولتُ العشاء فيه أكثر من مرّة، أرسم عن ظهر قلب تقاطيع لم أعد استرجعها في ذاكرتي ذلك المساء.

في ختام العشاء، حل الخوف مكان التعب: لمحتُ أحد

مديري الخدم يجول على الطاولات ويتحقق بدقة من كل فاتورة. في يده جهاز صغير غريب. انتابني أفكار سوداء، صور اعتقال. بيدي المرتجفة، أمسكت بيد ايريك.

- انتبه، أعتقد أنهم يبحثون عن أحدٍ ما، ربّما عن مزور. انظر أنهم يدققون في جميع الفواتير.

قبل أن يتمكن من إجابتي، توجه المدير نحونا، وعلبته الصغيرة في يده. بادرنى ايريك بابتسامة مطمئنة، ومدّ إليه بطاقة، وضعها الرجل في آله. للحظاتٍ من الصمت، كنتُ معلقة

إلى حكمه. أخيراً، خرجت تذكرة من الجهاز مصحوبة بصرير خفيف، بينما أعاد ايريك بطاقته إلى جيبه.

- شكراً، يا سيّد.

نظرتُ، غير مصدّقة، مدير الخدم يغادر، ممسكاً بعلبته العجيبة. إذا كانت قطعة صغيرة من البلاستيك تُدسّ في علبة يمكنها شراء طبقٍ من ثمار البحر، فإنّ العالم الذي عرفته قد تلاشى تماماً.

رجعتُ، وحيدة، إلى ذلك الحيّ، سان جيرمان دي بري، بحثاً عن هويّتي المفقودة. بعيداً عن محق شخصيّتي، كان الاعتقال قد حافظ عليها، ربّما أعاد تشكيلها، ولكنني كنتُ موجودة. أمّا الحرية فقد حرمتني من كياني كسجينة، جعلت مني واحدة من هذه الأشباح الجهولة التي تقيم على وجهها في شوارع باريس بالآلاف. جعلني الخارج خاوية وبعثني، أشعر وكأنني

حفنة من الرمل في مهبّ الريح. ولكن ذكرى سنوات السبعينات، ذكرى الصبية التي كنتها، تراود ذاكرتي. ذلك الشبح الغابر الآخر، آمل أن أستعيده في الأمكنة التي كنت أرتادها آنذاك، أرصفة الحيّ اللاتيني، المحلات الباذخة في ساحة سان سيليس... تلقائياً، سرتُ نحو جادة سان جيرمان، تائهة في ذكريات لا أنجح في لملتها وترتيبها. ها أنا ذا في محلّ، ايف سان لوران ريف غوش، كما لو أنني لا زلتُ فتاة ذات مقام رفيع، لا مبالية، منغمسة في البذخ والرفاهية. للحظة، كان باستطاعتي أن أعتقد بأنّ كلّ تلك السنوات لم تكن سوى ثمرة مخيلتي، وأنّ الزمن توقف في هذا المحلّ، هناك حياة سابقة. بتفصيل دقيق: لم أعد تلك الفتاة ذات الثمانية عشر ربيعاً، المتعجرفة، الواثقة من فتنها، ذات الشعر الطويل المتموّج، والتنانير القصيرة بقياس تذكرة المترو، التي كانت تبختر وهي تمرّ أمام المرايا. لقد مضت الألوان الوردية والزرقاء الفيروزيّة بعيداً مع الموضة، ولكن بشكل خاص مع رغسيتي في الذوبان داخل المشهد. ألبستي بألوانها، لون الأرض، اللون الداكن، الأمغر والرمادي، تروي الكثير عن السنوات التي انقضت بعيداً عن هذا المحلّ.

— سيدي...، هل يمكنني مساعدتك؟ لدينا هذا النموذج باللون الأسود أيضاً.

أعادي الاهتمام المتكلف للبائعة إلى الواقع. دُعرتُ فجأة، وضعتُ الألبسة التي كنتُ قد نزعته عن علاقتها، وتراجعتُ. غمرني شعورٌ بالخجل. كذبتُ. زعمتُ أنّه لا بدّ لي من استشارة زوجي قبل أن أشتري أيّ شيء.

لم أرجع أبداً إلى ذلك المحلّ، تاركةً هناك ذكرى المراهقة التي كنتها آنذاك. لو كان بوسع المرء أن يضرب صفحاً عن الماضي، أعتقدُ بأنني سأكون قد كشفت عن ذلك منذ زمنٍ طويل.

تمضي الأيام وأنا أراقب ترويض دُمى العالم الحرّ. من الاثنين إلى الجمعة، جميعهم في الصومعة، بتعقّل وخنوع. تنفتح الأبواب في يوم السبت، يوم التّره، ويخرج القطيع، منقضّاً على المتاجر. لأنّه لا بدّ من التزوّد بكل شيء ولاسيما بأيّ شيء، وإفراغ المراكز التجارية لتكديس ما يستلّ احتياجات الأسبوع التالي. بدأ ايريك يحمّلي المسؤولية، بعبارات أخرى، يسمح لي بأن أنضمّ إلى فيض الأهالي الذين يغزون المتاجر. إنّه يعرف العبء الذي يمثله ذلك، تأثير حشود الناس على إحساسي الجريح. ولكن طريق المعافاة يمرّ بالمتجر، ورغم تحفظاتي، انتهيتُ إلى أن أتبعه إليه. عاجلاً أم آجلاً، سأذهب إليه بمفردي، لطالما ردّد ذلك على مسامعي. وكدتُ أن أنتهي إلى الاقتناع بذلك.

سوف لن أنسَ زيارتي الأولى إلى المركز التجاري، مغارة علي بابا الاستهلاكية تلك. مدى من البضائع والألوان والصخب والموسيقى. كانت الأطعمة تملأ كلّ الجهات، كان ذلك مقرّزاً ومبهراً في آن، تتراكم أكداساً وأهرامات وأكواماً. تعجّ الأدراج المبرّدة، ويكشف النور الساطع بضائع طازجة وغلباً وأكياساً صغيرة... الخلاصة، هناك كلّ شيء وبكمياتٍ وفيرة.

طيلة حياةٍ كاملة، حرّمتُ مما هو ضروري، وما هو

الفائض وغير الضروري ينسب أمامي. على مدى البصر. الزبدة... لوحدها تشغل برّاداً بأكمله. ذات الملح الخفيف والمملحة، النورماندية، 50% مواد دسمة، سهلة الدهن، بالحليب الطازج... هناك الكثير منها بحيث تُهتُ بينها. عشرات الأنواع، بأغلفة متنوعة، من ورق الألمنيوم البسيط إلى العلب البلاستيكية، وكلّها مزينة بألوان زاهية، ذهبية وفضية وحمراء. والحليب، المذكور بدوره في قائمة لا نهاية لها: الكامل الدسم، الخالي من الدسم، والنصف دسم، والمكثف، والمسحوق، في علب، وفي قوارير، والجمّد في قوالب... لا أتجرأ على لمس أيّ شيء من هذه البضائع التي كانت محرّمة في الأمس، والتي فاضت فجأة، بعد أربع ساعات من الطيران من سنواي الأربع والعشرين في الجحيم والمطهر.

— خذي ما تريدين، قال ايريك.

ما أريد؟ ليس بوسعي أن أريد شيئاً. يشلّني فعل مدّ يدي إلى هذه الكنوز. أخشى أن أشاهد، في أوّل لوح من الزبدة، ظهور مخبري الأمن الذين قد يتهموني بالسرقة ويجبروني إلى السجن. كانت دُمى السبت، من حولي، تتزوّد بلا حشمة بالمنتجات التي يرمونها بلا مبالاة في عرباتهم حالما تقع عيونهم عليها.

بعد أن زال انبهارى، اجتاحني شعور عميق بالتمرد، وأخذ بتلابيبي. ماذا يفعلون بكلّ هذه المنتجات الكاسدة المنتهية الصلاحية؟ لم أصدق أن هناك في باريس كلّها ما يكفي من الكروش لالتهام نصف كمية هذه الألبان. ما الذي

سيحدث لهذه الأكداس من الزبدة ذات الملح الخفيف والتي لا يرغبها أحدٌ ربّما لأن البقرة الحمراء التي تزيّن غلافها أقلّ جاذبية من تلك التي إلى جانبها؟ لم يُحسن ايريك أن يجيبني سوى بالقول؛ ربّما سترمي البضاعة أو تُصَفّي، لا أهمية لذلك مادامت هي هنا. مَنْ من الزبائن، المتزاحمين من حول البرّاد، يعلم فقط أن قالباً من الزبدة كان يمثل لي، قبل أقلّ من أربعة أعوام، قمة الرفاهية؟ بدأ زحامُ العربات وكأَنَّها تقلّد السيارات في الخارج، أصبتُ بدوّار، فنويتُ أن أجلس.

لمرّتين، عدتُ إلى المتجر مع ايريك. ولمرّتين نظرتُ إلى البضائع من بعيد دون أن أتجرأ على الإمساك بها. في المرّة الثالثة، ذهبتُ، بناءً على نصائحه، بمفردي، عازمة على أن أقوم بعمل، أن أملاً عربيّ بنفسي، وأن أقف في الطابور أمام الصندوق، مجهولة بين الحشد. انقضت بضعة دقائق، وأنا أجول بعربة فارغة ببطء أمام المنتجات ذاتها لمرّتين وثلاث. بدوتُ لنفسيّ كُرباً أسرة محترم يحوم حول موسى. فجأة، حصل تحول مفصلي. اشتريت. اشتريت كلّ شيء، مأخوذة بنشوة مجنونة. اشتريت كلّ شيء، أو الأخرى كلّ المنتجات الضرورية للحياة، كلّ تلك، وفقط تلك، التي حرمتُ منها كثيراً خلال تلك السنوات من الاعتقال. وخلافاً للألبان التي كانت يُعلن، بتباه، عن احتوائها على 50% على الأقل، من الدّسم، لم أكن قادرة على القيام بالتدبير المؤقت. طفحت عرقي بمنتجات محفوظة، وبزيت وزبدة ومسحوق للغسيل. كانت أصغر علبة كورن فليكس، وأكبر صينية فضيّة للمشروبات، موجودتين

بقطعتين بين بضاعتي لذلك اليوم. إن حدث. إن حدث وأنقص المرء شيئاً. من الصعب التخيل بأنه يمكن للمرء أن ينقص شيئاً أمام هكذا عرض للبضائع، ولكن مَنْ يدري؟ مرّت بقسري امرأة، يجلس طفل في عربتها. ضبطت نظرتها الخاطفة على عربتي، التي كان محتواها أجدر بملجأ استعداداً لاحتمال حرب عالمية ثالثة من مطبخ منزلي.

تساءلت للحظات حول أفكار تلك المرأة، حينما لحست صدفة طرداً من علب الجبن عليها عرض تخفيض للسعر. جسن بورسان بالثوم والطيب، عرض استثنائي على عشر علب. أقيت نظرة ذات اليمين وذات الشمال، ولحسن الحظ، اكتشفت أنه لم يسبقني أحد على تلك الفرصة التي لا مثيل لها. يا لها من صفقة، عشر علب بثمان خمس... لا يهم أن تكون بالثوم والطيب، عادية أو بالفلفل الحلو. بسرعة، وقبل أن تستولي مدبرة منزل أدهى من غيرها، عليها، دسست ثلاثة طرود في عربتي، أي ثلاثين علبة من بورسان. وابتعدت ياباء، آملة ألا أرغم عند الصندوق على إعادة بعض منها، مراعاة للديمقراطية.

لدى العودة إلى بيت الأسرة، ملأت الثلاثجة بعلب بورسان، التي شغلت بصعوبة مساحة ضيقة جداً بالنسبة لها. واختفت بعض قطع الحلوى التي أحبها، سهواً، خلف علب الجبن، في العمق وكادت ألا تُرى. إنه رد فعل قديم، لا شك أنه سيكون من الصعب جداً أن أتحوّل عنه: الحفاظ على ما يخصني، لأنه لا شيء أكثر هشاشة من الملكية.

الآن أنتظر، بتفاخرٍ لا يُخفى، عودة الرجل الذي أُحبّ،
بغية أن أعرض له غنيمتي.

- ما كلّ هذا البورسان؟ هتف ايريك متعجباً، حائراً.

- كان عليه عرض تخفيض الثمن. أحزر بكم اشتريته!

من خلال ابتسامته، أدركتُ أن عالم دُمى السبت لا يزال
غير ملائم لي تماماً. وانغلق باب الشلاجة على ثلاثين علبة من
الجبن.

الخوف من الآخرين

إنها شاحنة صغيرة بيضاء اللون، مركونة أمام سور العمارة، مضاءة واجهتها بوميضٍ برتقالي اللون. كان السائق الذي لم أتبين منه سوى ظهره، منشغلاً بفتح مزلاج الباب الخلفي للمركبة، ليخرج منها « البضائع » الضرورية، تلك العُلب الكرتونية المعبأة حتى حوافها بالعِدَّة والبضائع التافهة. تُرى من هو الرجل الذي في الشاحنة؟ أهو جارٌّ، أم مسلم بضائع؟ إنه رجلٌ قصيرٌ سمين، رقبته غائرة بين كتفيه، جمجمته صقيلة، في الأربعينات من عمره.

لم يشاهدني، وباقترابي منه شيئاً فشيئاً، تساءلتُ إن كان لن يلتفت فجأةً نحوي وي طرح سؤالاً أو يلقي التحية علي أو يتسم لي. ليست هذه المرة الأولى التي أعود فيها بمفردي، ولكن حتى الآن، حالفتني الحظ في ألا أصادف أحداً. أو تكون هناك امرأة جسورة، تسبقني فاقتدي بها وتشجّعني بإشارة من رأسها. لبعض الوقت، تساءلتُ عن الخطوة التالية، مترددة بعض الشيء في تركه يفرغ شاحنته قبل أن أعود إلى العمارة. كم من الوقت سيلزمه؟ خمس دقائق وربما أكثر. ولكن عليّ أن أتغلب علي مخاوفي وأن أتعلّم العيش مع الآخرين. بعد لحظات من الحيرة والتردد، استأنفتُ سيري، عاقدة العزم علي أن أواجه بجسارة المجاملات المألوفة.

فتح الرجل صندوق سيارته، لم تكن تحوي مواد غذائية، كما ظننت، وإنما ثلاثة كلاب ضخمة، تنبح نباحاً يفتت

الأكباد. لابد أن الجو حار في الصندوق الخلفي في السيارة، فتصرخ الحيوانات، المحرومة من الهواء، على أمل أن تُطْلَقَ من سجنها. أنا أعرف ذلك الشعور، لدرجة أنني شعرتُ بنفسي قريبة من تلك الكلاب الثلاثة أكثر من أيِّ كان. فضلاً عن ذلك، كان الزجاج الخلفي محمياً بشبك - مرة أخرى قضبان السجن -، كباب سجن مؤقت، ترى الكلاب من خلاله مناظر باريس المحظورة عليها كالحدايق والأشجار والمربعات العشبية الصغيرة، التي هي الفردوس الفردوس المتواضع لكلاب المدن.

بدا الرجل مترعجاً من نباحها، فصرخ بدوره بقوة بحيث غطى للحظات على ضوضاء الكلاب الثلاثة مجتمعة.

- كفى! احرصوا!

شلني الضجيج، توقفتُ جامدة على مبعدة بضعة أمتار من المركبة. حينها أصبح المشهد مربعاً: أهال السائق، ممسكاً بعصا، ضرباً على بهائمته، بقوة وعنف بلا تحفظ. استحال النباح أنيناً، هسيساً خفيفاً مكبوتاً. كان أنين أحدهم حاداً وكأنه نواح رضيع يبكي، وطفحت السيارة فجأة بالألم. ولا زال الرجل يضرب، بعزم لا يلين، تحت النور الساطع لغمّازات سيارته. تسمى هذه مصاييح الخطر؛ وهو اسم على غير مسمى.

هكذا في عالم الناس الأحرار، يوزّع الألم مجاناً، بلا حساب. لم أعد أحتمل أكثر أنين الكلاب الذليلة، فاقتربتُ، يجتاحني شعور من التمرد والخوف الممزوجين. التفت الرجل فجأة ونظر إلي، مستكراً، والعصا في يده.

— أتريدون صورتي؟

كلّا، لم أرد صورته، أثارت النظرة الوحيدة إلى وجهه اضطرابي وسوف تلازمي طويلاً. سال العرق من جبينه، وتوعدتني عصاه المرفوعة بشكلٍ قاطع.

— ليس هناك ما هو للفرجة، انصرفي.

ترددتُ للحظة. أردتُ من أعماق كياني أن أنقضَ عليه، وأنزع سلاحه منه وأرمي بعيداً أداة العذاب تلك، وأطلق الكلاب وأضع نهاية جلسة العقاب بالجلد. ضغطتُ الخوف على بطني، ليس الخوف من الضربات، وإنما الخوف من التوقيف والاستجواب والسجن لتدخلني في شؤون الآخرين. ربّما يكون من حق ذلك الرجل أن يستدعي الشرطة، ويقدم شكوى ويوقفني. فنظرتُ إليه مرةً أخرى، قبل أن أترك الحيوانات لمصيرها.

— قلتُ لك، انصرفي.

ارتجفتُ من قمة رأسي حتى أخص قدمي، سلكتُ طريقي ودلفتُ إلى العمارة، مغلقة الباب من ورائي. شعرتُ بنفسي بذيئة. في الخارج، عاد النباح والأنين. ولم أستطع منع نفسي من تصوّر ذلك الرجل في شقته الباذخة، يناوب المداعبات وضربات العصا حسب مزاجه اليومي:

— نستطيع استدعاء رجال الشرطة لأجل ذلك، قال لي ايريك.

عبارة « نستطيع » تعني « أستطيع ». ربّما سيكون

بمقدوري. يبدو أنّه يمكن للمرء أن يبلغ عن رجل حرّ يضرب كلابه... وغالباً ما يكون العقاب ضئيلاً - غرامة - ولكنّه يؤدي أحياناً إلى إنقاذ الحيوانات من جلاّدها. وماذا يفعل بها بعد ذلك؟ لا أحد يستطيع أن يقول لي ذلك. تُرسل إلى وِجار للكلاب أو إلى جمعية الرفق بالحيوان حيث تنتظر، في أقفاص، أن يأتي رجل حرّ آخر ويتبناها. أو أن يقع اختيارُ طفلٍ عليها: أمي، أريد الكلب الصغير الأبيض. أو في نهاية المطاف، إن لم يتمكنوا من إطعامها، تُحقن بمحقن: بضعة نقاطٍ من السمّ تنقلها إلى عالم أفضل.

حتى ان عرفت، وان أردت، ما كنتُ لأستطيعُ استدعاء الشرطة في ذلك المساء، ولا حتى في مساء آخر. فالزّي العسكري يصيني بالتكزّز. إنّهُ يرمز إلى القانون والسلطة والقوة الوحشية. يرمز إلى السجن. إنّ هؤلاء الرجال والنساء الذين يجولون، وهم يحملون على أحزمتهم الترسانة المدهشة من المسدّسات والأغلال والهراوات والقنابل المضادة للاعتداءات، يشكّلون تهديداً في كلّ لحظة. مع مرور الزمن، طوّرتُ مناورات إستراتيجية حقيقية مُخصّصة لمخادعة يقظة الرجال الذين يرتدون اللباس العسكري. كأن أُغيّر الرصيف بدون أيّ سبب حينما أترّهُ في الهواء الطلق، ويمكن لهذا الأمر أن يتمّ عندما يكون انتباههم منجذباً، ولو قليلاً، إلى مكان آخر. أو أن أفعل ذلك بسرعة فائقة كي لا ألفت الانتباه. هذا هو ما أجهّد للقيام به عموماً، حابسة أنفاسي، آملة ألا أسمع صغيراً حاداً قد يسمّرني في مكاني.

— يا! أنت مَنْ هناك!

أتخيل نفسي، جامدةً وسط الشارع، مصدومة بالخوف، مرفوعة اليدين. حركة سينمائية شاملة، ومثيرة: النسخة الباريسية من Midnight Express.

حينما لا يكون هناك من مفرٍّ، اختار التوجّه إليهم مباشرة، ربّما لتهدئة ريبتهم، أو لأضع نهاية للخوف الذي يؤلني: إن كانوا يريدونني، فليقودوني إلى السجن. لقد مللتُ الفرار. هكذا وجب عليّ التوجّه إلى أكثر من نصف رجال شرطة العاصمة، بالحجج الأكثر تفاهة. أفقدني الخوف حيلِي: أسألُ كيفما كان عن الطريق وعن الساعة وعن درجة الحرارة، وعن أوقات إغلاق أبواب أنفاق المترو. وأحياناً، أسأل عن كلّ هذا في الوقت ذاته. غالباً ما يجيبون عليّ، وهم يتفرسون في كحيوانٍ فريد.

— هل أنت بخير، يا سيدي؟

سأكون أفضل حالاً من دوغهم، ولكن ليس بوسعي أن أقول لهم ذلك. ولا بوسعي أن أعترف لهم بأنّ هذه المرّة الثالثة التي أسأل فيها رجلاً باللباس العسكري عن طريقسي. نفس الطريق. ونفس العنوان، وكلّ واحدٍ يجيبني بنفس الاهتمام، بحيث يكاد أن يعزّز ريبتي. فليس لديهم وسيلة فضلى لخداع العدو، مثل جعله يظنّ بأنهم يبذلون أقصى جهدهم ليظهروا لباقتهم. وحتى إذا كانوا ممن يبدوون بأنهم كذلك، فبوجود الزي العسكري، لم أعد أفكر؛ فأنا خاوية، أنا وعاءٌ للغمّ، أنا أشبه بكلبٍ أمام عصا.

- إتهم هنا لحمايتك، تردّد صوت في رأسي، ولم ينجح قط في إقناعي بذلك.

بعودتي من ماريه، حيث تناولتُ الغداء في حيّ صغير هادئ جداً كان كما لو أنه خارج من ذكرياتي، ركضتُ بأقصى سرعة نحو البيت. بدا لي وكأنّ السيارات والدراجات والمشاة جميعاً يحومون من حولي. أحبّ الأحاسيس التي تسببها لي السباقات على الدراجة، ذلك الشعور بالتزّلق على الزفت بلا قيود ولا إكراه. في السيارة، أكون حبيسة. مشياً على الأقدام، أكون محكومة ومراقبةً ترصديني الأعين. عبرتُ على الدراجة، بسرعة بحيث لم يُتَح لأحد الوقت الكافي لمعاينة وجهي. تحرّرتُ من قوانينهم وأنظمتهم، لم أفعل سوى المرور بعالمهم. ولكن عند أوّل ملّتي طرق، أمسك بي الواقع من جديد، بشكلٍ خاطف جداً بحيث كدّت أن أفقد حياتي هناك. أبعد من ذلك بقليل، قطعت شاحنة صغيرة للشرطة الطريق، حاجبةً عربة أخرى مركونة بالعرض. مرّة أخرى إتهمهم! تدافعت الأفكار وتصادمت الكلمات في ذهني، تكاد تفقد معناها. توقيف، توسّط، جريمة، جُنحة... نزل أربعة عناصر شرطة من الشاحنة، بينهم امرأة. يبدو أنّهم يوقفون أحداً. أو ربّما تكون مجرد مراقبة، لا أدري. ولكن المسألة هي أنني لم أشاهد الإشارة الضوئية، وأنني انقضضتُ عليهم، ضاغطةً بقدمي لمقابض الكابحات. بالكاد تباطأت دراجتي، عبرت ملّتي الطرق وسط جوقة من التزمير وأُثّهت جولتها إلى جانب شاحنة الشرطة، محدثةً دوياً مزعجاً بارتطامها بصفيحها.

— إيه، ما الذي أصابك؟

كانت شرطية متطوعة شقراء قصيرة وكبيرة الفك، وتساءلت ان كانت غالباً ما تستعمل ذلك المسدس الضخم الذي يكاد أحصه أن يبلغ أسفل صدرها.

جاء أحد زملائها لنجدتنا، ساعدني في استعادة توازي، وناولني حقيقتي التي سقطت أرضاً. راقبتهم بنظرة قلقة ساعية إلى أن أكتشف في عيونهم وميضاً للبربرية التي لا توجد فيها.

— هذا من عدم الانتباه يا سيدي الصغيرة، ألم تري أن الإشارة كانت حمراء؟

في معرض ردي، اندفعت في خطبة طويلة ملتبسة ومعسولة، مزيج من التبريرات والابتهاج المزعوم والتملق. اعتذرت عشر مرات. تكلمت حتى أفكتهما. تبادلنا نظرة مفهومة، قبل أن تقاطعني السيّدة بلطف:

— كوني أكثر احتراساً، بعد الآن. أتعرفين كم دراجاً يُقتل سنوياً في باريس؟

ها أنا ذا أنطلق من جديد، مصابة بدوخة خفيفة. تركت متعة الدراجة مكانها لتوتر خفي مصبوغ بانفراج خفيف. أعدت، وكأني في السينما، تمثيل المشهد الذي ينتمي الآن إلى مجموعة ذكرياتي... وشعرت بالخجل يعتريني، واحمرت وجنتاي. في تلك اللحظات، كرهت تذلي، ذلك الميل الجامع إلى تلميع أحذيتهم إلى أن أجد صورتي فيها. عاودتني كلماتي، مشوشة، طفلية، تشير الرثاء. استعرضت اعتذاراتي وأعداري. كم وددت

أن أكون متكبرة ومتفطرسة. كم وددتُ لو أنني كنتُ ندّاً لهم.
لو أن الخوف كان ينحصر في الزي العسكري، لكنتُ
الأكثر سعادة من بين النساء. بسطت باريس أمام ناظري
مشهد عدوانيتها، حرب الخنادق اليومية لسكانها الساخطين.
لقد قضوا سنوات في الاستعداد للقتال وتحويل الأطفال الذين
كانوهم إلى راشدين متطلّبين، رافعين عالياً ألوان حروبهم
الصغيرة. لم يهتني أيُّ شيءٍ لذلك.

على أرصفة المقاهي، يُرعبني النّذل الباريسيون
المشهورين، المحزّمين بزيّهم الرسمي الأبيض والأسود، أكثر من
رجال الشرطة. لمجرد فكرة ذهابي للجلوس في مقهى، أخشى
نظراتهم الثقيلة المزدرية. كم من مرّة طلبتهم بصوتٍ خفيضٍ
ناعم؟

- من فضلك!

يمرُّ البطريق، وهو يكاد أن يمسنّي، متظاهراً بعدم رؤيتي.

- يا سيّد، من فضلك...

- انتظري دقيقة!

أكثر من أيّ كان في باريس، انتظرت. انتظرت لدقيقتين،
لعشر دقائق. انتظرت من الدقائق ما لا يُحصى. معظم البشر
الأحرار يحافظون على علاقة تبعية أليمة لساعاتهم ومنبهاهم،
وهذه الإضافة التي تكاد تكون ماديّة تدفعهم إلى جمع كلّ ثانية
كما لو كانت الأخيرة. لديّ الوقت الكافي. ولكن يرعبني ذلك

الصفاء الشفيف، تلك العيون الخالية التي تعبر من خلالي كما لو كنت نافذة مشرعة على العدم.

جئنا بالطريق نحو طاولتي على مضض، بعد أن خدم الدنيا بأكملها وتحدثت في السياسة مع بائع صحف.

— ما الذي حدث؟

ما الذي حدث؟ ليس مهماً. فمهما كان الأمر، سوف يمثل له باثمئزاز وغيظ. علي الحفاظ على هدوئي. هناك شيفرة ضمنية غريبة بين نادل المقهى الباريسي وضحيتته، علاقة هيمنة تعكس الأدوار. أدفعُ المال لكي أكون مجهولةً، لكي يُصرخ في وجهي. أدفع لكي أعامل باستعلاء، لأرى بأنني لا أقدر إطلاقاً. بعد ذلك بسنوات، سأعلم من خلال التواصل مع الأجانب، أولئك الأناس الأحرار القادمين من بلدان أخرى، بأن هذه الظاهرة النموذجية خاصة بالعاصمة الفرنسية، وأن نادل المقهى أيضاً رمزيٌّ هنا كبرج إيفل.

منذ ذلك الحين، أخشى المواعيد في المقاهي التي أصل إليها دائماً قبل الموعد بنصف ساعة، حيث أن فكرة وصولي متأخراً لا تُطاق بالنسبة لي. حتى قبل أن أجلس، أستعدُّ للمواجهة، أستعيد أنفاسي وأركز تفكيري. وكأني ملاكمٌ. ماذا لدي لمواجهة العدوانية السافرة للسكان الأصليين؟ تربيتي الإلزامية في القصر، الراسخة في ذهني والتي بقيت متجذرة بقوة في أعماقي.

— كوني أكثر عدوانيةً، قيل لي. لا تتهاوني.

ولكن لا تزال أنظمة حياتي الجديدة تفوتني. لدي القليل من السيطرة على الأحداث بحيث لا يمكنني سوى ابتلاع كبريائي ومدة خدي الآخر. هذا ما يفعله المسيحيون، على الأقل نظرياً، ليظفروا بالفردوس. وإذا كان هكذا يُظفرُ به، فقد ظفرتُ به ألف مرة؛ وأستحقُّ أن أجلس إلى يمين الله وأغني مع الملائكة. لأنني لقاء كل صراخ، أعطيتُ ابتسامة مهذبة، ولقاء كل حساب مرمي في وجهي، شكرتُ، ولقاء كل تعليق مستفز، تركتُ بخشيشاً.

شيئاً فشيئاً، غدت باريس مدرسة للعدوانية. تعلّمتُ فيها أن أعدّ ترتيباتي، وأنا أراقب بعناية الناس الأحرار الذين يثورون لأدنى مضايقة يتعرضون لها. عاجلاً أم آجلاً، سيتلاشى خوفي وسأردّ الصاع صاعين. على الأقل هذا ما أتمناه، لا أحد يستطيع العيش إلى الأبد مع الخوف، ولا حتى أولئك الذين عذبهم الخوف طيلة صباهم.

سيكون المتجر الكبير (السوبر ماركت)، تلك الرحبة العملاقة لمقاتن الاستهلاك الظافر، بمثابة الملعب الأول لتمريني. عند نزولي من السيارة، أدركتُ أنني أدخل الحلبة. لدى المستهلك الكبير (هكذا لقبتُ المستهلك بالجملة) فكرتان رئيسيتان في ذهنه: الانجاز السريع، وعدم السماح بتجاوزه. وليس للإنسان الحرّ، مع أنّه حرٌّ في الذهاب إلى حيث يشاء، ومتى يشاء، وكيفما يشاء، سوى هاتين الفكرتين في ذهنه. بسرعة. دائماً أسرع. فيما مضى، أثناء فرارنا، ونحن نعبر الأحياء الشعبية للدار البيضاء، كان الميكانيك المجنون للمشاة

الذين كانوا يسرون دونما هدف قد أذهلني، ولو لم تكن حينها في ظرفٍ مأسويٍّ، لكنتُ قد قهقهتُ ضحكاً. كانوا يسرون خافضين رؤوسهم مثل العمال المسيرين في فيلم شارلي شابلن، الأزمنة الحديثة.

في اللحظات الأولى، سحرتني مشهد أولئك الناس المنخرطين في سباقٍ حقيقيٍّ للعربات دون أن أستطيع الدخول في الدوامة. كانت العربات مشبوكة إلى بعضها، مربوطة بسلسلة لن تنفك إلا بوضع قطعة نقدية في غلبة صغيرة. من حسن الحظ، أدركتُ الحيلة بسرعة، بما أن حشداً كاملاً قام بها تحت ناظري. يتدافع الناس، وتجرّ العربات بقوة كبيرة تصرّ معها صريراً يفتت الأكباد. أبعد من ذلك ببضعة أمتار، يجلس مستهلكون كبار آخرون عرباتهم، ويشبكونها بصخب جهنمي. بدوري، تفقدتُ محفظتي، وتشبّثتُ بقطعتي النقدية كما لو أنها ليرة ذهبية (قليل لي كثيراً أن أحذر اللصوص)، وحاولت بحياء أن أمتلك مركبتني لأنخرط في السباق.

جرى سباقٍ بشكلٍ أكثر من جيد، حتى أنني كدتُ ألوذ بالاسترخاء. إنه أمرٌ سهلٌ جداً أن يقود المرء عربته بيد ثابتة وأن يتوقع حركات المتدققين من كل الجهات ويستبقها. لم يعرفني السكان الأصليون، المنهمكين في سباقهم المحموم، أدنى اهتمام، ولهذا فقط، كنتُ سعيدةً بمجيئي. أغمىني التجاهل بالتأكيد، ولكن على نحو أقل من المواجهة المحتمة مع الأهالي، وواقع أن أجد نفسي أمام ضرورة رفع الصوت وفتح طريقي في الزحمة. حينها، كانت الأمور تسير سراً آلياً بحيث ظننتُ

نفسي على مضمار سباق. انسلتُ إلى موقع متقدّم في الطابور، حينما ظهرت من جهة مجهولة عربية خدمة غاصّة بالبضائع، قافلة حقيقية من البوهيميين تتقدّم طلائعها امرأة ضخمة بثوب مزهر بلا تبصر. تجاوزتني تلك الكومة الهائلة من الأطعمة دون تباطؤ عند ربع الدورة، وصدمت رجلي ساقِي لدى مرورها. كان الألم حاداً، ومفاجئاً بعض الشيء. رفعتُ نظري، مصدومة، إلى غريمتي التي لم تتوان عن صعقي بنظراتها. ثار سخطي، ولكن ككل مرّة، انقبضت معدتي وأسبلتُ عيناَي. كانت تلك علامة التنافس بالنسبة للمرأة البدينة التي استفادت منها لتعجل من مرورها. من جديد، وبمؤخرة العربية، هذه المرّة، صدمت ساقِي. كان الألم شديداً جداً إلى درجة أنّه جعلني أرتعد. وتلاقت أعيننا مرّة أخرى، ولكن لم تنفكُ حتى مجرد كلمة اعتذارٍ من شفيتها المضمومتين.

حينها حدث انفجارٌ في داخلي، هيروشيما مصغرة كنت - مؤقتاً للأسف - شكوكي ومخاوفي وترددي وحيرتي. أخذتُ أشتمها وأسبّها بالعربية، بشراسة شديدة بحيث شعرتُ أنني سأطعنّها في صدرها. لمرة واحدة، لم أتعثر في كلامي، فضلاً عن أنّها تدفقت من تلقائها، سيلاً عارماً، دفقة حمض حارق، ولا يهم إن لم تفهم منها شيئاً. في نظري، وجب على السخّط أن يخلي مكانه لشعور أقل نبلاً - أكان يجب انتظار الذهاب إلى متجر كبير حتى أشعر أخيراً بالكراهية؟ إلى درجة أن المرأة انتهت إلى التراجع.

- هذا غير ممكن، لا بدّ من استدعاء حارس، صدر صوتٌ شائخٌ من جهة ما من الطابور.

هدّأني التعليق على الفور، وكأنّه قد ألقى عليّ دلو من الماء البارد. من جديد، فكّرتُ بالسلطة والزيّ الرسمي والجنحة، والاستجواب، كلّ تلك الأشباح التي تطاردني منذ أن وضعت قدميّ خارج سجنّي. نضب سيل الشتائم في فمي، وبجهد جهيد، لم أترك مكاني في الطابور، هذا المكان الذي ظفرتُ به للتو عنوةً. أهو انتصارٌ جيّد؟ أجهل ذلك. ليس هناك ما يُحسّد عليه المرء في أن يشبه دافعي العربات. ولكن خالطني شعورٌ غامضٌ بأنّ ايريك سيكون فخوراً بي، لكوني للمرّة الأولى، سوف لن أعيش عار مدّة الخدّة الآخر.

هيبيرناتا* في باريس

عدت من جديد، إلى مقهى لو فلور، عش الذكريات، حيث أستعيد كما ليس في أي مكان آخر، الذكريات الغامضة لتلك التي كان بمقدوري أن أكونها فيما مضى. اليوم، أنا مختلفة جداً بحيث يبدو لي أنني قد أراها جالسة هنا، إلى طاولة بجاني، دون أن أتعرف إليها، دون أن أتعرف إلى نفسي. ولكن، وأنا في لا فلور، أكاد أكون كاملة بلا تغير، متجددة، خليطاً، لا يحيل دون التحام فوضوي لطيش الماضي وعُصاب اليوم. لهذا المقهى، الذي لا يزال غائماً بالدخان ومكتظاً بالناس، بالنسبة لي بقايا نكهة حلوى مادلين... إنه صلة وصل بين عالمين.

في المرة الأولى التي وجدتُ فيها ديكور لا فلور، فاضت الدموع في عيني. جلستُ بنجمل، طلبتُ فنجاناً من القهوة كما كنتُ أفعل إبان تلك الأيام الهائنة، وارتشفته برشقات صغيرة، مستلذة بطعم مرارها. لوقت طويل، بقيتُ ساكنة، تائهة نهباً ذكرياتي. كان الهواء مشبعاً بدخان السجائر، كما في السابق. قلماً كان الصخب المكتنف، المصم للأذان، يضايقني، ربّما لأنه كان ينبعث من الديكور. كان الجميع أشبه بالبطاريق أكثر قبحاً من أي وقت مضى، السياح الذين يتدافعون ليحاذوا أشباح سارتر، ومثقفو الحي الذين يأملون أن يحذوا حذو أجدادهم، والطلاب الأثرياء، وعابرو السيل المذهولين بكل هذا الصخب المثار في المقهى.

* لقد استخدمت الكاتبة هذه الكلمة في إشارة إلى "البيات الشتوي" أو "السبات" أو "التخدر" وهو النوم الشتوي لدى بعض أجناس الحيوان.

كانت حدود الصلاة وقية جدًا لذكراي بحيث بدا لي وكأن الزمن قد توقف بمقهى لو فلور، تماماً مثلي، وكأنه عاش بإيقاع الأزل دون أن يضحي بطقوس عصر غريب عليّ. وكم كان مؤثراً ذلك القدر من التضامن بحيث صعدت السلم باتجاه المغاسل، ويدي تترلق على الدرايزين الخشبي وكأنها تداعب كتف صديق قديم. ولكن لدى الخروج من المغاسل، أخذ الصديق القديم يضحك هازئاً. لأنني أردت أن أغسل يدي، ولم يكن هناك لا صنوبر الماء الدافئ ولا صنوبر الماء البارد، ولا حتى خلّاط عجيب على شكل مقبض، كما قي مغطس ايريك. « لا داعي للذعر»، قلت في نفسي وأنا أبحث من الجهتين عن المغسلة التي كان فيها الصنوبران سابقاً.

ولكنهما لم يكونا في أية جهة. شعرت بالضيق، تحققت من أن لا أحد قادم قبل الانهماك في تفقد الأمكنة. أتكون هذه الأضرار على الحائط؟ كلاً أنها لوالب لم يدرها أحد قط للحصول على الماء. هناك أيضاً كرة ماء، مغروزة بساق يعبر الحائط. لا شك أن الأمر يتعلق بصنابير جديدة: تُدار نحو اليسار للحصول على الماء الساخن، ونحو اليمين للماء البارد. وما أن طبقت نظريتي، حتى وجدت أن يدي امتلأتا بالصابون، لأن الكرة السحرية لم تكن سوى صابون مرسيليا الندي. وأنا في تلك الحالة من الحيرة والمهانة، دخلت زبونة أخرى ابتسمت لي بشرود، فرددتُ عليها بإيماءة من رأسي، مخفية يدي المليئتين بالصابون خلف ظهري.

شاهدتها تمرّ يديها تحت الماء، وتفرّكهما بالصابون بعنف،

ثم تدخل الحمام. سمعتُ، غير مصدّقة، الباب ينغلق بينما لا يزال الماء يرشّح. هكذا يسيل الماء للآخرين ولكن ليس لي...

بقي لي القليل من الوقت قبل أن تخرج الزبونة من الحمام. من جديد، انحنيت، وفَتّشت في المغسلة ومحيطها. أين يا تُرى ضغطت؟ أَيْكون هناك دَوّاسةٌ على الأرض؟ لا يمكن للماء إدراكها، أو ربّما أُخترِعَ الماء الذكيُّ. بعد نفاذ جميع الوسائل، جثوتُ على ركبتي لأفتش في أسفل المغسلة. أَيْكون هناك زُرٌّ مخفيٌّ فيها؟ لن يفشي لي سرّ الصنّيرة السحرية سوى أنبوبة كنتُ أتبعها كخطّ توجيه. منهمكةٌ في اكتشافي مثل هوارد كارتر في اكتشافاته حول آثار الفرعون توت - عنخ آمون، لم يسعفني الوقت لأفحص حينما خرجت الزبونة من الحمامات وألقت عليّ نظرة ملئها الاندهاش. تلعثمت، وغمغممت، واختلقتُ لنفسي قرطاً ادّعتُ فقدانه لأبرّر وضعيتي. انحنيت السيدة الكريمة، متعاطفةٌ معي، بدورها متظاهرة بالبحث عن قرطي، رغم احتجاجاتي.

- شكراً يا سيّدي، سيكون الأمر على ما يرام، سأعثر عليه.

استغلّت السيّدة ذلك لتتحقّق من أنّ قرطيّ في أذنيّ، مرغمة إياي أن أغوص في كذبتني. جاثية في حمامات عامّة لمقهى من مقاهي سان جيرمان، اختلقتُ في الحال زوجاً آخر من الأقراط، ادّعتُ أنّها كانت موجودة في حقيبة يدي، الحقيبة التي كانت قد فُتحت سهواً، وسقطت منها على نحو مفاجئ قطعة مجوهرات كنتُ أخصُّ بها أختي. نهضت الزبونة، مقتنعة

إلى حدٍّ ما من خلال سيل الكلمات، ومنتشية بالتفاصيل، وألقت علي نظرة ارتياب، ثم مرّرت يديها تحت الصنبور. حصلت المعجزة للمرّة الثّانية، وأخذ الماء يسيل. وأنا جائئة على الأرض في وضعية التلميذ، أدركتُ بأنّه يكفي أن تمرّر الأيدي تحت الصنبور كي يأتي الفرج.

عادت الزبونة إلى طاولتها، وبقيت وحيدة من جديد. تغطّت يداي بالصابون الجاف، وتلبّس الخجل كامل كيائي، مغلفاً كبريائي بكفن سميك. مررت يدي بهدوء تحت الصنبور، فانساب ماء فاترٌ بتلذّذ بين أصابعي. يا إلهي، هل انقضى قرنٌ لكي يتخلّى العالم عن الصنابير، لكي تراك المغاسل من تلقائها وأنت قادم؟ هل بقيتُ وقتاً طويلاً جداً في حالة سبات؟

تساءلتُ مطوّلاً عما تكون قد آلت إليه الدنيا في الخارج، وإذا ما سأكون قادرة في وقت ما على أن أتلاءم مع العقليات الجديدة، وأندمج في المناقشات، وأفكّ طلاسّم لغة العامّة والاختصارات والمصطلحات المكتوبة بالأحرف الأولى. ولم أكن أدري إن كان أبناء جيلي لا يزالون مناسبين لي، إذا ما أثّرت ذكرياتنا المشتركة. هل سيكون بمقدوري أن أهتم من جديد بالأخبار والسينما والسياسة؟ كلّ هذه الأسئلة، طرحتها على نفسي لمئات المرات. ولكنني لم أهتمّ فقط بمستقبل الصنابير. لا يمكن لأحدٍ أن يتصوّر بأنّه سيأتي يومٌ يسيل فيه الماء من الصنابير تلقائياً.

فالعالم قد تزوّج بكل أنواع الأدوات والأجهزة، ولم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير بأنّ كلّ هذا الوقت الذي

أضاعه العالم في اختراع موزعات الصابون، كان من الممكن أن يستثمر في إطعام الجوع، أو اختراع الخلاصة الأساسية من الجزر أو رتق طبقة الأوزون. ولكنني لم أبلغ نهاية مفاجأتي. فما أعتقد من النوادر، هو، ببساطة، العالم كما هو عليه الآن...

لم يزل شيء يدعني أن أفترض أن ملوك العبث قد عاثوا في باريس تغييراً إلى حد أن المدينة ستتحول بالنسبة لي إلى ديكور من خارج الأرض، غير قابل أن أتخلص منه بدون دليل طريقة الاستخدام. أهو الافتان أم الضيق، لا أدري أي من أحاسيسي انتابني أولاً، بيد أن أمراً واحداً كان واضحاً: أنا طفل، وليد جديد في جسد امرأة بالغة؛ بعد قليل، ربما سيكون علي أن أتعلم استخدام شوكة الطعام.

ترعى الدولة - الحامية أدق شؤون حياتنا. لقد أبلغت أن كل نفقات أمراض، الخفيف منها والعضال، سيتكفل بها، من الآن فصاعداً، «الضمان الاجتماعي»، وهو جهاز إداري هائل، يسدد، لقاء قليل من الوقت وورقة ثبوتية تقدم إليه، كل التكاليف، حتى قيمة القطرات التي يقطرها المرء في أنفه بين عطستين.

- عليك الانتساب إلى الضمان الاجتماعي، قيل لي، دون التجرؤ على الإفصاح بأن السنوات التي قضيتها في السجن قد جعلت حالي الصحية سيئة بالتأكيد.

لست الوحيدة التي تعاني. لا تزال نحمل على أجسادنا آثار تلك السنوات الرهيبة. تعاني ميمي من نوبات صرع ترديها

أرضاً، وأُصِيبَتْ ماريّا بالسرطان، ويعاني رؤوف من التهابات رئوية انتانية، وأصغرنا عبد اللطيف، روحه هي التي أخذوها قبل كل شيء.

الانضمام إلى الضمان الاجتماعي مسألة بسيطة، مجرد بعض الإجراءات. ساعدني ايريك في ترتيب أوراقني، الأوراق الثبوتية للمسكن والميلاد والكهرباء والتلقيح، أيّ نسبي الإداري، إذا صحّ القول. تكذّست كل تلك الأوراق في محفظة، هي عبارة عن خرج بلاستيكيّ يحوي كلّ ما أنا عليه، مترجماً بالأرقام والرموز. يشبه مركز الضمان الاجتماعي، الذي يقع في طريق غير نافذة ويتوارى خلف الأحرف الأولى من اسمه الذي لا يُلفَظ، هو محطة. لم أعتد أبداً على الكتمان، وفي الحال، أخذت بتلابيبي رائحة التشوش والضوضاء والانتظار والضغط النفسي التي حامت وتوغّدت. ماذا كنتُ قد تخيلت؟ مكتبٌ صغيرٌ خالٍ، بعض النباتات الخضراء، مضيقة بابتسامة ودودة، واسمي بحروفٍ كبيرةٍ على بطاقة دعوة...

المكتب الصغير العادي غير موجود. عوض ذلك، توجد غرف زجاجية فردية يستقبل فيها موظفون بدا عليهم الإرهاق الناس بين بابين. يجلسُ الزبائن - يُقال الزبائن بالنسبة للضمان الاجتماعي كما بالنسبة للمتجر الكبير؟ - على كراسٍ مستقيمة استقامة العدالة، وهم يقيمون الحجج ويتلوّون، ويقومون بحركات مبالغ، ويدوسون على حقائبهم الـ تاتي

* استخدمت الكاتبة عبارة aquarium لتشير إلى المكاتب المستقطعة بالأواح من الزجاج والخشب داخل صالة كبيرة، وهي مكاتب صغيرة ومفتوحة تستخدم اليوم بدل المكاتب الكلاسيكية المؤلفة من غرفة مغلقة

دون أن يتبينوا ذلك. ولكن قبل بلوغ المكاتب هناك صالة، صالة فسيحة مفروشة بأرائك زرقاء يستسلم فيها رهطٌ حقيقيٌّ للرياضة المفضلة للناس الأحرار: الانتظار. شعرتُ بأنَّ العيون تعاليني، إلى درجة أنَّ خديَّ احمرَّ: لماذا أنا الوحيدة التي أمكث واقفة، متشبَّهة بخُرْجي النفيس؟ كلما بقيتُ جامدة هنا، كلما أزعجني ثقل النظرات. سرى خدرٌ غادرٌ في ساقي، وصعد إلى نخاعي الشوكي. بدا لي أنني سأتحجّر هنا، وأزّين إلى الأبدُ هو الضمان الاجتماعي، منصوبةً على قاعدة، سُتبتُ عليها شاهدةٌ قبرٍ تخليداً لذكرى المشرّدين عديمي الجنسية.

دوى رنين خفيف، في الحال، اتّجه ثلاثون زوجاً من العيون كعين واحدة نحو ساعة حائط، تتربّع في أعلى المكاتب، أعلنت عن الرقم 164. قام شخصٌ لم يُنادى باسمه، عبّر البهو ودخل إلى مقصورة.

164... إنه أمرٌ محيّر، تساءلتُ عما يمكن لهذا الرقم أن يناظره. أياكون المقصود دعوةٌ في ساعة محدّدة؟ هذا مستبعد، بما أن الساعة هي الآن 11 صباحاً، وأنَّ الرقم 164، وإن فكّك بكل الاتجاهات، سوف لن يعطي سوى الساعة 16.04، لا بل 16.40، وهذا لا يتوافق مع الرقم المُعلن. تبقى نظرية الأرقام المحدّدة، الخاصّة بكل «زبائن» هذه المؤسسة المحترمة. ربّما يكونوا قد رُقّموا، ودُمِّغوا كسجناء - لقد قيل لي بأنَّ رقمي المستقبلي للضمان الاجتماعي سيفيدني كجواز مرورٍ في كل إجراءاتي المهنية. انقبض قلبي: ماذا لو كان لهم جميعاً رقمٌ، وأنا ليس لدي؟

حينذاك، غادر زبونٌ إحدى المقصورات واتّجه نحو المخرج. وفي الحال أعلن الحاسب عن الرقم 165، مع نفس ذلك الرنين الخافت. نهض الشاب المرتدي لسترة رياضية، مرّ من أمامي ملقياً عليّ نظرة تحدّ، دون أن يخفض صوت مسجّلاته المحمولة. لقد اتّضح كل شيء... إنه الزبون رقم 165، لا يهم كثيراً إن كان في اليوم، أو الصبيحة، أو الأسبوع. ولكن، كيف عرف ذلك؟ ربّما، اعتادوا على أن يحسبوا فيما بينهم، ولذا كانوا جميعهم ينظرون إليّ بطرف العين. كنتُ، بلا شكّ، وأنا واقفة وسط العدم، أخلّ بحسابهم. جلستُ، بذهن مشوّش، عازمة بثبات على أن أدعهم جميعاً يمرّون. ولكن للأسفّ، كلّما ينصرف بعضهم، يصل آخرون إلى الصالة، وتتألست الأرقام على الشاشة دون أن يعيرني أحد أدنى اهتمام. واقفة، كنتُ موجودة. جالسة، لستُ سوى أثاث. 170، 180، 190. رأيتُ أناساً يذهبون، ويأتي آخرون. كنتُ كعامل حقيقيّ في مرفأ. وإذا أصبح ذلك فوق احتمالي، جازفتُ بالاتّجاه نحو المرايا سعياً للإشارة إلى حضوري. بذلتُ أقصى جهدي لأخفي تشنّجي، وانتظرت. انتظرتُ طويلاً. انتظرتُ أن يشرح « زبون »، طيلة خمس عشرة دقيقة، الفاجعة المريعة للبريد الذي لم يتلقاه أبسداً، والذي - على ما يبدو - سيحرّمه من الدفع الذي يحقّ له. كلاً، لم يرسل شكوى. كلاً، لم يحتفظ بنسخة ورقة الرعاية خاصته.

- ولا أتحدّث عن العرب، الذين لم يعملوا قط بحياتهم، والذين ليس لديهم أيّة مشكلة في استيفاء حقوقهم. هؤلاء أنا من أعرفهم. يُعطى لهم هذا - أشار إلى معصمه - وينتهون بأن يأخذوا منك يدك كاملة. ولا يكتفون بذلك، بل يقبضون عن

الجميع: الأم، البنت، الأبناء، الأعمام، الأجداد! ليس لديهم حق الأوراق الأصلية، وتسددون لهم المستحقات كاملة. ومن الذي يدفع؟ أسألکم أنتم عن هذا؟

العربية التي هي أنا، تنتظر باحتشام في ركن من الباب الذي خرج منه « الزبون » المسلوب مختالاً في غطرسته، ليس دون توعد الموظفة بصواعق الجحيم بل وأسوأ، برسالة مسجلة. أثارت الفتاة شفقتي، تصوّرت نفسي في مكانها، وقد أشبعت شتماً من قبل وغد دون وجه حق. وإن لم يكن الأمر سوى هذا: كيف تتصرف هذه المرأة الحرة لتقضي ثماني ساعات يومياً تحت لمبة نيون، في مقصورة وردية اللون مزججة، حيث يأتي كل واحد يحملها كل مصائب المؤسسة؟ أخذتني حماسة مفاجئة للتضامن معها، فشعرت بمخاوفي تكاد أن تتلاشى، وبلطافة عفوية كافأها بعبارة: صباح الخير يا سيدي العزيزة، والتي بالكاد جعلتها ترفع عينيها.

- 190؟

شّلني السؤال في الحال.

- عفواً؟

أشارت بضيق إلى المعلن.

- 190. إنه أمامك.

وبتأثير تربيتي السليمة، شرحت أنني، لست الرقم 190، ولا أي رقم آخر، وأنني ببساطة جئت أنتسب إلى الضمان

الاجتماعي، ولم أبلغ قط بأنه كان هناك حاجة إلى رقم، وأنني سأكون ممتنة لها إن أرشدتني إلى فن وطريقة أن أكون مدموغة بدوري، كثورٍ في المسلخ.

نظرت إليّ الأنتيلية* بلا قلقٍ، دون أن تتخلّى عن برطمتها المتشنّجة.

— لا أفهم شيئاً. ألم تأخذي رقماً؟

— لا، يا سيّدي.

— خذي رقماً، قالت لي مشيرةً إلى آلة في المدخل، لم أكن قد ميّزتها عن مُطفئة الحريق. وانتظري إلى أن يُنادى لك.

يوجد الوجه الآخر للعالم المعاصر تحت أقدامنا. مساحات شاسعة من المعارض والمزاريب والأنفاق ومداخل المترو ومواقف للسيارات تحت الأرض، تغوص بعمق مستويين وثلاثة وأربعة وأحياناً خمسة مستويات. لم أستطع الامتناع عن التفكير بذلك، حينما تجوّلتُ في طول جاذّات العاصمة المكتظة بالناس. إنّه عالمٌ حقيقيٌّ يمد بضعة أمتار في الأسفل، عالمٌ من الظلمات يجهل أشعة الشمس الصيفية. سرعان ما لاحظتُ أنّ البشر الأحرار ينفرون من الهبوط إلى تحت الأرض، كما لو أنّهم قضوا فيه قسطاً كبيراً من حياتهم. تبلور السرايب مخاوفهم وقلقلهم، كطفل يرفض أن يُطفأ مصباح سريره، المتراس الأخير في مواجهة العتمة. المترو، والأقبية، وموقف السيارات، والكثير من الديكور حيث يحوم شبح الاعتداء — وسواسٌ

* نسبة إلى جزر الأنتيل — المترجم.

بامتياز لكل مدينيّ يحترم نفسه - متوعداً.

ومع ذلك فإن باريس مدينة هادئة نسبياً، حتى لو كانت غابة، بماذا ستكون الأقبية أقلّ أماناً من أزقة منطقة الهال حيث يتنشّق شبّان محطّمون المخدّرات تحت أرتاج العربات؟

باختصار، أنا التي أخاف من كلّ الناس ومن كلّ شيء، لا يصيبني أدنى خوف حينما يتعلّق الأمر بالتزول إلى تحت الأرض. بل يتملّكني هناك شعورٌ غريبٌ بالعدوبة والسكينة. بعيداً عن الضياء وعن هياج الخارج، أنغلق على ذاتي. على السطح، أكون في حالة عرض. أراقب أفعالي، مِتّة ذعراً. تحت الأرض، استغرق في التفكير، في القراءة، يهدّدي الطنين المخنوق للمترو.

لم أفهم قطّ لماذا تشلّني الحشود في الخارج، بينما لا ألقاها في عربات المترو. باستثناء ساعات الذروة حيث يتحوّل البشر الأحرار إلى سمك سردين، وحيث يشعر المرء بأنفسه جاره قريبة

جداً بحيث أشعر بالغثيان، فإنّ الناس الذين يشغلون المترو مختلفين - في النهاية - بالنسبة لي. هل أعيش من أجلهم؟ أجهل ذلك، ولمرة واحدة، لا أطرح على نفسي السؤال. كرسيّ بمقعد متحرّك، زاوية مقعد، وإذ بي مبحرة في رحلة أريدها بلا نهاية، موزونة بإيقاعات الرّجّات المسكّنة للقطار المنساب على السكك. هناك، تحت الأرض، أستغرق في القراءة، وأتخلّص من رتابة الحياة اليومية. من حينٍ إلى آخر، أرفع نساظري، لا

لأعين المحطات المتتالية بل لأرسل نظري في عتمة الأنفاق. في محطة ريومور-سيباستوبول، أدركتُ أن جماعات من صفار الفئران كانت تعيش في البنى المعدنية للمقاعد التي يقرأ المسافرون عليها جريدتهم بانتظار المترو. لا أحد من بينهم استدار أبداً ليرصد الخراطيم المجهرية التي كانت تعبر جحوراً صغيرة، لأنه ليس لديهم سوى هم واحد: أن يروا النور بأسرع وقت. حدث لي وأن دسستُ بعض قطع البسكويت في الجحور، وأن شعرتُ بأنها منهوشة من الداخل. يجري الحديث كثيراً عن الجرذان التي تغزو الأقبية، أما أنا فلم أر سوى هذه الفئران الصغيرة، التي لها قدرة غريبة على البقاء في عالم من الإسمت.

كما أن هناك رجالاً يسكنون هذا العالم، لاسيما عندما يحل الصيف محل الصقيع والجليد. وقد تبين لي بأنه إذا كانت المقاعد، على الأرصفة، قد أبعدت عن بعضها ما يقارب المتر، فذلك ليس، كما كنتُ أعتقد، لتتاح لي القراءة بهدوء، وإنما لمنع هؤلاء الرجال من النوم عليها. فالناس الأحرار لا يحبون مشهد بؤس الآخرين. وبخلاف الفئران، لا يمكن هؤلاء الذين يسمون بـ «مَنْ لا مأوى لهم» الاندساس في الجحور، اتقاء للبرد ولنظرات الآخرين.

أحبّ مواقف السيارات، ربّما أكثر من سواها، لأنها دائماً مقفرة. نلتقي فيها بأشباح تلامس الجدران، باحثة بيأس عن سيارتها بالنظر. بالنسبة للبقية، فهي عبارة عن مساحات شاسعة من مصابيح النيون المهملة، وسيارات فارغة مترامية على مدى البصر. لدى مروري بها، تخيلت قصة لكل منها،

سائقاً، عائلةً، هؤلاء الناس المجرّدين الذين لن يخيفوني أبداً،
لأنهم نتاجُ تخيلي، إنهم ينتمون إليّ.

لزم من طويل، تخيلت شخصيات وحكايات. أخذتُ عائلي في استراحة مع حكاية ذات أحداث غريبة، حكاية استغرقت زمن سجننا الشاق، حكاية عاشت وتقدّمت وشاخت معنا. وكشهرزاد في الأسر، لأحد عشر عاماً، كنتُ، ليلة بعد أخرى، ابتكرتُ حكاية تجري في روسيا القرن التاسع عشر. كانت «ندائف السوداء» تصف بدقّة مُلغزة، سيما وأنني لم أكن قد وضعتُ أبداً قدمي في روسيا، قصور سان بطرسبرغ، وأعمال القوزاق، والزهات بالزلاجات على ضفاف الفولغا المتجمّدة. كان عندي مخيلة غنيّة! في الخارج، كان سعي الليالي المغربية، ولكن كان في قلوبنا طوفٌ جليد متخيل. كان كل واحد منّا يحلم، وكان رؤوف يصفرّ حينما لا يعود يسمع القصة.

لفرط ما سردتها، غدا أبطالها مألوفين جداً بحيث بدا لي وكأنني عشتُ إلى جانبهم؛ هكذا يصبح المرء كاتباً أو حالماً أو مفصوماً في شخصيته. ثمّة شيء قليل من تلك الحكاية في الطوابير الطويلة للسيارات التي تشغل أقبية سراديب باريس. إنها علب فارغة، تروي القصص التي يُراد لها أن تُسمع جيداً. إنه عالم مصنوع على مقاسي، عالم لا يريد أحد أن يحكمه، لأنه لا يوجد فيه أحد.

حينما كان المال ملموساً

على مدى ما أتذكر، اتسعت محفظتي لثروتي. ولكن، كان المال بالنسبة لي شيئاً ملموساً، مفهوماً يمكن جسسه والذي كان يخشخش في جيوبي لحساب خياطي الضفة اليسرى. كنت أحيله أثواباً من ديور أو سان لوران، ومصاريف عند كاستيل أو ريجيني، وعطلاً رائعة أقضيها مع أمي في نيو يورك أو لوس أنجلوس.

في عالم البشر الأحرار، تغيّر شكل المال نفسه. فبعد أن بقي سليماً مستقراً على مدى قرون، لم يجد ما هو أفضل من أن يتغيّر ويتحوّل، خلال سنوات، في الوقت الذي عدت فيه إلى الحياة. ألا بدّ أن يهرب مني كلّ شيء وكأنه يعاقبني على كوني غائبة لأمد طويل جداً؟ طبعاً، لا تزال الأوراق المالية، كما القطع المعدنية، المسماة بالبيضاء أو الصفراء، حسب قيمتها، موجودة، ويمكن للقدماء أن يتشبّثوا بها، مثلما هو الشيك العجوز الطيب الذي يبلغ مفهومه من العمر ما يقارب مائتي عام. وطبعاً، لا يزال هناك أناس يتكلّمون بالفرنكات القديمة، وبملايين السنتيمات. ولكن الحقيقة هي أنّ المال قد غيّر وجهه. لقد أصبح مجرداً، عائماً، يُلعب به مثلما يُلعب بالفيش* في الكازينو.

تشغل ثروتي من الآن فصاعداً قطعة صغيرة من البلاستيك، والتي يمرّرها المرء إلى النادل دون التفكير بها، وهو

* Jetons (فيش): تستخدم بديلاً عن المال في ألعاب القمار في الملاهي، وتقصد أن المال النقدي الملموس نثر وحلت محله هذه القطع البلاستيكية الممغنطة - المترجم -

يتابع حديثه. قبل أقل من ثلاثة أشهر، كنتُ أندهشُ من الآلة السحرية لقيد الحسابات المصرفية، وأنا أقسم بأقدس ما عندي على أنني لن أسقط أبداً في التجريد. أن أدفع هكذا بالهواء غير وارد. لا بد أن أرى نقودي، أن ألمسها، أن أحصي الأوراق المتبقية معي، وأن أجري في مخيلتي الحساب الذهني للنقود التي أُعيدت إلي، وللبخشيش الذي تركته للنادل. تُكربني بطاقة الائتمان، تفصلني عن الواقع. ومع ذلك... وحرصاً منه على ألا يراني أعيش في الماضي مثل أولئك المستئين الذين، رفضوا رفضاً قاطعاً تداول الشيك، في زمن البطاقة المصرفية، استخرج ايريك لي بطاقة زرقاء، برّاقة. تحمل اسمي بحروف مذهّبة، لم أكلّ عن النظر إليها. قيل لي بأنني، بهذا المفتاح السحري، لن أكون أبداً في ضائقة: يمكن استخدامها في كل مكان، لدفع ثمن المشتريات، وأينما رُفِضَت البطاقة، هناك أجهزة صرف آلية تحوّل البلاستيك إلى نقود، إنه حلمٌ خيميائيٌ حقيقي. يجمع الناس الأحرار، من حولي، هذه البطاقات بخيلاء ظاهر... حتى المحافظ قلّدت الآخرين، تاركةً الجزء الجميل منها لبطاقات الائتمان. غالباً ما تحتوي المحافظ البطاقات ذات الصراع الواحد ثمان أو عشر بطاقات منها. كانت علامة النجاح، في ما مضى، هي ترك حزم الأوراق المالية تظهر للعيان، أمّا اليوم، فأفضل علامة لنجاح المرء هي التترّه وقد عُجّت محفظته بكل ألوان القوس قزح. يوجد منها ما يناسب كلّ الأذواق، وكل الصُرر، الأمر الجوهري هو رصّها بما يكفي للشعور بوجودها. لأنّ العالم كما وجدته لا يعترف بأبنائه سوى من خلال شبكة عملاقة، كلّ شيء فيها وقفّ على بطاقة الائتمان.

في الفترات الأولى، ظلت بطاقتي الزرقاء في قاع محفظتي، لا تجدي نفعاً سوى في تغذية خوفي من أن تُسرق. هذا الشيء الذي يُفترَضُ به أن يسهل الحياة، لم يتوان عن إفساد حياتي، مضيفاً هماً إضافياً إلى همومي، كنتُ بغنى عنه.

- وإن سُرقَت مِنِّي؟

- لن تُسرق منك، أجباني ايريك. في أسوأ الحالات، وبمخاطرة هاتفية، تقدّمين إبلاغاً.

إبلاغ؟ لن أتصوّر، في أحلامي الأكثر طيشاً، أن أضايق المصرفي في عمله لأصرّح له بشفقة عن فقدان بطاقتي الزرقاء. بالتأكيد، سيستجوبني، ويكرهني، وربما سيوقع عليّ غرامة. كنتُ أهل ذلك العبء كما تحمل صبيّة مفتاح البيت حول رقبتها: أشياء كثيرة تقومُ على شيءٍ صغيرٍ جداً، فلمجرد فكرة فقدانه، يكون نهارها فظيعاً.

لحسن الحظ - إن تجرأتُ على قول ذلك - أن بطاقة الائتمان، بخلاف المفتاح حول الرقبة، محميّة برمز من أربعة أرقامٍ سحرية لا يمكن للمرء من دون الأرقام أن يفعل بها أيّ شيء، على الأقلّ هذا ما أظنه. وقد نُصحتُ بالاحاح أن أحفظها عن ظهر قلب، ولكن ماذا لو نسيته؟ ثلاث محاولات عقيمة وثقل البطاقة - لا تسألوني بآية معجزة -، وتصبح غير قابلة للاستخدام.

ماذا يحدث في هذه الحالة؟ لا أريد حتى أن أعرف ذلك. على الأرجح يُستفَر المصرف، وقد يستدعي التجار الشرطة:

بطاقةً بلا رمز هي بطاقةٌ مسروقة. وهكذا احتلت أربعة أرقامٍ حياتي، وشغلت كل مكان، مستذكّرةً ذاكرتي القويّة قدر الإمكان. سجّلتها على ظهر مفكّرتي الصغيرة، على ورقة مطويّة أربع طويات في قاع محفظتي، على دفتر مذكرات في البيت، على لاصقة خلف البرّاد، وحتى على تجويف معصمي، بقلمٍ من حبر سائل (فوتر). لفرط ما ردّدتها، أذكرها كما لو أنّها تاريخ ميلادي، ولكن مَنْ يدري، ربّما ننسى صدفه، وهكذا يمكن تجنّب الكارثة.

- من التهور أن تتجول مع الرّمز، قيل لي في النهاية. ففي حالة السرقة، سينال الشخص كل ما يلزمه، وسيمكنه أن يفرغ حسابك.

لأمدٍ طويل، تجنّبتُ استخدام أجهزة الصرف الآلي. كان تنظيم مشترياتي، وطعامي، وكسائي، وتبضّعي بواسطة قطعة البلاستيك تلك يصبح بالنسبة لي أمراً يمكن احتمالَه بل ومألوفاً. ولكن سحب السيولة النقدية من آلة وسط الشارع كان شيئاً مختلفاً تماماً. كان الإحساس المزعج بالتخطيط لسطور يتابني في كلّ مرة كنتُ أقيّأ فيها لاستخدام الصراف الآلي، وكنتُ أعود واهنة العزم، ممسكةً ببطاقتي كمن يصبّ سلاحه ويجول بلا كلل من حول مصرف دون أن يتجرأ على دخوله. تتناثر في باريس أجهزة صرف آليّة كثيرة، مثل CIC، CCF، كريدي ليونيه، الشركة العامّة، BNP...، تلزمك باختلاس المال منها. تميّز كلّها بلوحات مضيئة، ويد تدس بطاقةً، إنّها دعوة إلى الفجور. تشكّل هذه اللوحات جزءاً من المشهد،

بنفس طريقة « مواقف الحافلات » الجديدة المبرقشة بالإعلانات التي حلت محل أعمدة مورييس.

ولما كان المرء لا يفلت من قدره، وجدت نفسي ذات صباح جميل في طابور الانتظار أمام صراف للشركة العامة، في مكان من أطراف محطة ليون. لم يكن من الممكن تفاديه، كنت بحاجة إلى ما يكفل لي الاستمرار، ولم يكن لديّ لا الوقت ولا الإمكانية للمرور بالبيت، ولا كذلك بالمصرف. على مبعدة بضعة أمتار، كان صراف بالأسود والأحمر يبسط يديه لي، وانتهى بي الأمر أن استسلم له. ولكن ليس بلا عناء... لمرة، ولثلاث، مرت أمام الآلة، أرمقها بطرف عيني بارتياح. انتهيت إلى الاقتراب منها، بانحراف، لآلفها كما لأعتاد على الفكرة. في جوف معدتي، كان يؤد ذلك الإحساس الذي أميزه بين جميع الأحاسيس: الخوف، القلق، مزيج من المشاعر لا يحمل، حقاً، اسماً. إذا كان لا بد من تسميته، فسأدعوه تناذر* العالم الحر.

الآن، في الطابور الذي تشكل أمام الكوة الآلية، أنتظر دوري. وتدافعت كل أفكار العالم في رأسي. هل سأحسن التعامل مع سير الآلة؟ لا شيء مؤكد. هل ستعرف إلى بطاقتي، مثلما يتعرف صنوبر مقهى لو فلور على أيادي الزبائن؟ ألن يُطلب مني رمز غير رمزي ورقم حساب والضمان الإضافي لموَّلي، ورقمي في الضمان الاجتماعي؟ الأسوأ هو أن الطابور قد طال من خلفي الآن: كانت امرأة وخلفها عامل باللباس

* تناذر: تزامن أعراض مرض من الأمراض - المترجم -

الأزرق الخاصّ بالعمل ينتظران دورهما بتدقّر. وقد بدا عليهما علامات التوتر العصبي، لأنّ الشخص الذي يستخدم الصراف لا يستعجل، الأمر الذي أصبح، في سنوات التطوّر هذه، إثماً قاتلاً. تنفّس العامل نافخاً، ونظرت المرأة إلى ساعتهـا. راودت ذهني فكرة أن أهرب، ولكنني أدركتُ بأنّه لن يكون الحال في مكان آخر مختلفاً. فالوقت منتصف الظهر وباريس تعجّ بالناس. لن أعثر في حي مزدحم لهذه الدرجة على آلة تركها كل الناس بحيث سيمكنني أن أنطلق دون تحفظ في إجراء الاستكشاف حيث سيمكنني أن أطلق العنان لنفسي، دون تحفظ، في إجراء أبحاث الاكتشاف.

جاء دوري. تجرأت بالكاد أن أنظر خلفي: زاد شخصٌ آخر على الطابور. وإذا لم أعد أحتمل، التفتُ نحو المرأة التي تليني:

- أتريدين المرور ربّما، يا سيّدي؟

- كلاً، من فضلك، أنتِ كنتِ هنا قبلي.

تمتّت بكلمات شكر لم تصل، قبل أن أستدير نحو الوحش. أعلنت لي شاشة ملوّنة بتهكّم

" أهلاً وسهلاً بك « وكذلك « تفضّل بإدخال بطاقتك». إن حدث وعجزت عن معرفة التعامل مع الآلة، سينقذني رسمٌ صغير، يمثّل يدي وبطاقتي ومأخذ البطاقة، وحتى الخانة الرقمية في الأعلى تماماً.

بهدوء، أخرجتُ بطاقتي مثلما طالب الصراف الآلي، وأنا

أنظر ذات اليسار وذات اليمين، مذهولة بفكرة أن يستطيع أي شخص أن ينقض علي وينزع مني بضربة واحدة كل ثروتي. التفتُ إلى الوراء: ربّما لهذا رفضت المرأة التي كانت تلسيني أن تأخذ مكاني. ولكنها لم تتحرك قيد أنملة. فتّشت حقيبتها بإتقان. فدمستُ بطاقتي في الصدع، ولكن حينما شعرتُ بها خُطفتُ، تشبّثتُ بها، رافضة تركها تمضي. عجباً! كان يتهاً لأن يتلّعها. وماذا لو رفض أن يعيدها إليّ بعد ذلك؟ وماذا لو اختفت إلى الأبد دون أن تترك أثراً؟ الأمر الأسوأ هو أن تُلفظ من الآلة بعد ذلك بساعات، وأن يستولي عليها أيّ كان ويغير على المحلات على نفقة الغير.

للحظات، قاومت فهم الصراف الآلي، قبل أن أنتزع منه بطاقتي. تنفّستُ، وعدتُ إلى رشدي. القليل الذي أعطيته إياه لم يكف لتحديد هويّتي: استمرت الشاشة في عرض «أهلاً وسهلاً بك» وأسمعي العامل تأفّفه وسخطه من جديد. سينبغي إذاً أن أدع ثروتي الأعلى تذهب إلى أعماق هذه الآلة التي تُبدو أحشاؤها للعيان... للمرة الثانية، قدّمت بطاقتي باتجاه مبلّع الصراف الآلي، الذي شفطها دون أن يستعيد أنفاسه. رغماً عني، وكعاشقين افترقا قسراً على رصيف محطة، أرخيتُ قبضتي وتركتُ بطاقتي تعيش حياتها. سُمع صوت آلي، وبعض الصغير، ثمّ تغيّر لون الشاشة.

« تفضّل واكتب رمزك السري. » أكتب رمزي السري، هنا؟ وسط الشارع؟ من جديد التفتُ إلى الوراء.

— هل ستقضين الليلة هنا؟ توجه إليّ بجفاء الرجل ذو بزة

العمل الزرقاء، مسروراً للغاية بملاقة نظري.

غمغمتُ بكلمات وكأني أبرّر موقفي. تلوّيت وحاولت أن أشيح بوجهي عنه وطُرقتُ أرقام الأربعة باضطراب. حتى أن الجهاز كافأني بعبارة « رمز غير صحيح، كرّر من فضلك ». جمّدت رعشة عظامي، بحيث استحالت الأرقام التي طرقتها أنجماً صغيرة. عدمتُ الوسيلة لمعرفة ما إذا أخطأت. وأنا في ذروة الذعر، أعلنت الشاشة محاولة ثانية. محاولة ثانية، الآن؟ أعلم بأنّ في المحاولة الثالثة، سأكون مفلسة؛ وبطاسقي معي.

تحقّقت من الأرقام الأربعة المخفية في قعر محفظتي بإلقاء نظرة عليها. لم تتغيّر، لا يتغيّر الشيء، قسراً، في دقيقة حينما يكون رقماً. لحسن الحظّ، نجحت المحاولة الثانية بفضل عيون الآلة، التي كافأتني بشاشة جديدة. 200، 400، 600، 800، غير ذلك. كيف يمكنني الحصول على 200 فرنك؟ حاولت أن أضرب الرقم 200 على ملامس الآلة، ولكن لم يسفر عن ذلك شيء. ضغطتُ، يائسةً، على أحد الأسهم المحيطة بالشاشة، متسببة بعبارة « تفضل بالانتظار » المشؤومة. نسأل مصرفك، أعلنت الآلة، وتوقف قلبي. لماذا يسألون مصرفي؟ ليس هناك ما يؤخذ عليّ.

« تفضل واسترد بطاقتك ». استوليتُ على ثروتي كطير جارح، وأخفيتُها بعزاء في قعر جيبي. لقد مرّ الأصعب. سمعتُ ضجيجاً معدنياً جديداً، ارتفع مصراعٌ، وانزلت نحوي أوراقٌ مالية جديدة جداً للدرجة تشير الشك في أن تكون مزورة. 200

فرنك، مرة، مرتان، ثلاث. 600 فرنك! مذعورة، نظرتُ إلى أوراقِي، حسبتها، وحسبتها من جديد. لقد أخطأت الآلة، أنا واثقة من ذلك، وأعطتني أموال شخصٍ آخر. كدتُ أن أوزع الورقتين الزائدتين على الشخصين الذين كانا ينتظران، فربّما أن هذا المال هو لهما.

في أوّل غرفة هاتف صادفتها، اتّصلتُ بايريك لأروي له مغامرتي المزعجة، لأرجوه أن يتّصل بالمصرف، ليلبلغهم بأنّ ورقتين من فئة مائتي فرنك، سُحبتا من حساب غير حسابي، انسحبتا تلقائياً. أنا مستعدة لإعادتهما، في الحال إن لزم الأمر، لو أنّ هذا الصرّاف اللعين كان يرضى بأن يعمل بالعكس، ويبتلع الأوراق المالية مثلما يزدرد بطاقات الائتمان.

— لا تشغلي بالك، أجباني رجل حياتي، مطمئناً، لا بسدّ أنك قد ضغطتِ على الزرّ غير المناسب...

على ما يبدو، أن الكوّات الآلية لا تخطئ أبداً، ولا صنبور لا فلور منع الماء عن زوج من عشرة من الأيسادي. ربّما ضغطتُ حقاً على الزرّ الخاطئ، واخترتُ السهم الخاطئ. ربّما انقلبت المبالغ. في كلّ الأحوال، هذه الموزّعات الآلية للأوراق المالية، هذه الوحوش الباصقة للأموال التي تحلّ محلّ موظّفي الكوّات ليل نهار، لن تعطيك أموال الآخرين. مطلقاً. بذلك الاطمئنان الغامض، سأنتظر بعد ذلك على الأقل خمسة عشر يوماً والخوف من مخالفة القانون ينهش أعماقي، حتى يصل كشف حسابي، الذي ذكر بوضوح سحب ستمائة فرنك، في نفس ذلك التاريخ الذي واجهت فيه واحداً من أشباحي.

لهذا، لا يمكنني العزم على قبول مبدأ الائتمان. تربيتي وقيمي والغياب الطويل الذي حذف مني أشياء من العالم، كل هذا يحثني على رفض الميل المعم إلى إنفاق أموال لا وجود لها. حبست نفسي لزمن طويل مرغمة لئلا أكبل نفسي طواعيةً بقلقل الائتمان وهمومه. يُغروننا بالكثير من الأشياء، بالكثير من الكنوز التي تعمّر أحلام أولئك المستعدين لأن يتكفلوا لعشرة أعوام، لعشرين عاماً، بحكم بلا استئناف في سبيل سيارة جديدة عادية. ماذا لديها أكثر من غيرها، هذه السيارة التي تدفعهم إلى اقتراض بنسبة مئوية تُدعى تفضيلية؟ مقاعد من الجلد، وهواء مكيف، ولون زاه، وإطارات من الألمنيوم للعجلات؟ يا للمهزلة! لو أن الأمر لم يكن يتعلق سوى بي، لكنا عشنا عشرين عاماً بنفس سيارة ييجو العتيقة، ولكان كل سنتيم مقتصد من سيارة مرسيدس سيضخم حساباً مجمّداً، لفصول الشتاء العصبية.

ليس لحالي كمستكشفة في عالم مجهول الكثير من الفوائد، اللهم سوى هذه: لن تكون حاجاتي أبداً نفس حاجات الأحرار. أنا أيضاً، كنتُ شابةً، طائشةً، ضحية الدُّرجة (الموضة) والدعوات إلى الاستهلاك. اليوم أعرف أموراً قضى البعض أحياناً حياةً كاملة كي يفهموها: جوعي لم يُسدّ بعد.

لابدّ من القول بأنّي، منذ عودتي إلى الحياة، مذهولة بالحيز الذي يشغله الآن الإعلان في دنيا أمثالي. قبل سنوات، كان يجري الحثُّ على الاستهلاك، ولكن عدا عن أن السجن قد قرض ذكرياتي، لا شيء كان يضاهي الصخب العشوائي

لإعلانات اليوم. جدران المدينة مغطاة بإعلانات تنبسط عليها ألبان وألبسة وعطور. التلفاز عبارة عن أسهم نارية للإعلانات، لكثرة ما أصبتُ بدوّار: قبل الأفلام، وبعد الأفلام، وخلال الأفلام. بين الأخبار والنشرة الجوية، يُدسُّ متجراً كبيراً أو محلٌّ للنظارات. العديد من البرامج « قُدِّمَتْ لكم » من قبل معلن. في المجلات، كلُّ صفحة من أصل اثنتين تغري الناس الأحرار بمحاسن ومنافع ما لا يملكونه. فتيات رشقات في الخامسة عشرة بجسم خالٍ من العيوب يمجّدن مزايا مرهم مضادٍ للتجاعيد. صورٌ لبحيرة مرجانية مياهها فيروزية تنير ممرات المترو، مدموغة بـ « عَرَضٍ خاصٍّ » يثير الأحلام.

رحلاتُ طيران بأسعارٍ مخفضة إلى آخر الدنيا، حواسيب مكتبية، ستيريوهات، درّاجات رياضية، هناك من العروض ما يناسب كلّ الأحلام وكلّ الأعمار. حتى المسنّن الذين يُسمّون العجائز لأنّه لم تعد الأشياء تُسمّى بأسمائها الآن، هؤلاء المسنّن الذين من المفترض أنّهم قد بلغوا حالة الرزانة والحكمة يجري إغراءهم واجتذابهم بفضل كراسٍ بمسندين للجلوس وحيدين ببلاهة أمام التلفاز، أو بأثاث الحديقة، الذي سوف يرتّبونه بعناية، تحسّباً لليوم الذي قد يقرّر فيه الأطفال، الغائبين منذ زمنٍ طويل، زيارتهم. الأسوأ من هذا، تُباعُ لهم مآتم وصكوك تأمينٍ على الحياة وأمكنة في المقابر، تحسّباً لأن يزعمجوا الآخرين حينما تأتي ساعة إقلاعهم الأبدي عن الاستهلاك.

البؤس

أبیر صديقي، ومع ذلك فهو ليس صديق أحد، لأننا نمرُّ من أمامه دون أن نراه، إنه جزءٌ من المشهد، كأعمدة الإشارة أو الحاوية في ركن من الحى. لم يعد يُقال متشرد - بطلت العبارة في أثناء غيابي - وإنما « بلا مسكن ثابت »، وخاصة SDF، كسباً للوقت. ومع ذلك فهو لديه مسكن، يكاد يكون ثابتاً، بسقوط الليل، في زاوية قصية، أسفل واجهة مخزن لبيع الأحذية. تحت خفاف ثمنها مائتي يورو، يضع حوائجه البسيطة: كيس نوم، وسادة مرتجلة مكوّنة من سترة ملفوفة اسطوانياً، وكأس ماكدونالد مُلقى على الرصيف، إن حدث وحاول أحدٌ ما أن يتخلّص من القطع النقدية الصغيرة التي تشوّه جيوب البنّات الأنيقة. ينام أبیر هناك كلّ مساء، عدا ليالي الشتاء الأكثر قسوة حيث كانت حافلات بيضاء تحمل مَنْ لا مسكن لهم لتجنّبهم الموت برداً. لمرة أو مرتين، اضطرَّ إلى حزم متاعه، مطروداً من قبل الجيران الذين كانت الرائحة تزعجهم، أو من قبل مدير المخزن العائد لتدقيق حساباته. كما أنّه هوجم، ذات ليلة صيفية، من قبل مجموعة من الشبان الذين أوسعوه ضرباً اعتباطياً، بسبب الرياضة.

أبیر صديقي، وليس هذا على سبيل الكلام فحسب. وإذا كنتُ أسعدُ ياملاء طاسه بين الفترة وأخرى، فما كان يدفعني إلى ذلك الشفقة. هذا خطأ. فبخلاف الناس الأحرار، أشعر بنفسى على ما يرام صحبة المتسولين. أفضل حتّى من صحبة الذين يملكون المنازل الذين يوقظون بالضرورة أحزاني

وقلاقلي. أمّا الذين لا مأوى لهم، فلا يغشّون ولا يخدعون. إنهم لا يتغيّرون، وأجد نفسي في طريقته الساذجة واليائسة في التوجّس من العالم. كم من الوقت أمضيته مع ألبير وأقرانه في الحديث بتواتر عن كل شيء وعن أتفه شيء، عن العالم وشقائه؟

لم أعد أدري. ولكن يبدو لي أنني كرّست لهم من الوقت أكثر مما كرّسته لأصدقائي. لا تؤثر مفاتن الإعلانات عليهم، كما عليّ؛ إذ كيف يمكن الانسياق للاستيهام على الموقع الجديد، عندما ينام المرء خاوي البطن؟

لألبير أربعون عاماً وماضٍ فوضويّ قاده إلى أسفل عمارتي. أحياناً، يروي لي سنواتٍ تشرّده. وأحياناً أخرى، يتدفّق بوحاً، يتكلّم عن أيامه التي لا تنتهي، وعن الطاس الذي يصعب من أن يمتلئ... ويهتم بي، بلا تملّق، بلا مجاملات الناس الأحرار الذين يبذلون الكثير من الجهد لإثبات أهميتهم للآخرين إلى حدّ أنهم يسهون بذلك عن الإصغاء إليك. لا أحبّ أن أدرس نقوداً لألبير؛ فالاستجداء يضايقني. والغريب، بينما هو يعفّ عن الاعتقاد بأنّ المتسوّل ينجل ويستحي، كنتُ أنا من أتضايق لفكرة رؤيته يمدّ يده للآخرين. بين الحين والآخر، كنتُ أحاول أن أعطيه القليل من المال دون أن يفهم من ذلك أنّه صدّقة... أو ، أوفر له قليلاً ممّا يهّمه، قليلاً من الطعام، قارورة، وجريدة.

فليأكلوا، ويشربوا، ويدخّنوا، ويحششوا، فإنّ ألبير وأقرانه يعيشون على هامش عالم البشر، مرميين على الأرصفة

كأكياس القمامة، لغرض وحيد هو أن يَحْيُوا. أنا أيضاً أدركتُ ذلك، هذا السعي الحثيث إلى العيش حتى اليوم التالي، دون أن أعرف حقاً لماذا. هل غريزة البقاء، أم هي الأمل، وقوة العادة؟ أجهل ما يدفع اليائسين إلى التمسك بالبقاء إلى أقصى حد.

كلّ يوم، تتلاشى نقودي مدراراً في المترو، تتلقفها كل دواعي العالم السفلي. مشرّدون، متسوّلون، موسيقيون، بانعو الصحف أو الحلوى... يمرون خلسةً في حياة أولئك الذين يسبلون عيونهم لدى اقتراهم، يتابعون بلا كلل كأنهم يعدّون الركاب، متنقلين من مترو إلى آخر. طفلٌ جائع، سقّفٌ من أجل الليل، ما يكفي لوجة ساخنة، بعض القروش لدفع الإيجار. من هو الصادق بينهم؟ لا يهمّ إن كان الكلّ صادقاً أو لا شيء من ذلك، فأنا أشعر بعوزهم فطرياً. في انتظار من يليهم، يتجولون في المقطورات، وهم يعدّون يدهم في الممرّات أو على السلام، تحت الشمس الحارقة. تعمّقت لازمتهم في السلوك إلى حدّ لم تعد تثير اهتمام أحد إلا نادراً. لحظة خطابهم، تتشجّج الوجوه خفيةً، وتتقطّب الحواجب، تنشّد العيون إلى المجلات أو كتب الجيب. لقد أصبحت قدرة البشر الأحرار على غضّ النظر عن بؤس الآخرين فطرةً ثانية. إنهم ببساطة ينغلقون على أنفسهم. وأنا أراهم غارقين في قراءتهم أو في التأمل في أحذيتهم، تراودني شكوك بشأن الصدفة التي يغلقونها ثانية عند اللزوم. هل يصنّعون اللامبالاة لينسوا بأنهم قد ينضمون، ذات يوم، إلى ألبير في عالمه الرتيب؟ ربّما يحافظون على كمال محفظتهم فقط؛ فلكثرة ما يتخفف المرء من قطعته

النقدية الصغيرة، يجد نفسه مرغماً على صرف ورقة نقدية، حينما يقرر شرب فنجان من القهوة.

من جهتي، أعطي بلا تمييز (غالباً خطأ، إذا صدقت أقوال أصدقائي، الذين يعلنون لي بأن مافيا حقيقية للتسول تعيشُ فساداً في باريس)، بعض القطع النقدية الزهيدة والتي قلّما أشعر، بخلاف أغلب الناس، بأن قطعتين أو ثلاث قطع مرمية في قُبعة تنقدهم من مشكلتهم مع عذاب الضمير.

بتأثير ألبير وآخرين، شعرتُ بأنني أعود نافعةً، وأنني أنسى عُصامي النفسي لأمدّ يدي إلى أولاء الذين ينامون تحت المطر. وهكذا، وبكل براءة وسذاجة، اتّجهتُ طوعاً إلى خدمة مجانية في مؤسسة SAMU، الاجتماعية. ربّما لأبد لكل واحد أن يجد هناك هدوءه وتوازنه. وقد لا تكون الوسيلة الفضلى لراحة الضمير سلسلة من الجلسات الاستبطانية التي تستغرق الواحدة منها نصف ساعة لقاء مائتي يورو. بقوة هذه القناعة الجديدة، رحتُ أبذل مسانديتي للملفوظين من المجتمع. ولكن شتّان بين الأفكار العظيمة والواقع. ذات ليلة، سارت باريس غير منتظرة، شرسة، طافحة بالعوز والأوباش تحت أبصاري. من خلال الزجاج المعتم لنوافذ حافلة SAMU، ارتفعت أنوار المدينة كنجوم خافتة... ووددتُ أن أعود إلى بيتي. راحت قراراتي الكبرى، وهمتي حديثة العهد، وورعي هباء. انطويست على نفسي، مذهولة بالكثير من الحزن. شعرتُ بنفسي أضعف بكثير من أن أتحمل المزيد، ونقضتُ وعدي. بعد ليلة حزينة من الخدمة، وما يكفي لتغذية كوابيسي للسنوات القادمة.

— هذا لا يهم، قالت لي مسئولة الوحدة، معظم الناس لا يقاومون الصدمة.

شقّ عليّ أن أقول لها بأنّ قلبي ينقبض، وأنّ جُبنِي يثقل عليّ. الأسوأ هو أنني أعلنتُ بصوت عالٍ وقويّ لمن كان يريد الإصغاء إليّ بأنني كنتُ أفتحم ميدانَ العملِ الإنساني، عاتبةً حتى على الأكثر فتوراً لعدم بذل أيّ جهدٍ للتخفيف عن التّعساء. كفتني ليلة واحدة لأدرك بأنني لم أكن أملك رباطة الجأش والجلد الكافيين لأواجه ضيقاً آخر غير ضيقي... لعدّة أيام، قمتُ بدورة طويلة لأتجنّب واجهة تاجر الأحذية. لمجرد فكرة النظر إلى صديقيّ ألبير، الأخ في المصيبة لذلك الرجل الذي شاهدته يموت على رصيف، بسبب ليلة صيفية طويلة جداً.

في محطة سان لازار، يُبدي البؤس وجهاً جديداً. إذ تمثل في ذلك اليوم، اتّخذ في قسّمات وجه سيّدة عجوز، وتصدع ببطء إلى الرصيف. تجرّ حقيبة ثقيلة وقفّة وعصا، وكان من الواضح أن لا أحد ينتظرها لحظة وصولها. حذائها مهترئ، وحقيبتها رثة، وثيابها رمادية وبالية على صورة السنوات التي تثقل كاهلها. شاهدتها تتقدّم، شبحاً بانساً محنياً في المدة البشري النازل من القطار. أهي عائدة من رحلة أم أنّها، كغيرها، تقف في ركن معتم من المحطة؟ لا شيء يتيح تأكيد أي احتمال. كاد المسافرون يطرحوها أرضاً، وهم يتجاوزونها من اليسار ويمين اليمين، ويصدمون عصاها لدى مرورهم بها. سبعون عاماً في وادي الدموع هذا لتنتهي وحيدة، متشبّثة بامتعتها...

العالم الذي أتيتُ منه بعيدٌ عن أن يكون مثالياً، ولكنّه

علّمني احترام العجائز، ونقل المعرفة والتقاليد، ومعنى العائلة. لدي ذكرى سهراتٍ حيث كانت نساء يحملن على جباههنّ تجاعيد وقورة يتربّعن صدارة المجلس، وهنّ يروين قصصاً لم أكن أستسيغها. في المجتمعات الشرقية، لا يتمنى أيُّ كان الموت قبل أن تدركه الشيخوخة...

من جديد، أشاح البشر الأحرار بنظرهم. يوماً بعد آخر، تزداد دهشتي لقدرتهم على إشاحة وجوههم عن بؤس الآخرين، وقد تفسّر ذلك العناوين البارزة للصحف، التي يصعب عليّ أحياناً تصديقها. يبدو لي أن عبادة التزعة الفردانية بلغت خلال عشرين عاماً ذروتها.

بمشاهدة تلك العجوز التي تسير وحيدة إلى مصيرٍ يحيدُ عنه المارّة، تذهلني المفارقة اليوم على نحوٍ خاصّ. قد تموت على هذا الرصيف دون أن يقترب أحدٌ منها. في أحسن الأحوال، قد يستدعي شخصٌ ما رجال الإطفاء أو رئيس المخطّة. أهو الخجل أكثر منه اللامبالاة ما يدفعهم إلى الإشاحة ببصرهم، إلى الاستغراق في أحاديثهم، إلى حثّ خطاهم؟ كم سيكون بسيطاً الأخذ بذراع هذه السيّدة العجوز، ومبادرتها بابتسامة، ومساعدتها في حمل أمتعتها... شاهدتُ لامبالاة الآخرين، فأسبلتُ ذراعي. عاتبتُ الحشد على ما لم أفعله أنا نفسي. ولكنني لستُ بين الحشد. لا أزال لا أشكل جزءاً من عالمهم. الشبح، الشاهد الشفاف، وهو من يحكم. أبحثُ عن قوى لأجل الفعل دون أن أعثر عليها. إذا كان عليّ أن أستبقي واحدة منها، فهي قوّة التألم، قوّة الترف من الداخل.

- سوف لن يمكنك قط إيواء كل الكلاب الشاردة، قيل لي.

أعرف ذلك، لدي من الهموم ما يكفي لئلا انشغل بـهموم الآخرين. ولكن هذا أقوى منّي: الضيق يستجوبني. بل ربّما ويجذبني.

الشهية

أنا قادمة من عالم لكل كسرة خبز فيه قيمة. طيلة سنوات، لملمتُ الكثير من تلك الكسرات وحفظتها بحيث لو رادفتها في صف متواصل لرسمت خطأ بطول طريقي من هنا حتى المغرب. في حكايات طفولتي، كان بيتي بوسيه petit poucet يستعيز عنها بالحصى ليهتدي بها إلى سبيل منزلها؛ أما من جهتي، فسأكون قد أعطيت كل شيء كي لا يُعثر عليّ أبداً، كي أترك خلفي البيت الذي كان غول مُتَوَجِّح قد فرشته بالألم والمعاناة.

لا قيمة للفتات عند الإنسان الحرّ، ولا حتى للخبز الذي تنتج عنه هذه الفتات. فهو يُقطع على عجل وبلا عناية، وتُرمى قطع منه في سلة وإذ به يذهب لتزوين المائدة. في أحسن الحالات، سيُغمَس في طبق فارغ أو سيُقضم، مسقيّاً بالخردل، في انتظار وصول الطعام « الحقيقي ». الخبز هنا للتسلية، لأن الجلوس إلى المائدة يكاد أن يكون لعبة. لعبة لها قوانينها وأنظمتها ومجاملاتها البسيطة وسلال خبزها التي ستُفرغ في حاويات ضخمة حالما تنتهي الوجبة، مثلما تُفرغ منفضة سجائر.

لقد عانيتُ الكثير لأتعود على المخازن وعلى مصاطبها لعرض البضائع والتي تطول لكيلومترات، وعلى مائة صنف من الأرغفة الطويلة لخبزها، بحيث بدا لي العالم بمعزل عن الإصلاح محنة جديدة، لا مناص منها طالما أن المائدة هي محور العالم الحرّ.

كلُّ شيءٍ يمرُّ من خلالها، الصداقة، الحب، الأعمال، العائلة؛ فتناول الطعام هو جواز مرورٍ لكلِّ شيءٍ.

— سنتناول الغداء حينما تشائين، يا عزيزتي.

تناول الغداء... أي أن يجد المرء نفسه في مطعم، وسط حشد جاء هو الآخر من أجل الكلام أو التفاوض أو التحطيم أو الإغراء، أو رؤية الذات في فراغ العيون، أو توقيع عقدٍ أو الاتفاق على أمر.

مَنْ يهتم بطبقه؟ الشرهون، الذواقون، لا طائل من اللباقة، أولئك الفخوريين بدفع سعرٍ مرتفعٍ جداً لقاء «تشكيلة صغيرة» من الفضلات الكمالية تنبسط على المائدة في زخرفات يصعب على المرء أن يميّز فيها بين ما هو للأكل وما هو لتزيين المائدة. هنا جزرٌ مقطّعٌ على شكل دوّارة الرياح من قبل فنانٍ حقيقي... هناك، كمية من الصلصة مثيرة للاستفهام، دقيقةٌ للغاية بحيث يُعتقد أنها منسوخة بعناية من قبل معلّم ياباني. ما الداعي للخضار الدقيقة المعدة على شكل نجمة أو الورقة الطويلة التي تزيّن كلّ شيء؟ الأمرُ عصيّ على القول. وإذا تتابني الحيرة، سادع الكلّ في زاوية من الطبق. لأنّ «المطبخ الكبير الجديد» يدعي أكثر حيرة من المطبخ الصغير.

الطعام في "المطبخ الكبير" فخري وشرفي، ولكنّه مثيرٌ للسخرية أيضاً. وإذا كان، في خمّسة الزاوية، هو ذريعة للانصراف إلى الثروة، فإنّه، في المطاعم الكبيرة، يتيح للأكثر ثراءً أن يخلدوا إلى مراسم هبة حقيقية. أنظر إليهم يتخذون

أوضاع متكلفة، ويستغرقون في قائمة الطعام بهيئة شاعر متأمل. «مقارض الزيزان البرية (أو المتوحشة)، عصير الكرّكند المعصور بالهليون الأخضر، وتفاحتها الصغيرة الجديدة من زيلنده بقشرة ملحية». يجب انتظار مدير الصالة ليأتي ويجلب لي طبقى باحترام وتقدير كما لو كان يحمل طفل الله وهو يحمل: «ثلاث فطائر صغيرة من الزيز البحري مع قليل من الصلصة والبطاطا».

بلقمة واحدة، سيتلاشى هذا الزيز البحري. وسيُضاف إليه الطباق الأول والجبن والحلوى والخمر والقهوة والهاضم، لتبرير فاتورة حساب فلكية. مائة وخمسون يورو للشخص الواحد، وربما أكثر (لم أر الأسعار سوى بطرف عيني؛ إذ لا يُعطى للنساء سوى قائمة طعام بلا أسعار). بماذا يقات فوج من هؤلاء SDF (من لا مأوى لهم) الذين ينامون على بعد مائة متر من هنا، والذين سيقنعون بطعام بلا مواصفات، لا برّي، ولا جديد ولا صغير.

ولكن الأكثر غرابة يبقى هو الوجبة قبل الوجبة... أثناء الاختيار من القائمة (لأبد من الاعتراف بأن رؤية الأسماء التي لا تنتهي لكل طبق، جعلتنا نقرأها بأسرع من قراءة الكتاب المقدس)، جلب لنا النادل صينية من المسليات، مغطاة بقطع صغيرة من المعجنات والحلوى واللحم الصغيرة. يوجد عليها كل ما يمكن تصوّره بل وأكثر، بنماذج مصغرة، كوجبة عيد في بيت للدمى. سمك، لحم، كعيكات فاكهة مملحة، قشدة، رغوة،

صلصة، خضار، قريدس، عجينة موزقة، عجينة مقطعة، عجينة بيتزا. كل هذا على صينية من فضة.

طيلة عشرين عاماً، أكلت لأبقى على قيد الحياة. في سجننا، كانت الفئران والجُرذان تأكل حينما تجوع، ولكن ليس نحن. لقد اعتدنا، بالقوة. وما عدنا نأكل لتسلي، أو لتبادل الرؤى حول العالم.

بلا خطورة، وبلا قلق. بينما كان الناس الأحرار يساومون حول قطعة لحم من الضلع، كان لنا، عائلتي وأنا، الحق في لتر من الزيت شهرياً، وشمعة واحدة لكل شخص، واثنى عشر بيضة لكل خمسة عشرة يوماً. اثنا عشر بيضة فاسدة متعفنة، شكّلت لأمدٍ طويلٍ كترًا مطبخياً بالنسبة لي...

بالنسبة لمن ينضد البيض «الحوي» في عربة أو يطلب طبقاً من عجة البيض على رصيف مقهى لا فلور، يكون مبدأ التعفن نسبياً تماماً. فبالنسبة لي، لا تكون بيضة فاسدة حينما تتجاوز رسمياً تاريخ صلاحيتها، بل حينما تظهر على قشرتها، التي طالما عرفها الناس الأحرار بيضاء أو شقراء، طبقة مخضرة. طيلة عشرين عاماً، لم أعرف البيض إلا بهذا الشكل، كدت أن أنسى أنه كان فاتح اللون... أخي الشاب، الذي كُبر في السجن، لم يرَ أبداً قبل إطلاق سراحه اللون الحقيقي لبيضة. لم يكن بيضاً أصفر ولا أبيض، وإنما أسود كالحبر، كعتمة الجحر الذي كنّا نتعفن فيه.

ولكوني مكلفة بإعداد الوليمة التي كانت تزين، كل

خمسة عشر يوماً، مائدتنا المشتركة، كنتُ أكسر ليلاً قشور البيض المخضرة لأدع السائل الأسود يتزل في قصعة. كانت تفوح من تلك العجة الكابوسية رائحة نتنة تنتشر شيئاً فشيئاً عبر الليل، بما يكفي ليصبح ذلك البيض، الذي لن يُطعمه أحدٌ لكلبه مخافة أن يتسمم بها، قابلاً للأكل. وهكذا بتغطيس قليل من الخبز البائت في الخليط، وبإضافة قبضة من الحليب المسحوق وقليل من السكر وملعقة من حساء الزيت إليها، كنتُ أعدُّ نوعاً من «الحلوى»، فطيرة ضخمة مشوّهة كنا نستلذ بها. كانت رائحة القلي التي تعلو الزنازين عيداً لنا، كانت تساوي في نظرنا كل الزيزان البحرية في الدنيا.

أما الخبز، فكنا ننظفه بدقة خلال جلسات تنظيف مطوّلة حيث كنا نحاول تخليصه من طبقات العفونة ومن بعر الجرذ أو الفأر، حسب الأيام. لأننا كنا نخفي ذخيرتنا من الخبز تحت بلاطة، بمنأى عن جولات التفتيش اليومية، وبذلك يمكن تسمية الجُحر التراي بالمنخبأ حيث كانت الجرذان تأتي لتنازعنا عليه، ملوثة إياه ببولها، وقاضمة ما كان بوسعها. مثل البيض، كان أسوداً... إن الألوان الفاتحة بخصوص الغذاء هي، كما أعتقد، دليل على الحرية. كانت كل قطعة، كل كسرة منه نفيسة لأنها كانت تزيد ذخائرنا. كان ذلك مخزننا الكبير الخاص بنا، مطبخنا الكبير والصغير، حسب المقادير التي نتزوّد بها. اليوم أيضاً، وبعد مضي كل هذا الوقت، أغضب لرؤية أناس، منخرطين في أحاديثهم، يصنعون تلقائياً كُريات من لبّ الخبز تنتهي مرمية في المنفضة. كم شخصاً منهم، ما أن يفرغون من لبّ أول قطعة خبز، يتناولون سواها دون التفكير في تحويلها كلّها إلى فتات، دون وضع قطعة صغيرة منها في أفواههم؟

النظرة المشدوّهة التي ألقياها على كلّ واحد وعلى كلّ شيء لا يمكنها أن تكون موضوعية طالما أن المقارنة ستُجرى مع ماضيّ أنا. ولكن ماضيّ يشغل أغلبية حياتي. وحياتي بين هؤلاء الناس غير مفهومة. إلى متى سيعكّر ردّ الفعل هذا صفائي وحلمي؟ في السجن، كان أمل الوصول إلى العالم الحرّ يستحوذ عليّ. الآن في العالم، أبحث عن المفرّ... والأمل.

المرأة التي أجرت مقابلةً معي تبلغ الأربعين من عمرها، أو ربّما أكثر. أصرت على أن نتكلّم على المائدة لأنني كنت قد عانيت من الجوع طيلة عشرين عاماً.

- سيكون لقاءنا على الغداء أكثر متعة وألذّ، قالت لي عبر الهاتف، بينما لم نكن قد التقينا أبداً من قبل.

ألذّ وأكثر متعة، كلمة قوية بعض الشيء، لأنّ الصحافية ما كادت تصل حتى عبست أمام قائمة الطعام، وتذمّرت لأن بيتزا التونة ليست بسمك الأنشوا*، وتمنّت لو أنّهم يستبدلون لها الفليفلة بالبصل، لأنّها لا تحبّ الفليفلة، على الأقلّ المشوية منها - لا بأس من النيئة أو المملّحة؛ أرادت أن تعلم إن كنت أحبّ الفليفلة المشوية. ربّما ستُضمن ذلك مقالتها. بدأت أفهم لماذا لم أقرأ جريدتها أبداً.

مرّت ما يقارب عشر دقائق من التفاوض مع النادلة، التي لم تكن متيقّنة من الفليفلة، وسيكون عليها أن تسأل الطاهي...

- في المرّة الأخيرة، لم تكن البيضة ناضجة بما فيه الكفاية،

* نوع من السمك المقدّد

أضافت الصحافية. إنَّ نوع الشيء هو ما يجعلك مريضة لنهارٍ كامل.

- لا تقلقي يا سيّدي، سأبلغُ هذا للمطبخ...

- آمل ذلك!

والآن تتخذني شاهدة، وتردّد بأن بيضة نيئة تثقل على المعدة، وطلبت موافقتي ولما لم تنلها، انتقلت إلى أمرٍ آخر، ثائرةً لغياب المنفضة، ولكون مياه بيريه فاترة وهذا مساً لا يُغفر. أتريد مكعبات من الثلج؟ كلاً، لا تريدها، إنها تعطي طعاماً غريباً.

- فلتحدّث عنك، قالت لي فجأة، بنبراتٍ عالمٍ نفسياني.

تحدّثنا عني، بينما هي تشرّح البيتزا بتقزّز. بعناية فائقة، فرزت، وضعت جانباً الحواف (السميكة جداً)، البيضة (الناضجة جداً هذه المرّة) حبّات الزيتون (التي تستغرق إزالة نواتها وقتاً طويلاً) وبعض حبّات الفطر التي لم تكن تستسيغها. اعتذرت:

- لا أفهم، عادةً ما تكون لذيدة جداً.

وافقتها على أمل أن تغيّر الموضوع. ولكن إذا كان الأمل يُحيي، فإنّه غالباً لا يصنع المعجزات.

- هذا مستحيل، لا بدّ أن صاحب المطعم في عطلة.

لم أستطع منع نفسي من النظر خلصةً إلى طبقها، وأرى فيه الكويمات التي كانت تديرها في الطبق بشوكة وهي ساهية:

تلك التي ستذهب إلى حاوية القمامة، وتلك التي تغرف منها بين الفينة والأخرى لتغذى، وثالثة قيد الفرز، التي تمون الاثنين الآخرين. للحظات، زاغت بأبصارها عني لتحكم بالتشريح؛ فلكل جزء مصيره الخاص. حبة زيتون؟ إلى الحاوية. عرق طويل من جبة موزوريلا؟ في الكومة « المخصصة للأكل ». إنه أمر لا يُصدّق ما يمكن للبشر الأحرار أن يفعلوه بطبق بسيط من البيتزا...

أما طبقي من البيتزا، فلم ألمسه أو أكاد، شعرتُ بأنني لستُ على ما يُرام، مركونة جنباً إلى جنب مع زبائن آخرين يتكلمون بصوت عال ويضحكون ويشربون ويدخنون. قلّ الهواء من حولي ولم أستطع منعي من التفكير بكلّ ذلك التبذير، بكلّ ذلك الطعام الذي سيؤول إلى حاويات ضخمة للقمامة، بكلّ تلك الصحون الذاهبة إلى الفرز من قبل زبائن يستسيغون هذا ويعفّون عن ذاك، زبائن لا يعرفون معنى الجوع، فيجدون البيض غير ناضج.

دفعت الصحافية جانباً صحنها المليء ببقايا العملية المفتوحة على البيتزا، قبل أن تعلن بأنّها لا زالت جائعة وتشتهي « تحلية صغيرة ».

- تمام؟ سألت النادلة.

- ممتاز، ردّت الأخرى، التي تكلمت، في نصف ساعة، عن البيتزا خاصتها أكثر مما تكلمت عن سجن.

ثمّ توجهت إلي:

- حلوى (كريم بروليه) عندهم رائعة.

لم آخذ تحلية. كما أنني لم أكن جائعة لدى وصولي، ولأنني لستُ ممن يمكنهم تناول الطعام دون جوع... فلا بد لي أن أحسّ بتشنجات المعدة، وأشعر بالدوار والخواء قبل أن أجلس إلى المائدة. لأتناول الطعام، لابد لي من أن أكون في حالة حرمان منه، مثل مدمن. الشيء الوحيد الذي ينقص البشر الأحرار الذين أشكل جزءاً منهم الآن، هو بالضبط الحرمان. ولكنني كنتُ أنسى بأن ليس لديهم الوقت ليكونوا محرومين.

للمرة الأولى، أدركتُ أن حدة حكمتي قد هدأت. ربّما أنا الآن على السكة الصحيحة... ذات يوم، سأجيد فهمهم، بل وربّما أدافع عنهم. ربّما. ذات يوم، سيلقي عليّ شبح ذات النظرة التي ألقيا عليها عليهم. إنها مسألة وقت. هذا مضحك، تُحال المسائل دائماً إلى الوقت...

آنذاك، فكّرتُ بروية، في طعم البيتزا ذاك... وددتُ لو آخذ كل شيء إلى البيت، ما لم آكله وما لن يأكله الآخرون. فالتخزين يبقى عندي فطرة ثانية. كل تلك الصحون نصف الفارغة المحكومة بالرمي في الحاوية أيقظت في داخلي غريزة حيوانية. لقد أصبحتُ كالسنجاب، أكوّن، يوماً بعد يوم، مدّخرات لعهود الحرمان. والحال أن تلك العهود لن تأتي أبداً، على الأقلّ في الوسط الثري الذي أعيش فيه. وهكذا تنتهي مخزناتي المخفية في زوايا البرّاد أو قاع الخزائن، عاجلاً أم آجلاً، إلى الحاوية. المواد المخفية، النصف قطعة من حلوى كيش، ما تبقى من سندويش، الخبز بالزبيب المخدوش، بقايا العجين، كلّ

ما خزنته بعناية ولا يُسمَحُ لأحد بمسّه. هذه المؤن ملكي أنا! ليس لأحد الحقّ لا في التصرف بها ولا في رميها؛ فهي مخزّنتي، مؤني تحسباً للشتاء.

- أرجوك، ارمِ بقية البطاطا المقلية هذه، قال لي إيريك متوسلاً، إنها تتعفن إذا أعيد تسخينها.

رفضتُ بشدّة، وأنا أعلم مع ذلك بأنّ مصر البطاطا المقلية خاصّتي محسوم. التخزين أقوى منّي. بعد ذلك ببضع سنوات، سأكتشف الولايات المتّحدة، فردوس السناجب ذاك حيث يختصّ كل شخص وهو يحمل الـ « doggy bag » خاصّته حقبة قلّما تكون، رغم اسمها، مخصّصة لإطعام الكلاب.

في بيتي أيضاً، أعاني أمام صحن من نفس الحاجة لعدم إفراغه تماماً، للإبقاء على شيء يسير سيزيد مدّخراتي. لا أرمي شيئاً، فالرمي تمزيق.

كلّ يوم، أرى مجموعات من المراهقين عند خروجهم من مطاعم الوجبات السريعة، وأذرعهم محمّلة بأكياس ورقية مليئة إلى حوافها بكلّ شيء وبأيّ شيء. الماك الفلاني، والتروك ماك، يأخذون منها أكثر ممّا يحتاجون، ويضيفون بعض اليوروات للحصول على وجبات « ماكسي » والكوكا بالحجم الكبير، والبطاطا المقلية المنفوشة، والتشيزبرغر الإضافي. إمّا أن ينهوها أو لا يبالون بها أبداً؛ فنظراً للفارق الزهيد في السعر، كثيراً ما يؤخذ كلّ ما هو بالجملة ويرمى كلّ ما هو فائض. علاوة على ذلك، حينما تحقق للمرء شطيرة مجانية، يكون مبدأ العصور

الحديث هو التالي: هذا عرض؟ سأخذه إذاً. رغم احتمال رميه. ورغم احتمال تعفيره. يشعرون بارتياح بالغ من رؤية أي شيء يقدم لهم مجاناً، من ألا يضعوا أيديهم في محافظهم، لدرجة أنهم قد يفضلون الموت على أن يرفضوا عرضاً. مع أن ذلك الرفض هين على القول، وقد قلته بنفسى: «كلاً شكراً، لست جائعة بما يكفي لتناول التشيزبرغر الإضافى.» ونظراً إلى كحيوان فضولى.

- خذيه، إنه ضمن الوجبة على كل حال.

رأيت وجبات هامبورغر بالكاد قُضمت، مرمية في الحاويات أمام مطاعم الوجبات السريعة، وشطائر لم يُقطع منها سوى لقمة واحدة لتذوقها، قبل تركها هناك. والغريب في الأمر، أنه حتى (من لا مأوى لهم) SDF لا يقربونها. نظرت، حائرة، إلى الناس الذين يتضورون جوعاً ولكنهم يرفضون التقاط وجبة هامبورغر مخدوشة، وكأنها تحمل كل فيروسات العالم. في وقت ما، كانت هذه الشطيرة نفسها، مقضومة أو غير مقضومة، لتشكّل بالنسبة لي وليمة حياة... حتماً نعيش في مملكة التبذير، التي حتى بؤساءها يشمئزون من الطعام. ولكنّه صحيح بأن من لا مأوى لهم يشربون النبيذ أكثر مما يأكلون... وذلك ليتخذروا، ليتدفقوا، ليبلغوا اللذة من الباب الضيق.

الخمار، سوف يقولون لي. إنها مهنة مستقلة تماماً، بالإضافة إلى أنها ليست في متناول الجميع.

آه حسن...

إلى ذلك، أدركت سريعاً حقيقة أن SDF ليسوا
الوحيدين الذين يشربون؛ ففي المسرح الغنائي الكبير، يأخذ
الكحول الدور الأول على الدوام. أياً كانت المائدة، من مطعم
فطائر الحي وحتى لو غران فيفور، تناول الطعام يعني احتساء
المشروب. بين المشروب الفاتح للشهية، والبيذ والبيرة
والهاضم، يُغمرُ أيُّ غذاء بالكحول. وجبة بلا كحول تُعتبر
كثيبة؛ لم أفهم بعد بماذا تكون وجبة مروية أكثر هناءً إلى هذا
الحد، ولكن لو كنتُ قد فهمتُ ذلك، لما عدتُ سجينة مُطلقاً
سراحها بلا معالم ولا جذور.

البيذ، على نحو خاص، يتركني في حيرة من أمري. فهو
يُراقب، ويُرتشف، ويُنظر إليه بشغافية، ويُعثر فيه على نكهة
هنا، وعلى نغمة هناك، يُعتقد بأنه ممتاز مع السمك، أو
مضحك مع الحلوى. يلزم قاموسٌ لجدولة أوصافه، وشهادة
بوليتكنيكي للفراغ من دقائقه. ولأن كل إنسان حرّ لا يودّ
الاعتراف بجهله، في أيّ مجال كان، يغطُّ أحدهم أنفه في
الزجاجة ليُدلي بتعليقه القصير على البيذ. بشكل عام، يُسكب
القليل من البيذ في قعر الكأس قبل تقديمه للرجال. لابدّ من
تحريك هذه القطرة في قعر الكأس لسبب أجهله، وشمها بعمق،
ومن ثمّ احتسائها، بتمرُّز، واتخاذ هيئة وقورة وموحية. ثمّ يأتي
التعليق، الذي ينتظره كل من على المائدة وكأنّها كلمة النبي.
إنّه جيد. لم يفحُ بالرائحة بما فيه الكفاية. له رائحة الكشمش.
إنّه مجفّف. إنّه لاذع. إنّه فاتر. إنّه ممتاز. إنّه أقلّ جودة من المرّة
السابقة. وسيوافق الأكثر رزانة بهزّة من الرأس، وهو الرضا

الصامت الذي كان النادل ينتظره، مزروعاً وقارورته في صمت ورع. فيما يبدو لي، إن نتيجة طقوس الترحاب هذه هي دائماً ذاتها: يُقدّم النبيذ ويُشرب. لم أر قط قارورة تُرفَض، ومع ذلك، بقي ذلك الطقس متبعاً.

ما أن تنتهي كل هذه الحركات الاستعراضية، يُزْدَرَدُ المشروب النفيس دون أن يُعار أدنى اهتمام، جُرعة مع السلطة، وأخرى أكبر مع لحم الفخذ، وفي كل مرة فرغ كأس، يُملأ لي دون أن أسأل إن كنتُ ظمآن.

لا أهمية للظماً والجوع، فالمسرح اليومي للمائدة يُقدّم ظهراً ومساءً المسرحية ذاتها، والتي نأخذ فيها دوراً أعقد بكثير مما ينبغي. وإذا كان لابد من إسناد ذلك الدور لي، كنتُ سأحيله دوراً بسيطاً؛ أن يأكل المرء حينما يجوع ويشرب حينما يعطش، الأمران اللذان، على علاقتهما، بدوا لي لزمانٍ طويلٍ نفيسين.

ككلّ المقتلعين عن جذورهم، انبهرتُ بجذور الآخرين، إلى درجة أنني أحسد أحياناً الباريسيين الذي ألتقي بهم، والذين أكبر مغامرة لهم هي أن يغيروا الدائرة التي يقيمون فيها. لا شك أن هذه الطقوس الموروثة من التقاليد تجري بسهولة بالنسبة لهم. الخبز والنبيذ، هم ثديي فرنسا هذه التي يشقُّ عليّ كثيراً أن أجد نفسي فيها...

المائدة الوحيدة التي استمتعتُ بها حقاً منذ إطلاق سراحني (إذا أمكن إطلاق تسمية مائدة على حصيرة مفروشة مباشرة

على الأرض) هي في صحراء الأطلس. هناك في الصحراء،
يقتاتُ بدوٌ ضنينون بالكلام في صمتٍ على حفنة من البلح،
ويبدو لي أنهم قد فهموا كلَّ شيءٍ بحسِّ الحياة. أنا، ابنة البربر
وحفيدتهم أشعر بنفسي أكثر هناءً وسعادةً في الزهدِ في المأكَلِ
من أن أكون في طقوس العربدة العيشية.

أشعرُ وكأنني أيضاً بدوية مثل أهل الكُثبان أولئك.
فليعطوني قليلاً من الماء، وبضع حبات من البلح، وشيئاً من
الرزّ أيام العيد؛ وسأكون أسعد امرأة في العالم.

الكتابة شهادة على حياة

النجاة. كنتُ مذنباً بالنجاة. إثمٌ غريب. وحدها إمكانية أن أدلي بشهادتي، أن أقول للعالم أجمع بأن المغرب لم يكن في الحقيقة تلك الديمقراطية التي يساندها الغرب، وخاصة فرنسا. لابد أن تُكشفَ هذه الهمجية المقنعة بالملكية للجميع. إذ يمكن لرواية حقيقتنا، التي شاركت في الكشف البطيء عن مصير السجناء السياسيين، أن تساعدني في الماضي قديماً. بكتابي لرواية السجينة، التي لم يكن بوسعي تقييم مستوى نجاحها بالتأكيد، كنتُ أعزم الماضي، كنتُ أتحَرّر منه جزئياً، ولكنني أيضاً كنتُ أعاني من عبء دور محدد: دور الضحية. إذا شاء المرء أن يرى الأمور بتفاوت أكثر، لا يزال صدى كلمات أوبرا وينفراي يرنّ في أعماقي: «لقد ولدت لتكوني رسولة.» لقد قضيت وقتاً طويلاً حتى أطلقت رسالة، وقد حرمني ذلك أحياناً من أن أعيش حياتي. منذ أن حصلتُ على آدم، عرفتُ بأنني تخلصتُ من أن أكون ضحية. ولّى الماضي، وأصبح المستقبل يعني.

الكتابة. لسنوات طويلة، كتبتُ دون كتابة، لانعدام الورق والقلم. حفرتُ كل كلمة في ذاكرتي، تحسباً ليوم قد ألدها فيه من جديد، بعيداً عن السجن. قطعاً. على ورق حقيقي، وبقلم حقيقي. بحيث أعطي أخيراً حياة مادية للكتب المترددة المتطايرة في داخلي. نضج كل واحد منها بأناة، على

مدى عشرين عاماً. فهمتُ منها الكثير، قصصاً، وأقاصيص، وحكايات، ومراسلات، مقاطع من حياتي وحياة الآخرين... تعلّقتُ بكلِّ واحدة من تلك القصص، بكلِّ شخصية فيها، بكلِّ لغزٍ يكتنفها، وبكلِّ خاتمةٍ تنتهي بها.

كان من الطبيعي أن تكون من بين أولى المتع التي انسجمتُ معها، متعة زيارة معبدها المقدّس: المكتبات. وما أكثرها في باريس. ولكن، في العالم الحرّ، ها هي الكتب بنفسها قد تغيّرت.

دخلت صدفةً، متظاهرة باللامبالاة، إلى مكتبة ضخمة على الضفة اليسرى وطلبتُ كتاباً بنبرة مازحة. ماذا كنتُ أتوقع؟ ربّما مكتبة أحلامي، محلّ جميل بألوان نضرة، ورفوف من خشب أصهب، ومكتبيّ بشوش، يكون قد قرأ إلى آخر سطر كلِّ عملٍ يعرضه على رفوف المكتبة. رجلٌ بشعر أشيب يكون قد عرفني، وربّما سيكون قد علّق بدقّة وكفاءة على مزايا وعيوب شهادتي. لا أدري إن كان المكان موجوداً قبل ولادتي الجديدة، أم إنّه ليس سوى ثمرة خيال ممسوس بالمقدّس. يبقى أنّه لا بدّ من البحث جيّداً على الطاولات. المكتبيّ المثالي موجود، ولكن لديه الكثير مما ينبغي فعله، غارق تحت عبء الإصدارات الجديدة والضحايا اليومية، والنائحين والمتعجرفين. هل أنا في حالة منافسة؟ للأسف، نعم. لا أريد أن أبيع مصيقتي، ولكن قانون السوق هو الأقوى. علي أن أبلغ مكانتي. الكتبُ في كلّ مكان وليست في أيّ مكان، فالعرض فائضٌ بكثير عن الطلب.

كم هو عددنا نحن الذين نشهد ونروي ونضحّي
ونكشف عن آرائنا؟ أمتنع عن الإحصاء.

الكتب كبقية الأشياء: ثمة الكثير منها، يختار المرء حيالها.
فليس هناك من سياسيٍّ أو مسرحيٍّ أو شخصية عامةٍ إلا وكتب
مذكراته أو أفكاره أو رؤاه أو مختاراته المفضّلة من الأغاني
الفرنسية أو ألبومه للصور العائلية. أكاد أشعر بالخجل من
الانضمام إلى هذه النخبة: لقد دخلت شهادتي ضمن الكمية
التي لا يمكن الإحاطة بها من الإصدارات الجديدة.

قلتُ في نفسي، حانقةً، إن ألمي فريدٌ من نوعه. من
سيملك الجرأة على أن يأخذ عليّ؟ إن ترجمة هذا الألم هي
التجربة التي تتطبّب القوة. ومن جهة أخرى، كان ابتكار هذا
الكتاب ولادةً، مزية. تسعة أشهرٍ من العمل، إلى جانب
صديقتي الصحافية ميشيل فيتوسي، أفضت إلى حكاية لا أنجح
في إقناعي بأنني بطلتها. تسعة أشهرٍ طويلة وقاسية، كنتُ أنظر
خلالها إلى الأمام، دون أيّ التفات. لثلاث مرات في الأسبوع،
رويتُ لميشيل أيام العزّ والشقاء. تكلمت بلا حدود، بلا
محذور، بلا تنفّس. بدأنا أحاديثنا بالخوف من أن نكون
مراقبتين، وأودعنا تسجيلاتنا حالاً في مأمن عند الناشر،
وكأنها ستكون سرّية. أكان ذلك ذهاناً هذياناً؟ ربّما، ولكننا
كنا مقتنعين بأنّه يتمّ التنصّت على هاتفينا. كانت بيننا رموز
سرّية: «الطاجن» أو «الوصفة» كانتا تعنيان بأننا سنستأنف
العمل معاً. سكوت! الأذان المعادية تنصت إلينا. بعض المشاهد
المخجلة، التي نسيها أنا بنفسني، طفت على السطح. ذكرتُ

للمرة الأولى طفولتي المزدوجة، المتواطئة مع الطغيان، والخدمة له. انفتح القصر الملكي لأحلامي كغلبة بندوق*. وهكذا، ألم يكن معلّماً للقرآن، الشيخ ذو الهيئة الشامخة، الذي كان يرغمنا على تقبيل يده، ذلك الرجل الولي الذي كان يؤمن بالجنّ ويقرأ السور القرآنية، هو أول من نظر إليّ كامرأة؟ إلى أيّ مدى ذهب حينذاك؟ أحتفظ منه بالإحساس الغامض والخجل لرجل أثارته فتاة صغيرة في الثامنة من عمرها. دعّني ميشيل، سرّاً، أن أستشير عالماً مختصاً بالجنس. الذي سيُفهمني الحقيقة، المكبوتة، الحبيسة. إلى هنا تعود مخاوفي المسبقة من العلاقات الجنسية، المقرونة بفكرة الهيمنة. طبعاً، أتذكر ذلك، ولكنني أردتُ أن أنسى.

بعيداً عن شعوري بالتخفّف من خلال شهادتي، يتنامى الخوف الذي يصاحبني منذ أربع وعشرين سنة خلت: الخوف من الانتقام، الخوف من جلاّديّ، الخوف من عنادهم في حرمانني الأبدي من ركنٍ منير، الخوف على أهلي، الخوف من الحياة. عبثاً أجد نفسي بعيدة عن سجنائيّ، في منجى تام خلف ترس وسائل الإعلام، يبدو لي أنّ كلّ شيء قد ينقلب في رفّة جفن. ممّ أخاف، واقعياً؟ أخاف الكثير من الأشياء كي لا أجد فيها سوى سببٍ وحيد. بعض الأهوال راسخة في داخلي عميقاً جداً بحيث تعصى على المنطق. أستيقظ أحياناً في منتصف الليل، في ساعات باهتة، حيث لا يعرف المرء تماماً إن كان لا يزال يحلم، معتقداً أنّي أسمع وقع خطي على الدّرج، وصرير باب

المدخل الذي يفتح، وسجّانين خارجين من جهات مجهولة، قادمين يبحثون عني لأقضي مزيداً من العقوبات على جرائم لم أرتكبها. لا شك أن البراءة تولد إثماً الخاص، تولد في ذاتها وفي نظر الآخرين الشبهة.

إذا، اخترت بوعي تام أن أعود إلى الجحيم، أن أقود ميشيل إلى كسر هذا الباب الذي اقتضى مني أربعة وعشرين عاماً لأجتاز عتبه. أنا بلا هوية أو أكاد.

في اللحظة التي أبدأ فيها بالاعتراف، لا أعود أعرف من أكون. لمن أستطيع أن أبوح: كلاً، لم أحلم بأبي، لقد حلمتُ بالحسن الثاني. حينما كنتُ أستيقظ، كان يعتريني الخجل والعار. لم أكن أستطيع مشاطرة ذلك مع أهلي: سوف لن يفهموا موقفني. لم يكونوا قد تربّوا في القصر، مثلي. وكنتُ قد اقتنعتُ أحياناً بأن الملك لم يكن جديراً، وبأنه كان قد عجز عن الوفاء بمهمته كأب متبنٍّ وحام، حينها أكون قد كرهته! كانت ميشيل، المختلفة عني جداً، تجيد إعادة الثقة إلي، وامتصاص تلك المشاعر المتناقضة، كمولدة كلمات. كانت شرقة أحتمي بها، ملجأً كنتُ أصل إليه أحياناً محبّطة واهنة العزيمة. كنّا نشرب شايًا وكان الطفلان، ليا وهوغو، يقاطعانا بفرح. كانت الحياة قد انتشرت من حولي، تشيع نواة عزلة.

أحياناً، كنتُ أصل، مسلوبة الشعور بالاتجاه أو بالوقت، إلى بيت ميشيل متأخرة، مغيظة لأنّ باب بيتها يكون قد غيّر مكانه، أو أن موقف الحافلة كان قد غيّر جلسة من شارع إلى آخر. حينذاك، لقّبتني ميشيل « مونغوليتا ». « أوقفني

أوفقيرياتك»، كانت توبّخني بابتهاج. كنتُ أتكلّم كثيراً، دون إعطاء الإيضاحات المتعلقة بالحدث والتي كانت ميشيل توليها أهمية؛ فكانت تقول لي، بين الابتسامة والشوران: « Only facts ». كانت تعرف حالتي: كنتُ قد فوجئتُ بحادث غير متوقّع. كنتُ مرّيجّة عابرة سبيل. مع ميشيل كنتُ أضحكُ أيضاً، إلى أن تجري دموعي، باستحضار ما كنّا قد عانيناه في الإبقاء على روح الفكاهة. أحبّ الضحك ولكن لا بد من شخصين على الأقلّ لأجل ذلك. هذا الكتاب مثلاً، كنّا نبتكره لكي أتوقف عن أكون ابنة الجنرال أوفقي، الضحية، كوزيت السجينة، الأميرة المقتلة من رقاد القصر. كنتُ في حاجة إلى أحد ما، لأنني، بمفردي، لم أكن لأنجح في ذلك. مع ذلك، كنتُ قد حاولت الكتابة، لمئات المرات، من خلال مقتطفات، ولكن كان من المتعذر تجاوز العقبة.

ميشيل امرأة ماهرة، ناضجة، وهي صحافية ملتزمة وروائية وناشرة لأعمالها، أمّ لطفلين ناجحين. ورغم مسيرتها الصاخبة حينما كانت في سنّي، فقد ألّفت حياةً وحقيقةً، في انسجام كامل مع ذاتها ومع خياراتها ومع أنوثتها. لديها كلّ ما أعده. إنّها تلك التي كان يمكن لي أن أكونها في ظروف مختلفة.

بعد الكتابة، كان النجاح. نجاح فرنسيّ أولاً، وأوروبيّ ومن ثمّ أمريكي، أي نجاح عالمي. حينما كنتُ أصل إلى دار ناشري في شارع سان بير، كان باستطاعتي أن أقضي ربع ساعة أمام الواجهة: كنتُ أرى كتابي، تتوسطه صورتنا نحن الستّة،

الأطفال في ريق العمر، عینوهم داکنة. لم یغیرنی النجاح، بل على العکس من ذلك، ولكنه أخرجني من الخفاء. القراء، ردود الأفعال، المؤتمرات، كان کل شيء يأتي بلا ترتيب، أمواجاً من الأیادي الممدودة. أجاء ذلك بعد فوات الأوان؟ لماذا لم يستجب کل هؤلاء، من کاتب افتتاحیات، ورجل سياسة، وحركة نسائية محتكة، مبکراً، حينما کنا بحاجة لهم؟ نعم: لماذا؟

بالتفكير العمیق بذلك، لا أدري حقاً ما الذي أثره لدى قرائي: أهو تعاطف، أم مجرد نزوع إلى المعلومة، أم فضول، قليل من التلصص الحاني الذي يساعد الناس في أن یقارنوا مصائبهم بمصیبتی. في صالونات الکتاب، بينما كنت خلف طاولتي الصغيرة، كان کل واحد يأتي ويحتك بمصیبتی. في مونبلييه، لا زلت أذكر رجلاً مغربياً مسناً، أخذ به الحنين إلى ما كان یعنیه لقب أوفقی، أهديني سجادة! في مدينة أخرى، كان الناس یسألونني، وكأنني الأم تریزا، كانوا یطلبون الوصفة السحرية للتخلص من الشقاء، التعویذة المضادة للشقاء. وفي مدن أخرى أيضاً، كان ضحايا آخرون لأنظمة أكثر فساداً ینازعونني في لقي كبطلة! متى سیفهم أني لا أشارك في ماراثون للألم؟

هذا النجاح، لا أنظر إليه ککاتبة وإثما کامرأة؛ فأنسا أعرف أفضل من أي شخص أن کتابي قد یتحول فیلماً أو ريبورتاجاً أو مقالة في صحيفة. هذه شهادتي المهمة، وإذا كانت

تثير ضجةً، فذلك لأنها تكشف أهوال سلطة شمولية والقسوة الهائلة لملك. حاولت - وان كنتُ نهب القلق والرعب - أن أستلذ بانتقامي. شعرتُ أنني قاتلةُ ملك، آملةٌ لو أن الحسن الثاني قد حظي بالوقت الكافي ليقرأني قبل موته. حتى وإن لم يقرأني، ما كانت مخبراته السرية لتخلف عن إعلامه بأن تلك التي اعتقد بأنه أفناها إلى الأبد تُسمعُ صوتها للعالم. بالمعنى الحقيقي مثلما هو بالمعنى المجازي.

للمرة الأولى التي عبرتُ فيها عن آرائي أمام الجمهور، أبعد من الكلمات، مذهولة - كتمثالٍ حقيقي - كنتُ مفتونةً جداً بسحر أن أسمعَ صوتي للناس.

بدا لي صوتي، وهو يسير في مكبرات الصوت، غريباً، رناناً، دون أن أعتبر بأنه صوت طفلة مرتجفة خجلاً. التوت يداي في كلّ الاتجاهات وانعقدت معدتي. ولكن السحر فعل فعله بعد كل حساب. أصاخ المستمعون السمع إليّ، بصمت مطبق، منجذبين نحوي لدرجة أن انتباههم كاد أن يكون محسوساً. استمعوا إليّ. نظروا إليّ. احترموني. وولدتُ من جديد. استعدتُ وجودي. ومع ذلك كنتُ نفس تلك التي جرى تجاهلها بشموخ طيلة شهور. دبّت الحياة فيّ، كلمة بعد كلمة. ماذا هناك أكثر إدهاشاً للإنسان من ذلك الإحساس بالعودة إلى الحياة، بإطلاق صرخته الأولى في الرابعة والأربعين من عمره، وخاصة، بأن يكون مدفوعاً بفكرة البدء من جديد؟ لأنني لا أكمل، وإنما أبدأ.

أنا ممتنة لكلّ القراء، لكلّ هؤلاء الجاهولين الذين منحوني

فرصة أن أروي قصتي. الآن أيضاً، وطبعاً في المغرب، يحدث لي أن ألتقي بأناس يتسمون لي، يتقربون إليّ، ويقولون لي ببساطة: شكراً. لا أدري ماذا أقول، ولكنني مازلت متأثرة، وكأني المرة الأولى والوحيدة.

تالت البرامج، ورغم كلامي الذي بقي في العمق هو نفسه، إلا أنها لم تتشابه. طوال ساعتين خلال نقاشٍ طويل، تكلمت وأجبت بتواتر على أسئلة، ورويت من جديد وباستمرار ما قادني إلى هنا، أمام جمهور جالس باحتشام وكأني في عرض مسرحي. النقاشات أقل تأثيراً من مؤتمر صحافي (تلك الجلسات المطولة التي يتحدث فيها المرء بمفرده يلفه صمت كاتدرائية)، ولكنها في المقابل تشلني بإمكانية عدائية محتملة من المتحاورين معي. ماذا كان سيجري لو أن أحدهم أخذ يذمني، ويدافع بقوة عن قضية جلادي، بل ويشكك في كلامي؟ كنت سأعدم وسائلي. أعلم أنني كنت سأعدم وسائلي. لحسن الحظ، لم يحاول أحد حتى يومنا هذا أن يجعل ثقني الهشة تهتز.

دائماً، تكون اللحظات الأولى مفزعة. يجلس المشاركون الآخرون، يسترخون، يرقبونني بطرف عينهم وكأنهم يعرفون مسبقاً ما سيسألونني عنه. بالنسبة لهم، البث المباشر مجرد لعبة، أما بالنسبة لي، فهو حفلة تعزاً أمام الجمهور، نوع من العلاج النفسي بالصدمة. ككل مرة، راودتني الرغبة في أن أترك الميكروفون والحضور والمناقشة هناك لأعتزل بعيدة عن النظرات... وحالما تنساب كلماتي متتالية، تكاد تكون خارج

سيطرتي، لا أعود أُميّز الوجوه بين الجمهور، ولا أعود أخشى
عدوانية المشاركين، قدأ أنفاسي وتستقرّ، ويكفّ قلبي عن
الحفّان الشديد. بكلمة واحدة، أروّض القلق.

- آسفٌ لإزعاجك...

رفعتُ رأسي، مستغرقة في أفكاري. بعد مناقشة، كنتُ
مثل ملاكم عاد إلى حجرة الثياب (ذاك الذي لا زال واقفاً،
وليس الآخر): خاوية، مرهقة. ولكن متخففة من ألمي أيضاً.
أكاد أكون هادئة راثقة. الرجل الذي انتصب أمامي للتوّ، هو
في الخمسينات من عمره. بدت عليه تلك الهيئة الرزينة
والمتجتهدة التي تكون أحياناً للأطفال الذين لديهم شيء هام
ليقولوه.

- كنتُ أريد أن أهتّك فقط...

شكرته بتهذيب، وأنا أتساءل عما يمكنه أن يهتني عليه.
ربّما على الحديث دون أخطاء. أمّا سوى ذلك، فأنا حصيلة ما
فعلت بي الحياة.

- ... وأقول لك بأنني سعيدٌ للغاية بأن عرفتُ أن والدك
هو الآن رئيس الجمهورية!

حقّ إذا كان الموتى يعودون حقاً من قبورهم، كان على
والدي في ذلك اليوم أن يعود ذرّوياً.

- الأسبوع القادم، ستقومين بتوقيع على الكتاب، قال لي
الناشر، هذا ليس مثيراً للاهتمام ولكن، هنا، لابدّ من الإذعان.

التواقيع. لا شيء يدعو للقلق، قلتُ في نفسي، بالنسبة لمن خرجت من سلسلة متواصلة من المقابلات والمناقشات، وهي كابوس كل انطوائية تحترم نفسها.

لأنَّ كهف التوقيع هو حلبة، يلعب فيها المؤلف، حسب استعداداته، دور الثور، دور مصارع أسيء إعداده كثيراً أو قليلاً، لا بل، بالنسبة للأكثر تعاسة، دور الضحية التي تُرمى فريسةً للسباع لتسلية الدَّهماء.

- ها إنك ترين، كل هؤلاء الناس هنا من أجلك! قال لي الناشر بحماسة، معتقداً بلا شك أنه يُريحني.
- حقاً؟

- أعتقد أنهم يصطفون لتهدي لهم كتابك بعبارات منك، إلا إذا كانوا يظنون أنك تديرين الصندوق.

- الجميع؟

- الجميع.

لم نتجاوز أبواب تلك المكتبة التي سبق ورغبتُ في أن أولي هاربة منها. كل هؤلاء الناس هنا من أجلي... هذا كل شيء عدا أن يكون خيراً مفرحاً، لأنَّ العدد يصنعُ حشداً، والحشدُ يُصيبني بالانقباض. كان ثمة أناس من كل المستويات ومن كل الأعمار، من السيِّدة كما ينبغي إلى الطالب الصغير المفلس، بسرّوالة الجيتر البالي. هناك وجوة أكثر ما كانت مغربية، معنيّة طبعاً بحديثي، ومجموعة من الأمريكيين الذين

تساءلتُ إن كانوا قد قرأوا الكتاب بنصّه الفرنسي، وسيّدة مصحوبة بعدد كبير من الصبيان لا بدّ أنّهم سيضجرون للغاية في عالم الكتب بلا صور هذا. أيهتمّون جميعهم بي، بقصّتي؟ يصعبُ عليّ تصديق ذلك. ربّما فقط ينتظرون إفشاء معلومات مسليّة عن النظام، تفاصيل غير منشورة عن الحسن الثاني. ما الذي لم أفكر به عاجلاً؟ غالباً ما لاحظتُ أنّ المجلات الشعبية قد حظيت بنجاح باهرٍ في حياة هذه النّمال الجھولة، الضّاجة بالنشاط. يعلم المرء من خلالها بشتّى الأمور حول الرؤوس المتوجّة؛ يُقرأ فيها، في ألفة صالات الانتظار، مصير الملوك وطيش الأمراء ومجوفهم. حينها، خشيتُ أن يُنتظر ذلك منّي، وقائع شاذّة بعض الشيء عن خفايا السراي الملكي. «في الحياة الخاصّة لملك المغرب». «الحسن الثاني المجهول». «أنا، الأميرة المخلوعة».

طبعاً، أعرف بعض الأمور، فتحتُ قلبي ورويتُ قصة حياتي. ولكن ان كانوا يريدون شيئاً غير قصّة حياتي، فسيخيب ظنّهم بشهادتي. لم أهاجم قطّ وطني، يبقى المغرب بالنسبة لي تربةً ساحرة، استمد منها قواي. إنني أصفّي حساباتي مع الملك. كانت لدي فكرة راسخة: تفتقر المجتمعات الحديثة، أوروبية كانت أم إسلامية، إلى الحدّ الأدنى من الحرّية كي لا يشعر المرء بأنّه حبيس قوالبها.

— اجلسي، نفث الجلاد الذي أعدّ ذلك الإعدام. أترغبين في كوبٍ من الماء؟

استدرتُ نحوه، مندهشةً لوجوده هنا. أهو صاحب المكتبة؟

لم أعلم شيئاً عن ذلك. خفق قلبي سريعاً. لم أرغب لا في الجلوس ولا في شرب كوبٍ من الماء.

لو كنتُ قد أردتُ شرب كوبٍ من الماء، لكنتُ سأفعل ذلك في بيتي، بين جدران أربعة، بعيدةً عن عشرات الأزواج من الأعين هذه، التي تراقب أدنى ردود أفعالي. من جديد، دبّ الخوف من الآخر في داخلي، تقدّمت السجينة على الكاتبة، واحتجتُ إلى ثبات كبير كي لا أعدل عن موقعي وأدلف إلى أول سيارة تاكسي فارةً من المكان.

علت أكداس الكتب على الطاولة كالأبراج. انزلقتُ، خفيةً، على كرسيّ لأضع واحدة من الأكداس بيني وبين طابور الانتظار. لكنّ لا شيء سيُحسن إخفائي عن أنظار ذلك الطابور، الطويل جداً بحيث لم أتجرأ على رفع ناظري. شاهدتُ، من مكاني، أجساداً تتدافع، وأيادٍ ممدودةٌ نحوي.

ما كدتُ أجلس، حتّى قاطعني صوتٌ به غُنة:

— إلى كريستيل ودادو!

— ماذا؟

مكثت فتاةً في حوالي العشرين من عمرها أمامي، وقد ضمت إلى صدرها نسخةً من كتابي وكأنّ أحدّ ما كان سينتزعها منها.

— الإهداء؛ إلى كريستيل ودادو.

سيدسُ كريستيل ودادو كتابي في مكتبتهما، فخورين ببضعة السطور المخربشة بعجلة:

« بمحبة، م. أ » بمحبة، حسب التعبير الشائع، كما لو كنا نعرف بعضنا منذ الأزل. بمحبة... إنها الصداقة المتجردة من الماديات التي تخلقها اللعبة الكبرى لوسائل الإعلام. ثلاث كلمات مكتوبة على غير هدى على صفحة بيضاء، تماماً تحت الإهداء « الفعلي »، وها أنا ذا أتحول إلى معرفة قديمة.

— تبدين في أحسن حال، قال رجلٌ تائهٌ في طابور الجاهولين، مندهشاً، خائب الظن في الواقع.

كدتُ أن أعتذر عن عدم كوني شبح المعتقلة ذي الثلاثين كيلو غراماً الذي كان يأمل أن يراه. ولاقيت، واحدةً فواحدة، النظرات المحملقة التي كانت تمتد نحوي وكأنيها لتجذب أنظاري. البعض منهم هنا ليعبروا عن مساندتهم ومحبتهم، وآخرون لإرضاء فضولهم المنحرف أحياناً. أنا ممتنة لهؤلاء كما لأولئك؛ فمن خلالهم أستمر، تارةً حقيقية وتارةً مصطنعة، موجودة ومتصورة بالتناوب، ولكن دائماً حية، وهذه الحقيقة تبرر كل شيء.

بمرور الوقت، اعتدتُ على التوقعات، مثلما روضت الميكروفونات. للحظات، تظهر أطراف تعتم عليّ هماري، وتطاردي لأوقات مديدة، وأحياناً لأيام عديدة. هذه الأشباح الشريرة تنفي تجربتي، وتصرخ متهمه إياي بالكذب أو المبالغة، وترفض أدنى اتهامٍ ضدَّ الملك مثل أسوأ الوشايات.

ودائماً يتعلّق الأمر بمغاربة، مواطنين منفيين بمحض رغبتهم، ابتدعوا لأنفسهم، بعيداً عن الدار البيضاء، حركات

وطنية ساخطة. في فرنسا وغيرها، يلوح هؤلاء المصلحون بخطاب تشكيكي يجمّد ظهري؛ فوالدي أصبح جلاًداً بدل الجلادين، وأنا أصبحت أداة دعائية مأجورة لصالح الآخرين. لا يشكّل هؤلاء المعارضين، في مقابل الأغلبية العظمى من قرائي، سوى حفنة، ولكن الغريب أنّ هؤلاء هم من تركوا الأثر الأعمق عليّ، وتأكيدهم تقع عليّ وكأنّها علامات بالحديد الحامي على جسدي. لا شيء أسوأ من الإنكار، من هزّ الكتفين لرجل لا يعرف شيئاً ويعتقد أنّه يعرف، والذي، بتعليق لاذع، يكسح عشرين عاماً من الآلام والعذابات وكأنّها لم تكن قد وجدت قط.

صالون جنيف للكتاب ليس مختلفاً كثيراً عن صالون باريس؛ فبدا لي وكأنني سبق وأن عشت ذلك الشعور بالانسحاق تحت عشرات الأطنان من الكتب، وسط مدّ بشريّ غفير بحيث تختلط الوجوه. أين أصدقائي، ناشري، وملحقيّ الصحفية؟ أين ايريك؟ ربّما كانوا قريين جداً، ولكن في كل الأحوال سوف لن أراهم.

تتنافس كبرى دور النشر بلوحات إعلانية، بلافتات، كل واحدة أكبر من الأخرى. قبة ضخمة لإحداها، ألعاب ضوئية ساطعة لأخرى، يجب أن يكون الهدف مرئياً من بعيد، لأنّه لا بدّ من البيع. من طاولتي التي أجلسْتُ عليها لأوقع كدساً من كتبي، شاهدتُ شيئاً أشبه بمئذنة تدور، في جهة وسط الحشد.

توقّف زوجان، لفظهما مدّة المتسكّعين، أمامي، وعائناني كما يُعائِنُ حيوانٌ في قفص. كدتُ أتحسّب لأن أرمى بحفنة من

القول السوداني... حاول الرجل والمرأة، دون أن يخفيا فضولهما، قراءة عنوان كتابي؛ ليس هذا صعباً جداً، هناك عشرون كتاباً منه على الطاولة.

— ما هذا؟ سألت المرأة.

— تعلمين... المرأة - قاطعة الطريق، أجاب الرجل خافضاً نبرته، ولكن حتى يُسمع الصوت في صالون جنيف، لابدّ من الصراخ بأعلى ما يبلغ...

— مَنْ تكون هذه؟

— أجل، الهندية... ألا تتذكرين... لقد شاهدناها في التلفزيون.

حينما رأيتهما، يتشبّث الواحد منهما بالآخر، يرمقاني بطرف عينهم، متضايقين بعض الشيء ولكن غير قادرين على مقاومة الفضول، سألت نفسي مَنْ من بيننا حقاً في القفص. انتهى الرجل بأن بادرنى بابتسامة أشبه بتكشيرة، ثم شدّ زوجته من ذراعها.

— تعالي، يوجد سوليتزر هناك.

سمعتُ ثانية صوتهما بعد برهة:

— آية هندية؟ لا أتذكر!

— أجل، المرأة المسنة التي أغضبّت... في الهند...

— آه، نعم! قل ذلك، كم هي نحيلة...

الهندية المقصودة تصدرت الصفحات الأولى للصحف تقريباً في تزامن معي؛ فقد خصّص لها موضوعٌ في اليوم الذي كنتُ قد أُستضُفْتُ فيه أثناء نشرة الأخبار التلفزيونية. كانت تلك الفتاة، المغتصبة، المهانة، قد تحصّنت في قرية جبلية، وشنت من هناك حرب عصابات حقيقية ضدّ النظام، متزعمة عصابة. وكانت، الوجه النسائي لروبن الأدغال، تناضل - إن أسعفتني الذاكرة- في سبيل قضية النساء، وفي سبيل عزّها، وربما أيضاً لأسباب أقلّ نبلاً. معاً جنباً إلى جنب، في نشرة الأخبار التلفزيونية ذاتها، ها نحن الاثنان نمتزج بمرح، لأنّ الألم لا هوية له...

* المقصود روبن هود الشخصية الأسطورية المعروفة

مغربي

« المغرب: مملكة بألف نكهة »...

منذ أيام، ينتشر هذا الشعار على جنبات كل حافلات باريس، على قاعدة المنارات، والكثبان، والبيوت المبيضة بالجير، والأزقة الساطعة بالألوان. المرة الأولى التي رأيت فيها هذه الإعلانات، مكثت جامدة كتمثال، لرؤية صورة سوق المدينة تبعد على خلفية حافلة. ثارت ذكريات كنت أظنها غير مؤلمة عتيقة في داخلي. ذكريات تُغيّر وقعها الآن في كل ركن من الشارع وأنا أرى وطني يمرّ على طول جادة سان - جرمان. لعشر مرّات في اليوم، الشعار نفسه يتكرّر على صور مختلفة، جمال عند مغيب الشمس، سوق، بضعة نخلات. والكسكسو الأبدى الفائح على طاولته النحاسية، الذي يُسيل لعاب سائقي الحافلات التائهين وسط الزحام. منذ وصولي إلى باريس، ويجري دفعي باستمرار إلى أن أعلن كرهني للمغرب. بالنسبة للناس الأحرار، العالم على صورة فيلم الساعة 20.30 التلفزيوني: هناك الأخيار والأشرار، وينال الأشرار عمومًا عقابهم في النهاية، اللهم إلا إذا كانوا ملوك المغرب. وكما هو الحال في الأفلام، لا بدّ أن تكون نهاية تحرّري سعيدة happy end، سعادة بلا لون معتدل لن تستولي عليها أصغر ذرة من الحنين.

يا لفظاعة هذا البلد، قال أحد الأصدقاء متأسفًا وهو يهزّ رأسه برزانة.

عن أيّ بلدٍ يتحدث؟ عن بلدي، بلا شك، وبعبارات مروّعة إرضاءً لي. ماذا يعرف عن المغرب، عن تجربتي، عن العتمة والظلام والنور في مملكة الألف نكهة؟

من جهة أبي، محمد أوفقي، ومن جهة أمي، فاطمة شتا، أنا سليلة البربر في الأطلس الأعلى المغربي. كان مأوى ومأمن عائلتيهما، مهتّان دائماً للسائلين والمحتاجين، الذين يكثرون في تلك المناطق الصحراوية المقفرة. يُعتقد بأنني أميرة: أنا سليلة الشعب. في السوق، غالباً ما يُقال لي: ولكنك تساومين كبربرية! لقد وجدت صفائي وحبّ المغرب في الصحراء. لقد طفتُ البلاد بطولها وعرضها، غالباً صحبة صديقتي صباح، صديقة كلّ المحن، وأنا أمنح مكانة أثيرة لتفيلاليت، مهد أجدادي لأبي. أشعر نفسي ضاربة الجذور في هذه الأرض. وسط الكثبان الصلصالية اللون، وتلك المساحات الشاسعة من الرمال السمراء المذهّبة، وتلك الواحات من النخيل المأهولة بالبشر الزرق، يسود صمتٌ مطبقٌ. أدركتُ أين كانت جذوري. أنا مغربية عميقة الجذور. في مسراكش، وليس في المأمونية أشعر أنني في بلدي. لا تساوي الفنادق الباذخة شيئاً عندي: فمهما حدث، أنا من طبقة دنيا! ساحة جمع الفنا، الفنا الذي يُستخدم منذ بعض الوقت ساحة إضراب حيثُ كانت قد عُرضت أجساد ورؤوس المنكّل بهم. عندما يحلّ المساء، كنتُ أجلس على مقاعد خشبية بسيطة مرتّبة حول طاهٍ مرحٍ يشوي أسياخ الدجاج، ويطهو الطاجن باللحم وبالخضار، أي طعاماً بسيطاً. يتجمّع الجائعون من حولنا، في جماعات، وأوزع

الأطعمة اللذيذة يافراط على من يرغب: تلك المتسولة التي أحنى العمر ظهرها، وتلك الفتاة الصغيرة ذات العينين الواسعتين الداكنتين، المرتدية أسملاً لا تقلل من وقارها. أشاهد، متلهية، السياح الذين يفتنهم سحر الثعابين. يحدث أحياناً أن يتعرف عراف إلى فيأتي لي تنبأ بمستقبلي. إنه لا يواجه خطراً كبيراً!

بعد ذلك بعام تقريباً، كنت أقود سيارتي الضخمة ذات الدفع الرباعي، في شوارع الدار البيضاء. وأنا أغلق عيني، وكأنني أتعلل بجوقة الصفارات، كدت أصدق تبؤ ذلك العراف. فقد وجدت نفسي، متوترة الأعصاب، وسط ازدحام على الطريقة المغربية: أكثر صخباً، أكثر تلوثاً، أكثر تلوثاً بالتأكيد من هنا، لأن الحرارة والشمس تضاعفان عشر مرات من الضرر الذي يسببه الديزل. كنت أقوم بست جولات من الذهاب والإياب، وربما أكثر أحياناً، بين أستوديو تصوير ومكاتب، ضمن وظيفتي الأولى كامرأة حرة والتي تكمن في القيام بكل المهام لوكالة إعلانية... كانت تتطلب في الواقع أن أقضي معظم وقتي وسط ذلك الازدحام لإرضاء نزوات مخرج غريب الأطوار. بات لدي الآن وضعاً خاصاً بي، راتباً، وظيفة معروفة، وإذا كانت لا تستطيع أن تنسيني بأنني لا زلت لا أملك الإذن بالطيران إلى فرنسا، فإنها تزودني بمظهر نفيس من مظاهر الشعور بشخصيتي.

استغرقت منملة الدار البيضاء، من حولي، في فورة من الألوان والأضواء. تدفقت الحشود على طول الشوارع

الرئيسية، وتعالَت أصوات الراديو والتلفاز والصرخات والضحكات والأصوات المتشابكة المتسرّبة من كلّ نافذة ومن كلّ شرفة ومن كلّ محلٍّ مفتوح على الشارع. بدا كأنّ الجميع يتجرّعون الحياة، بينما أنا أنتظر، يضيئي القلق، حبسةً سيّارتي ذات الدفع الرباعي وكأنني معزولة. ولم أجد في ذلك، عدا السلام الربّاني، سوى نفاذ صبر متعاضم جعلني أتلوّى في مقعدي، يتملّكني الجوع شيئاً فشيئاً.

ثمّة لحظات تتداخل فيها العيان والمعدة، وهكذا كانت حالتي وسط برج بابل ذاك، فالشيء الوحيد الذي جذب اهتمامي هو المنقلة الصغيرة لبائعة متجولة لحبز السّميد، على بعد مائة متر منّي. لو لم أكن حبسة تلك السيارة اللعينة، لأسرعت الخطى كي أستسلم لفيض من تلك الفطائر المغربية اللذيذة، التي بلغتني رائحتها الشهية رغم المسافة ورغم كون زجاج السيارة مغلقاً والهواء مكيفاً. اشترى شابّان، وكأتهما يزدریان بي، خبز السّميد، الساخن جداً لدرجة يصعب عليهما الإمساك به. انتابني دوخة خفيفة، في حين ذكرّتني معدتي، بجوقة من القرقرة، أنّ عاملة أمينة عليها ألا تنسى أن تتغذى.

تحوّلت الإشارة الضوئية إلى اللون الأحمر، بعد أن تقدّمتنا لبضعة أمتار فقط في الشارع المزدهم، حينما دقّ زجاج سيّارتي، فجأةً. انتفضتُ، من المفاجأة أكثر منه من الذعر، لأنّ للخوف في المغرب حدود، حدودٌ سوف لن أجدها، فيما بعد، في أوروبا.

إنّهما الشابان اللذان اشترىا للتوّ خبز السّميد. عبرا

الشارع، واقفين وسط دفق السيارات، وأشارا بأن أخفض الزجاج.

- خذي، يا سيدي، قال لي أحدهما وهو يمدّ نحوي رغيفاً من خبز السميد ملفوف بورقة جريدة.

أمسكتُ، مذهولة، بما كان غاية كلّ استيهاماتي في تلك اللحظة.

- كنّا سنمرض لو أكلناه دون أن نعطيك منه، شرح لي الآخر مبتسماً.

انطلقت الصفارات، وما كدتُ أن أتمم ببعض كلمات الشكر حتى أطلقا سيقاهما للريح، مستأنفين طريقهما وكأنّ شيئاً لم يكن.

هكذا هي المغرب، أكثر من سجون شبّابي. إنهما مجهولان لاحظا النظرة اليائسة لسائقة مجهولة، على رغيف خبز. إنها لحظة كمال، يشعر فيها المرء بنشوة كونه ليس وحيداً في الدنيا. ربّما توجد يلدان أخرى حيث تكفي نظرة بسيطة ليعبر المرء عما يُريد، حيث لا يمكن للمرء أن يعزم على تذوق غداءه دون إشباع امرأة جائعة. ساحب المغرب إلى الأبد، وسأدافع عنها، أنا التي سرقت المغرب عشرين عاماً من عمرها، في مواجهة أولئك الذين يقدحونها. وطني ليس الملك المترّبّع على عرشه. وطني ليس تلك الآلة القمعية التي يعبث بها رأس متوجّج كما يعبث بسلاح. وطني، هو هذا الشعب الذي يمدّ يده إليك دون أن ينتظر منك أيّ مقابل، شعب لا تلوي رأسه حتى رائحة أطيب الفطائر في العالم.

للذهاب لزيارة عائلتي في الرباط، يمرّ الطريق الأقصر على المتاريس التي تتأخم، وسط مركز المدينة، سور القصر الملكي. يخترق شارعان رئيسيان من جهة إلى أخرى هذه الدارة المقدسة في عيون كلّ المغربيين، والتي كانت دارتي فيما مضى. ولكن مجرد فكرة العبور بها، تنقبض معدتي، وتثور في داخلي أسوأ الأهوال، غير المضبوطة، وتدفعني إلى القيام بأطول الالتفاتات. إلى أن جاء يومٌ منعي فيه أمرٌ طارئ أن أسلك أطول الطرق، فوجدتُ نفسي في مواجهة قلعة الخوف تلك، مقررة العبور.

بخلاف القاتل الذي يعود دائماً، كما يُقال، إلى مسرح جريمته، نادراً ما يميل السجين إلى التجوّل تحت نوافذ جلاده. خاصّة عندما تنوء الأسوار تحت الذكريات، عندما تنضح بالضحك والعبرات في آن... بقيت طفولتي رهينة ذلك السور المهيب، حيث توقفت فوراً، كساعة محطّمة.

عند أسفل المتاريس، بدا لي وكأنّ سيارتي لم يعجبها الموقف، اغتاظت، ورغم ضرباتي الخجولة على دواسة البترين، لم تتحرك سوى القهقري نحو سور القصر. على البوابة، بادرتني شرطيٌّ يرتدي بزّة نظامية فضفاضة بإشارةٍ آمرة:

— تقدّمي!

تقدّمت، لو كان يعلم إلى أيّ مدى تقدّمت. أشارت لوحة إعلانية بأنّه لا يمكن تجاوز سرعة 40 كيلومتراً في الساعة، وهي سرعة تفوق الصوت بالنسبة لي، فتجراتٌ بمشقة على لمس دواسة الغازات. قد يروني، قد يسمعوني، تجاوزني المشاة

بلا مشقة، والسيارات من خلفي وجّهت إليّ نداءات ساخطة عبر مصابيحها (إذ ليس من المستحسن على الدوام التزمير داخل دارة أمير المؤمنين). انتابني شعور بالدوار والانهماك والغثيان، كنتُ كامرأة حامل حقيقةً. ربّما من جهة ما، تنفرج نافذة وتكشف عن وجه مألوف... عين ثاقبة قد تتعرّف عليّ في الحال من خلف الزجاج الملون لسيارتي ذات الدفع الرباعي.

اختلطت الذكريات من حولي، تارة سعيدة وعذبة، وتارة فظة حارقة؛ انبعثت الحياة في الجدران وشرعت تروي حكايتي، وأنا الصغيرة المنكمشة على نفسي في سيارتي، رأيتُ كل دقيقة تجري كأنها الأزل.

ضاق أحد السائقين ذرعاً، وكانت مقدّمة سيارته ملاصقة للدفاع الخلفي، ومدّ رأسه من السقف المفتوح لسيارته:

— هل ستنامين هنا أم ماذا؟

لقد نمتُ هنا لزمّنٍ مديد. ولذلك يشقّ عليّ كثيراً أن أتقدّم اليوم. قبّلتني، وعلى مبعده بضع مئات من الأمتار، ينتظرني اعتناق جديد: الحامل الثانية، البوابة التي خرجتُ عبرها من القصر إلى الأبد. لدى وصولي إلى أسفل المَحْرَس، تباطأت سيارتي من جديد، الأمر الذي لا بدّ أن يُعدّ ماثرة في نظر التعساء الذين يتبعونني. رماني دركيّ الحراسة بنظرة تكفي لأن تصيبي بمزيد من التكرّز. وأنا في منتهى القلق والارتباك، أعملتُ يديّ وقدميّ بنشاط، وانتهيت إلى التوقّف المفاجئ على نحوٍ مثيرٍ للشفقة. اقترب الدركيّ، بينما انكبتُ على مفتاح

التشغيل كما في الأفلام المثيرة الرديئة.

- هل من مشكلة؟

- لقد توقفت فجأة، قلت وكلّي أمل أن تخفي نظارتاي الشمسيّتان حيرتي وهويتي.

طاف الرجل حول سيارتي، بينما قلبي يخفق خفقاناً شديداً. لماذا تركزت من ذلك الدركيّ، مع أن أمثاله أظهروا، منذ إطلاقي، لطفاً حيالي؟ لا أعرف شيئاً عن ذلك. أريد الانصراف. عبور القصر قتل في كلّ منطق، وإذا استسلمت لقلقي بعض الشيء، انتهيت إلى التخيّل بأنني سوف لن أخرج قط من هنا.

عاد الدركيّ، في هيئة الواصل من نفسه.

- هذه هي المشكلة مع سيارات تويوتا. صهري لديه واحدة مثلها.

- آه حسن، قلت ذلك بنبرة من سيُجهز عليها على قارعة الطريق بطلق في رأسها.

- أعطها قليلاً من الغاز، هكذا، وراح يقلّد ضربات دواصة البترين بيده المفتوحة. وستنطلق في الحال.

أقلعت من جديد، حابسة أنفاسي.

- رأيت، استأنف الدركيّ بلهجة المنتصر. أنا أعرفها، سيارات تويوتا.

برؤيتي ارتعد في كلّ ركنٍ من الشارع، قد يُعتَقَد بأن

بلدي مملكة همجية يسود فيها قانون الأقوى. هذا خطأ، وأكاد أحقد على نفسي من هذا الخوف الذي يعشعش في أعماقي ويشلني. أعلم أن النظام قد استفاد بذلكاء من الهجمات الإسلامية لفرض إصلاح المدونة، الرمز السري للعائلة السلفية التي اختزلت، منذ قرون، حقوق المرأة إلى شيء لا يذكر. حتى اليسار امتنع عن إلغاء هذا القانون المهجور، إذ إن الرجال من جميع المشارب متفقون بلا شك على هذه النقطة الأساسية: هيمنة زوجاتهم. لا بد أن الحكومة ستحتاج إلى كامل قوتها في الإقناع (والله أعلم بأنها لا تفتقر إليها) لكي تُعطى للمرأة المغربية حقوقها في نهاية المطاف، وبذريعة مكافحة التطرف الديني. لقد بنيت آمالاً على السياسة الإصلاحية لحمد السادس، حتى وإن بقيت أمور كثيرة لابد من القيام بها في مجال الحريات السياسية ومكافحة مظاهر التمييز واللامساواة.

- أليس عسيراً أن تكوني امرأة في بلد إسلامي؟

- المغرب ليست بلداً إسلامياً.

- إسلامي، إذاً.

- ولا كذلك.

المغرب بلدٌ للتقاليد الإسلامية، حيث تمارس الأغلبية من سكانه إسلاماً متسامحاً. في بعض الأوجه، يُعدّ بلدي واحداً من أكثر البلدان تنوراً في العالم العربي، وفي أوجه أخرى، يُضاهي الدكتاتوريات الأسوأ في العالم الثالث. حين يسلم أمير المؤمنين روحه لإبليس سوف يتوجب الفرز نكهة بنكهة كي لا يبقى

منها ألف بل مئة تكون كافية لتجعل من المغرب فردوساً لمن
يعود هناك ألف نكهة، بل قد تكفي مائة منها لتجعل من
المغرب فردوساً. إلا إذا استولى الملتحون عليها، ليغطوها
بحجابٍ أسود.

الْمُلْتَحِيَانُ

استغلّ الدين سنوات غيابي العشرين ليشتغل مكانة متميزة. أشعر به، في المغرب وفي سواها، ثقيلًا، مصبوغًا في بعض الأحيان بحركات همجية تضاهي الحرب الصليبية، والمحارق ومذبحة

اليهود. ما أن فقد العالم الحرّ معالمة، حتّى مدّ له يده بمكر، وقدم له، عوض الخدمات النافعة والصادقة، الوعد بالإقامة الأبدية في الفردوس. يشقّ عليّ أن أفهم كيف عادت التّمامية الأكثر سلفية دارجة بين الشباب مثل سراويل مراهقي السبعينات. ولكن ما يتركني مذهولة حائرة هو أن يتمسك المرء بتوايت مهجورة لأشباح متعطّشة للدم ومتخمة بالجهل. ما الذي حدث كي يحتاج الناس من جديد إلى مرشدين مكفوفين؟

في البدء، اعتقدت أنّ التّمامية المتجدّدة لم تكن تعشعش سوى في وجوه آيات الله، المنصّبين فوق الأحياء الفقيرة لبلدان المشرق؛ ولكنني أخطأت. تزدهر الحُجُب في شارع شانزليزيه، ويوبّخ صبيةٌ مهاجرون من الجيل الثالث، شقيقاهم لخروجهنّ حاسرات الرأس. إلى متى سترُجَم الفتيات اللواتي يرتدين التنورة؟

كان صالون الكتاب* في باريس في أوج نشاطه، ومن بين جميع الناس المتدافعين للحصول على توقيع كتابهم، كانت سيّدة

* المقصود بعبارة صالون الكتاب: معرض الكتاب

تنتظر دورها بوقار. لقد تعلّمت بمرور الوقت أن أتعرف بنظرة على أولئك الذين يمدّون كتابهم دون أن يقولوا شيئاً، وأولئك الذين سيوجهون لي بعض الكلمات، وأخيراً، أولئك، المتسولين لمهمة مقدّسة، الذين يستغرقون في مونولوجات طويلة غالباً ما يشقّ عليّ إيقافها. لقد تلقّيت خلال بضعة أشهر دروساً في الحياة أكثر مما يتلقّاه إنسانٌ حرٌّ طيلة حياته... أقسم على أن هذه المرأة تنتمي إلى هذا الصنف الأخير، الذين يعطون الدروس. انحنى بكامل جسمها على الطاولة التي تفصلنا، التفتت إلى اليمين ومن ثمّ إلى الشمال، وبحذرٍ شديد، همست:

- كيف حدث أن وافق الملك على تبنيك على الرغم من أنّك يهودية؟

فاقتربتُ منها أكثر، وكأنني أريد أن أضفي مزيداً من الكتمان على السرّ الذي نتقاسمه، وأسريت لها، بنفس النبرة الهامسة:

- لست يهودية، أنا مسلمة.

ساد الصمت. أصبحت عيناها مدوّرة كعين سمكة.

- ألسن يهودية؟

لم يكن ذلك في الحقيقة سؤالاً، الأخرى إنّه محضر ضبط فاجع.

- كلاً.

هزّت رأسها، وكان كيّلها في ذلك بليغ الدلالة.

- آه، حسناً. ولكنني كنتُ واثقةً أن...

- كنتُ مخطئة.

تردّدت للحظة في مدّ كتابها نحوي بسبب هذا الاكتشاف الرهيب، ثمّ ناولتني إياه بأطراف أصابعها، بشبه اشتمزاز. وقّعتُ عليه. استعادته، ودائماً بنفس التوجّس؛ بحيث أنبأني شيء ما بأنّها، عند أوّل حاوية تصادفها، ستتخلّص من شهادة تلك التي ظنّتها داعية للتعايش الديني، وإذ بها في الواقع ليست سوى مسلمة. ربّما في يوم قريب، ستُدفعُ الكتب بعبارة: «مكتوب ليهودية، يمكنكم اقتنائه». «أو أيضاً «حلال 100%، اقرءوا بلا خوف». أسطوانات كاشر*، أفلام مباركة من الفاتيكان، سيستطيع كل واحد أن يتسلّى حسب مقياس ربّه.

الخطر لا يعود إلى الأمس، ودون أن أجعل من نفسي كاهنة، منذ أن أُطلق سراحني عام 1991، كانت لدي رؤية محدّرة منه. وكأ أنّه للقطع مع أماكن طفولتي (وبابتدال أكثر لشحّ المال)، أقمتُ في حيّ يدعى ناميا، يجاور حياً شعبياً جداً رغبتُ أن أعيد فيه اكتشاف المغاربة الأصليين. كان يوجد هناك، وعلى مسير بضعة دقائق مشياً على الأقدام، ناد صغير للفيديو، كنتُ أتردّد عليه باستمرار، على أمل أن أستعيد الزمن الضائع. فحتى السينما لم تنتظرنني أثناء غيابي، والقصة الخيالية بنفسها قد تجاوزتني منذ زمنٍ مديد.

نادي الفيديو، الذي تعلوه لافتة متواضعة متخلّخة تحمل

* كاشر: لحم حيوان مذبح حسب التقاليد الدينية اليهودية - المترجم.

اسم هوليود ستار، هو عبارة عن حانوت صغير، يُدار من قبل أربعة أخوة شبّان. أسدى لي هؤلاء الشبّان، الغارقين وسط الأكداس الفوضوية من الشرائط المسجّلة، كلّ النصائح التي أحّتاها، ووفّروا لي عودة الموتى الأحياء لصالح رين مان. بمرور الزمن، نمت تعاطفٌ بيننا؛ فسلموني أشرطة مسجّلة في البيت بينما قمتُ بتسجيل الأفلام التي سيضيفونها إلى مخزّونهم من الأفلام. ربّما حدث لي وأن أثبتتُ على أحد أفلامي الخاصّة، لفرط ما أدير الحانوت بشكلٍ خاطئ.

- كيف تهنّدي إلى ما تريد وسط هذا الركام؟

- لا أجد مشقّة في ذلك، أجابني واحدٌ من الشبّان ضاحكاً. قولي لي اسم فيلمٍ وسأخرجه لك في غضون ثانيتين.

اتفقنا على ترتيب جديد، وشراء رفوف تتوافق على نحو أفضل مع تجارتهم. اخترعتُ لنفسي دور المدرّب، وخطّطتُ لمستقبل الحانوت كمن يلعب المونوبولي. لا شيء يجعلني أخرج من عزّلي مثل انخراطي بتلذّذٍ في إستراتيجية التعدد الثقافي المستقبلية لهوليود ستار...

ولكن بعد عدّة أسابيع، عادت إدارة الحانوت من جديد إلى التسيّب. فلأكثر من مرّة، اصطدمتُ بـستار حديديّ خفيض، ناهيك عن كدسٍ من الأفلام اختفت دون قيد أو شرط.

- ما الذي يحدث؟ كل شيء يسير بشكلٍ خاطئ، قلتُ للأخوين اللذين استقبلاني.

- الأمر طبيعي، أجاب أحدهما، لم نعد سوى اثنين وهناك

الكثير من العمل.

- اثنان؟ ولكن أين راح الآخران؟

هزّ الشاب كتفيه وبدرت منه ابتسامة تدل على استسلام.

الشابان الآخران في المسجد الكبير. ومثل العديد من شبّان هذا الحيّ حيث لا يجد المرء ما يسدّ به جوعه، انضمّا إلى صفوف التماميّة، واستبدلا سرواليهما الجيتر بجلبابين وحلقا شعرهما الداكن وطوّلا لحية مدبّية. أغراهما الملتحون بحسنات الصلاة، منهجاً كغيره من المناهج لتحقيق الثروة والنجاح. العمل الصالح في الدنيا في سبيل مائة عذراء في الآخرة، إنها مسألة...

توسّل آخر المدافعين عن هوليود ستار إليّ أن أنصح أخويهما وأعيدهما إلى حضن الأُمّية الرأسمالية. فبدوهُما، الحانوت (المراجع بالأساس) معرّضٌ لخطر الإغلاق عمّا قريب.

- أنت، سوف يصغيان إليك، قالوا لي، قولي لهما بأننا في حاجة إليهما.

وعدهما، ولو أنني أعرف أنه ليس لي وزن يُذكر مقابل إله التماميين، ولا حتّى مقابل أي إله.

بعد ذلك ببضعة أيام، سلك الملتحيان الضحيتان شارع نادي الفيديو، بهيئتَين رزينتين تثيران السخرية بالنسبة لعمرهما البالغ خمسة وعشرين عاماً. جرى الحديث مختصراً، وإن لم

ينجح حائشو* الجامع بعد في نزع دماغيهما. بقي حديثهما متماسكاً، ولم يصطبغ سوى بعبارات مقتضبة أحياناً. وما هي تبريراهما؟ لم تعد التجارة مربحة... في الجامع، يستعيد المرء الأمل، أمل التضرع إلى الله... الأفضل والمستقبل الأفضل، في الآخرة، قسراً، حيث يحتفل الشهداء بأحزمتهم الناسفة التي تزعجهم قليلاً قبل يجلسوا في دار النعيم.

— فكّرا...

— لقد فكّرنا.

— فكّرا أكثر.

ماذا يمكن أن يُقال لهما إضافة على هذا؟ بدا لي أنه لا طائل من ذلك، وافترقنا أصدقاء جيدين، ولكن مع شعور بأننا لن نحظّ بفرصة اللقاء مرة أخرى. ذكرني انقباض طفيف في قلبي بضحكاتنا المجنونة في الحانوت الصغير، حينما كنتُ أسألهما، والعيون مدوّرة، مَنْ يمكنه أن يكون ماد ماكس. سرعان ما سيكونان قد نسيا ذلك بنفسيهما.

لقد تسرّعتُ بعض الشيء في نعي للشباب المغربي. فبعد بضعة شهور من ذلك، خطّأني ظني في شخص أخويّ اللذين فقدتهما، واللذين التقيتُ بهما من جديد، وهذه المرة كانا يرتديان سراويل جيتر وتي شرت، وقد حلّقا ذقنيهما منذ وقت قريب، وعلى أذنيهما المسجّلة المحمولة. لدى اقترابي، انشقا عن

* الحائش: من يطارد الفريسة للإيقاع بها. وهنا الإشارة إلى من يتربص بالشبان في المساجد لكسبهم إلى صفوف الأصوليين — المترجم.

ابتسامة واسعة.

- نعم، نعم، لا تقولي شيئاً، نعرف.

لقد أخذتهما الوهم لبعض الوقت، ولكن رغباً عن تعطشهما للأمل، انتهى بعد أن بلغ مداه. لقد أرادوا إخفاء ما هما عليه، بسبب تكوينهما العقائدي؛ فخافا من أن يضيعا وعادا إلى رشدتهما، بكل بساطة.

على غرار الأخوين السخيين، ليس الشباب المغربي باحثاً عن الهوية، وربما لهذا السبب ليست التربة التمامية خصبة تماماً في المغرب مثلما هي في غيرها من البلدان. فالشباب، الفخوريين بكونهم مغاربة، والمتمسكين بجذورهم، لا يغازلون المتطرفين إلا كعلامة، تمرّد ضدّ نظام متوحّش. لا يحتاجون سوى إلى شيء واحد: الحرية. الحرية والعمل. وفي هذا، لا أحد يفهمهم أكثر منّي.

اختفى هوليود ستار، قبض الله روحه، ولكن تحوّل، رغم أنف وخاصة رغم لحية التعصب، إلى متجر صغير. مخزن صغير مستحب، ممون بشكل جيّد، يخدم جزءاً كبيراً من الحي. لقد عملت كثيراً إلى جانب الأشقاء الأربعة ليجعلوا من محلهم تجارة قابلة للاستمرار، ويستثمروا نزوعهم المغامر. الأرقام مفرحة والإمكانات ممتازة، وعلى المدى القصير ستكون التجارة رابحة قبل نهاية العالم. لا ضير من نيل الأرباح على الأرض، بدلاً من العذارى في الآخرة. إنه حساب قصير الأمد، على الأرجح لا نعرف صحته إلا يوم موتنا.

سجينة الصحراء

العمل سوء طالع بالنسبة لبعض الناس، ولذة ومخدرٌ ومسكنٌ لآخرين. بالنسبة لي، اكتشفتُ العمل من جديد بعد كل تلك السنوات من السجن، واعتقدتُ بأنه ليس سوى وسيلة للانخراط في عالمٍ لم يعد عالمي.

علينا ألا ننسى بأننا كنا ملاحقين ومراقبين، وأنني الوحيدة التي نجوت، بمشقة، من ذلك الحرمان من الحق الأكثر بساطة: حق كسب القوت. انكبتُ على العمل بتلذذ، متناسية كل شيء أو جلّه لأتفرّغ لتصوير تلك الأفلام الإعلانية التي اتخذت مظاهر قضايا في غاية الأهمية. تركني المال لا مبالية، ولكنني انكبتُ على كل مهمة كلّفتُ بها، مهما كانت بسيطة، كما لو أنني أرسلُ في البحث عن الغرال*.

بفضل تدخل الشخصيات المهمة الكبيرة في المجال السمعي البصري الباريسي، انفتحت أبواب العالم المهني قبل أن تدعني أبواب البلاد أمرّ لأعيش حياتي في بلد آخر. ولكن شرطة أمير المؤمنين يقظة، ومنذ بداية أول تصوير خصّصت له أعمالي، جاء «الأمن الإقليمي»، وكأنيها مصادفة، يقلّب في سجلات الموظفين. إنهم يرتابون في كل شيء وفي جميع الناس؛ على كل حال، الأمر يتعلق بأخذ مشاهد فيلم فرنسي - إيطالي؛ من يدري، فربما يكون كل هذا وكراً لجواسيس، خطراً على النظام، على البلاد، على الملك...

* الإناء الذي استخدمه يسوع المسيح أثناء العشاء السري، وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، قصت العديد من روايات الفروسية أعمال البحث عن الغرال من قبل فرسان الملك آرثر - المترجم.

– مسألة أمن وطني، شرح للمنتج بحدوء موظفٍ توارث عيناها خلف نظارتين سوداوين.

كلُّ يعلم حقيقة أن ليس التقنيون الإيطاليون ولا المخرج الفرنسيّ هم من يُقلقون السلطات، ولكن اللقب اللعين الذي أحمله. أوفقيّر، مرادف الصمت والنسيان. اليوم أيضاً، يرنّ هذا اللقب كطلقة بندقية، والحال أن طلقات البنادق تجذب الشرطة، التي يكون همّها، كما هو معلوم، إعادة الأمور إلى نصابها.

ليس لابنة أوفقيّر أيُّ شيءٍ تفعله – حرّة – بخصوص تصوير فيلم، ناهيك عن اتصالها مع أجنبي.

لفرط ما تردّدوا باستمرار على مسرح التصوير، خلق حمّالو البنادق جواً من الرعب غير ملائمٍ تماماً للعمل. قلّما برّر الخوف، مع أنّه العنصر المثير للمغرب، سلوك الأجنبي في الفريق، المُرهقين بالتهديدات الخفية التي تضغط عليهم دون أن تكون معلنة بوضوح. أمّا المنتج المغربي، فقد كان في ذروة الذعر، وعلى الرغم من الاستقبال الحار الذي خصّني به وسط الفريق، فقد انتهى بصرفي عن العمل بمجموعة ذرائع واهية.

– تفتقرين إلى الخبرة، قال لي وهو يرتّب مصنّفاته، دون أن يتجرأ على النظر إليّ وجهاً لوجه. ثمّ أن الميزانيات قد خفّضت.

أخذ التمرد بتلابيبي. بعد سرقة عشرين عاماً من حياتي، يُسرَقُ مني حقّي في العمل (لا أجروا على الحديث عن

الاندماج، لأنّ هذه العبارة ستفترض أنني قد ارتكبتُ جريمة... واحتجتُ من جديد إلى كلّ الضغوط الخارجية لفكّ الملزمة السياسية ولإعادة دمجي بالفريق.

– يُسعدني أنّك قد عُدتِ إلينا، كذب المنتج، بابتسامة منقبضة.

علمتُ بفطنة بآئه أرغمَ على إعادتي، وأنّ تهديدات بالانتقام المالي قد أخفت بلا شكّ التهديدات بانتقام صرف بلا زيادة. أنا أعمل، فليكن، ولكنني أعمل لأنّ أحدهم أرغمَ على توظيفي. من الصعب في هذه الظروف الذوبان بلا تبصّر في القلب، والاقتراء بزملائي في تفانيهم في العمل. كما أنّه من الصعب، وقد وقع ذلّ الطرد من العمل ومن ثمّ العودة إليه تحت رحمة الضغوط، توبيخ أولئك الذين يضطهدهم النظام...

لكلّ عملية تصوير، ولكلّ تحرّك، تجد الوكالة نفسها متّسحة بلباس الدرك وبالبوليس السياسي. وكمديرة للإنتاج، ينبغي عليّ طلب تراخيص التصوير من المحافظ، ومن الدرك ومن القائد (والذي يوازي المختار في المغرب، رغم لقبه الكبيرتي على الآذان الغربية)... وجعلت رؤية هذه الطلبات موقّعة باسم أوفقيّر أكثر من واحدٍ منهم يتنفض من مكانه.

هبط الليل باكراً على الدار البيضاء، وأمنيقي الوحيدة هي العودة بعد نهارٍ طويلٍ من العمل المضني. ولكن قبل بيتي بيضة شوارع، وقفت سيارة BMW فارهة سوداء اللون في منتصف الطريق. أعملتُ منبه السيارة للمرة الأولى، ولكن دون

جدوى، وللمرة الثانية، والثالثة، حاولت مناداة السائق الذي سدّ الممرّ. فجأة، انفتحت بوابة السيارة، ونزل منها رجل، متوعداً. بشاربه المتبجح، وبذلك الطريقة الفريدة في تصليب الكتفين، عرفتُ العسكري، كلبُ حراسة النظام، الذي لم تفلح بزّته المدنية الجيدة التفصيل من التستر عليه. ولإعادي لصوابي، أخذ يسبني، وهو يلوح لي بأوراقه العسكرية بازدراء.

– إنك لا تعلمين مَنْ تواجهين!

أجل، أعرفه، أعرفه كثيراً. كل تناقض المغرب يكمن هنا، بالضبط، في تعسف السلطة هذا الذي يتعارض بشدة مع الشعور بالتعاضد الذي يميّز شعبي. الرجل كولونيل، ويتصور ككل الضباط بأنه يتمتع بسلطة شبه ملكية، ولم يتوان عن تهديدي بالأسوأ. الأسوأ؟ آه لو أنّه كان يملك أدنى فكرة عما عشته.

للمرة الأولى، لدى عودتي إلى البيت، أطلقت العنان لما كنت أتمتع به من نفوذ لأخذ رجل الـ BMW من شاربيه. أصبحت تعديّات السلطة لا تُطاق بالنسبة لي، ومع احتمال أن أمارس واحداً من تلك التعديّات بنفسني لإعادة الجلّادين الصغار إلى نصابهم، سأفعل كلّ شيء لكي لا أعود معرضة لهذه التعديّات.

ثمّة حكاية كهذه، فقد كانت ابنة مفوض في السابعة عشرة من عمرها أخرجتني من صالة سينما كمنحرفة. في ذلك اليوم، كنتُ لا أزال واحدة أخرى، وكنتُ قد استسلمت،

بدلاً من أن أطلق العنان للنفوذ المطلق... كنتُ اشمئزُ حينها من الحضور من خلال اسمي. كانَ الجنرال أوفقيراً الكلّي النفوذ، وبكلمة واحدة منه، ليستطيع أن يصقّر والدها المفوض إلى حجم خرقة تافهة؛ كان يكفي أن يعرف الناس أنني ابنته. الآن ما عاد والدي موجوداً، والنظار الصغار سَمَمُوا كلَّ دقيقة من دقائق الخمسة والعشرين عاماً من شبّابي المسروق، وما من أحدٍ سيعيني على الوقوف على قدمي.

بعد ثلاث سنوات ونصف من الكدّ في العمل، بدا لي أن الأبواب تنفتح أخيراً أمامي، ليس تحت تأثير الضغوط أو التهديدات، وإنما ببساطة لأنّ قيمتي المهنية قد عُرِفَتْ. لم يخضع معلّمي الجريء، ربّ عملي الجديد، للسلطة، استقبلني، واستمع إلي، وامتنحني مهتماً فقط بقيمة عملي. تأثرتُ به ودمعت عينايا؛ فمنذ زمن تتقاذفني الأيادي كعشبٍ مزرعٍ للغاية.

– أنا أوظّفك لقيمتك لا لشيءٍ آخر. أتفهمين؟ لا شيء آخر. وإن كنتِ عديمة الجدوى، سأصرفكِ من العمل!

في تلك اللحظة، شعرتُ بنفسِي إنسانة أخرى. إلّا إذا لم أكن قط شبيهة بنفسِي...

لازال السجن يثقل عليّ، مثل ظلٍّ غير مرئي. رغم الازدهار المهني الطفيف الذي حملته أعمالي وسط الوكالة، لازلتُ لا أطيق التشوّش، وانتهى جوّ التصوير يافهاكي. ضجيجٌ، وأضواء، وألوان، وصرخات، وضغط نفسي... كم

مرة رغبتُ في أن أقفز إلى سيارتي، وأقودها في وجهتي على نحوٍ مستقيم، دون أيِّ هدفٍ سوى أن أذهب بعيداً؟

وجدتُ طريقي مصادفةً، أثناء تصوير وسط صحراء الأطلس. كانت الشمس تسفَع الرباط قوّةً بحيثُ أُعلن عن درجات حرارة هائلة لدى وصولي. لدى انطلاقي بسيارتي الرباعية الدفع المليئة باللوازم، لم أتخيل للحظة أن كلَّ كيلومترٍ أقطعه يقربني من الصفاء... هدف الرحلة: ورزازات وارفود، نوعٌ من هوليود صحراوي على الطريقة المغربية. لا يصدق السائح الباحث عن الغرابة عينيه وهو يرى ذلك: كلُّ النتاجات الأمريكية الضخمة، مهما تعلّق الأمر بالصحراء أو بالمساحات الواسعة، استدارت إلى هنا، على بعد خطوتين من القرى الجرداء التي تُزار على ظهر الجمل. إنها هنا مملكة لورانس العربية، على مدى النظر أمام أعيننا. ارفود آلة عملاقة، أستوديو تصوير في الهواء الطلق حدوده الوحيدة تخوم الصحراء. يتغطّى مدى هذا العدم، بانتظام، بالشاحنات والهوائيات، والخيام، وإدارات الإنتاج، والمساليط الضوئية، والثلاجات. يُتكلّم فيه بكلِّ اللغات، العربية والإنكليزية طبعاً، ولكن أيضاً الفرنسية أو الإيطالية.

- أيزعجك الإقامة عند السكّان؟

- على العكس!

كنتُ، في آن واحد، فضولية بقاء الناس البلديين ومرتاحة بالتخلّص من عبء الجو المكهرب للرحلة. ستستقبل القرية

الأقرب أعضاء الفريق غير الضروريين لحسن سير التصوير؛ من جهتي، كان عملي الإنتاجي قد أنجز. يمكنني أن أسلس قيادي لهذه الآماد اللامتناهية التي تهدّني، للهواء الحارّ جداً الذي نشعر به يتنفس هبوباً. نارجيلة الله العملاقة هذه تمنحني الدّوّار، وبلدّة، أفتح ذراعيّ لأشعر برياح الصحراء تلجّ ثيابي.

قد تكون السيّدة التي استقبلتني قد وُلدت قبل ألف عام. لا شيء، في هيئتها أو في وجهها المخدّد، يشي بعصرنا. عيناها ناحلتا اللون لفرط الضياء، ويدها داكنتان وصقيلتان، وكأنّ الرمل قد قرضهما. حينما دعّنتي لدخول بيتها الترابي الذي يسوده ظليلّ عذب، شعرتُ وكأنّ الزمن يعيدني إلى السوراء. تقاسمنا الشاي، والوجبات بل والصمت أيضاً، جالستين على سجاجيد عند مغيب الشمس. قلّلتُ من ظهوري على « المائدة المنظّمة»، التي تُقدّم عليها مع ذلك صوان مدهشة من الفاكهة، وقوالب كاتو، وأطباقاً صيفية طازجة. شعرتُ بنفسي على أفضل ما يُرام عند العائلة التي استقبلتني والتي قضيتُ معها الوقت الأكثر صفاءً، ذلك الوقت القليل الذي لم يُطلب فيه حضوري للتصوير.

— إذا، قولي أنّك أحببت هلتون ارفود، قال المخرج ساخراً.

في الواقع لم نكن نتوقّع وجود أسرة « king size »، التي يمكن لثلاث رجال بدينين أن يناموا فيها فاردين أذرعهم، ولا بارات صغيرة مليئة بأنواع المشروبات، ولا حمّامات من المرمّر ولا واقيات ورقية من تلك، التي تجنّب المرء أن يضع ردفه

حيث جلس آخرون قبله. لا ترتبك الصحراء بالكماليات.
حتى ما هو ضروري غائب عنها، والغريب أن الضروري يغدو
فيها فائضاً.

- ماذا فعلت، من دون تكييف؟ كنتُ أسأل وسط
الندوة العذبة لمكاتب الإنتاج.

- يجب أن يكون المرء هناك ليصدق الأمر، ولكن لم
أحتج إلى التكييف.

لم أحتج إلى أي شيء آخر. لا سيما وأنني لم أشعر بالقلق.
لأنه تلاشى في رياح الصحراء، وبدا أنه عازم على أن يدعني
بسلام وهدوء طيلة إقامتي في ارفود.

أهل الصحراء مقلّون في الكلام. ولكنّ بمرور الأيام،
تأنسنا، مضيقي وأنا، بعمق وتبادلنا رؤانا المختلفة جداً حول
العالم والحياة. المرأة التي أصبحت صديقتي لديها أربعة أطفالاً
صغار، علاوة على زوج وأمه، أكّدت لي بأنها كانت في
السابق أجمل نساء القرية. اليوم، لا تتحرك السيدة العجوز
بوجهها المخدّد من الركن الأكثر رطوبة في الدار، وتكتفي بفرز
العدس الذي جلبناه بالأكياس.

شيئاً فشيئاً، تجرّأت على أن أسأهم عن رأيهم في هؤلاء
الغرباء الذين يغزوهم بانتظام والذين يستخدمون صحراءهم
كديكور مسرحي. كنتُ أكاد أصيغ الأسئلة والأجوبة عليها
لفرط ما شعرتُ بأنني أفهمهم. الغرباء؟ يغيضونهم، طبعاً. كدتُ
أقسم على ذلك.

لا شك أنني وحدي، وقد أظهرتُ نفسي منفتحة على ثقافتهم، نجوتُ من قساوة حكمهم. وبعد قليل، قد أغدو الناجية الوحيدة من المجزرة التي سوف لن يتوانون عن ارتكابها، فيما لو ذهب، عرضاً، الفريق بعيداً في تدنيس تربتهم.

ولكن صديقة البدو صدقت... كلاً، لا يكره مضيفي الغرباء. إنهم فقط يلومونهم تأسفاً على عدم دعوتهم لكي يمثلوا في فلمنا! لأنه سبق وأن شارك الزوجان والفتيات الأربع وحتى الجدة في مقدمة ما يقارب عشرين من فيلماً أمريكياً. أهى مقتضيات الممثلين الصامتين؟ القرية منفتحة على الدوام، وسكانها يستلذون بتأدية الأدوار الثانوية. الأجر جيد (كل شيء نسبي) والجو لطيف، تُشاهد من قبل العالم، وتُقدّم لنا أشياء بسيطة. لماذا يحرم المرء نفسه؟ كما أن الحياة ليست دائماً يسيرة في الصحراء، والموارد شحيحة...

لم أعدل عن دهشتي إلا عندما أخرجوا لي صرةً من الأشياء التافهة، علاقة مفاتيح، قداحات، قبعات، تي-شيرتات، أغلبها مدموغ بلوغو إنتاج سينمائي ضخمة. شرحوا لي، بافتخار، بأنهم قد مثلوا في هذا الفيلم وذاك، مع هذا الممثل أو ذاك (مع تشويه بسيط في لفظ اسمه) بينما لا يشاهد أي شخص في القرية التلفاز.

ربما صديقتي امرأة الصحراء، وهي تنشر الصدق والصراحة، هذه المرأة التي كنتُ أظنها متحررة إلى الأبد من العبودية الطوعية للبشر الأحرار، تلقي في الظل غيرة كل النجمات المبتدئات اللواتي يجلن على مكاتب توزيع الأدوار

أملًا في الحصول على دورٍ صامتٍ في نتاج سينمائي رفيع. بكلِّ بساطة، مضيفي من الرواد القدماء هوليد.

— هذا يفاجئكِ بعض الشيء، قالت لي مع ابتسامة مأكرة.

لم تعد تتكلم عن ذلك، ولكنني تيقنتُ من أنَّها أدركت في لحظة ما كان يجول في خاطري. قد تكون معتادة على أن تقدِّم دمية مصوِّرة لكلِّ تقنيي السينما. كم واحدًا من بينهم، مثلي، أخذ صورها إلى بلاده، وهو يبيِّن لأصدقائه أن أهل الصحراء قادمون من عالمٍ مختلف جدًّا؟

— أتعرفين أن ابنتي تزوجت من إيطالي، قالت لتهنيء الحديث معي.

لم أستطع منع نفسي من الابتسام.

— أشكر الله في كلِّ صلواتي، وإنشاء الله، ستزوّج الثلاث الأخريات من أجنب.

— إنشاء الله.

لم أكتشف حقيقة هؤلاء الناس، بتناقضاتهم ومفارقاتهم، إلا من تلك اللحظة. إنهم على ظهر حصان بين عَصْرَيْن، يستغلّون واحدًا منهما لترويض الآخر، دون أن يفقدوا شيئًا من مروءتهم ولا من نزاهتهم. إنهم أفضاظٌ، وأذكياء، ومتحفّظون وقلوبهم ملؤها الدفء والمحبة. لم تستيقظ عفاريتي في آية لحظة، لتمنعي من العيش إلى جانبهم لحظة حقيقية

لتعويض بعض ما فاتني. الصحراء شرنقة بالنسبة لي، فضاء بعيد عن حكم البشر، يمكنني فيه الخلود إلى تنفس منتظم. حينما حزم الفريق أمتعته، تاركاً الأطلس يستعيد معالمه، عرفتُ بأنني سأعود، لأنّ العالم صغيرٌ للغاية لينقطع المرء عن الأماكن الوحيدة التي يشعر فيها بأنه يعيش.

بعد بضعة أشهر، عدتُ إلى الأطلس بتأثير وانفعال، وهذه المرة، في إطار حملة إنسانية. جلتُ، برفقة صيادلة بلا حدود، في المنطقة لتوعية السكّان بمشكلة التراخوما، وهو مرضٌ يصيب العيون قد يؤدي، إن لم تتم معالجته، إلى العمى. خمسة عشر يوماً في العراء وسط الصحراء تلت رحلة مضيئة، وجعلتني أستشفّ من جديد عالماً مثالياً، هادئاً وقاسياً في آن، البيئة الوحيدة - بجمالٍ خيالي - التي وجدت روعي الراحة فيها.

القرية التي زرناها، جافة، فظة، ومهيبة كسكانها. في ساعات ذروة الحرارة، تذوب ضواحيها في تشوشٍ مذهشٍ، يمنحها سراباً متدفقاً يلهب الخيال. كان الأطفال والنساء، الذين كلّفتُ بإعطائهم دروساً في المدنية (بعد عشرين عاماً من السجن، إنها لسخرية جميلة) أجمل ما شاهدته أبصارى: عيونٌ واسعة صافية على بشرات نحاسية تبدو وكأنّها تلتهمنا فضولاً. حينما انتهى درسه (ساعة ونصف، يصغون إليّ أتحدّث، وهم النهمون جداً للكلمات!) بدأ درس الرجال، وقد تأثرتُ للاهتمام الذي رافق إصغاءهم إليّ. ما هم من أكون، ومن كان أبي، وما نفوذي. أعطوا قيمة للوقت الذي منحته لهم، فقط

لأتني منحتهم لهم. هل كان لابد من الغوص في قلب الصحراء
لألقى أخيراً الاحترام؟

النساء متشحات بالسواد، لا من أجل الاحتماء من نظرة
استهجان من إله مبغض للنساء، وإنما اتقاءً من سعي الصحراء
اللافح. وأغطية رأس الرجال تصفق في الهواء كأشرعة الخيام.
شعرت أنني خاوية ورائقة في آن. جعلت الحياة مني طفلة
للصحراء، أدركت ذلك منذ الكيلومترات الأولى التي قطعتها
في ذلك العالم الذي لا أفق له حيث تتخم الصخرة بالحرارة
وبالصمت. تندمل جراح الروح هنا أفضل من أي مكان آخر،
ربما لأن الأحاسيس تتقدم على الكلمات.

بدت نساء القرية، جالسات جماعات على جدران
خفيضة، وكأنهن شَعَرْنَ بانبهاري بعالمهن لأنهن يوجَّهن إليَّ
التحية والترحيب كلما اقتربت منهن. أقرأن أيضاً في روعي
كما في كتاب مفتوح؟ غير أن واحدة من بينهن نهضت وجاءت
صوبي، وبين يديها طفلة صغيرة. هي تلك التي أعطتني ذلك
الشيء الصغير للغاية، ذي الجمال المدهش.

- انظري، هذه ابنتي. ابنتي الثامنة.

- إنها آية في الجمال، قلتُ لها، ليس لمداهنتها،
وإنما لأن الطفلة تشبه ملاكاً نزل إلى الأرض.

- عمرها سنة واحدة.

هزرت رأسي.

- خذوها، قالت. اذهبي بها.

حاولتُ، وأنا نهب الحيرة، أن أشرح لها بأنني لا أستطيع اصطحاب ابنتها، وأنه ليس لديّ أيّ سبب للذهاب بابنتها. ولكن في أعماقي، استفاق جرحٌ قديم، جرحُ الأم التي لم أكنها.

- خذوها، ليس لدي ما أجعلها تحيا به، أنقذوها. أنقذي هذه على الأقلّ.

اختلطت الأفكار في ذهني؛ فكّرتُ بإهمالي أنا، بغياب أمي، برغبة أن أحمل طفلاً بدوري، أكثر من أن أفكر بمصير تلك الطفلة ذات الشعر الأشقر شبه الرمادي، والوجه المسفوع الأسمر الداكن المحمق بعينين واسعتين زرقاوين.

- شعرتُ أنّك ستأخذينها، تابعت الأم. شعرتُ بذلك، برغبتك.

دون تفكير، أخذت الطفلة بين ذراعي، ولكن لحظة ألقتُ الفكرة، أخذت الصغيرة تصرخ ذعراً، وتتلوى بين ذراعي، وغرست أظافرها في رسغي.

- لا أستطيع، قلتُ وأنا أعيد الطفلة إلى أمها. إنّها تفضّل حبك على الراحة.

- ستعتاد.

- كلاً، لا أستطيع.

اختارت الطفلة الصحراء؛ لو كنتُ قد استطعت، لفعلت الشيء نفسه. أنا أيضاً، كنتُ ساحبَ طفولة كطفولة الآخرين،

بعيداً عن بدخ القصر وأبته، بعيداً عن أشباح السجن، طفولة
كامنة في دفء ذراعي أمّ. لا أميرة ولا سـجينة، فقط فتاة
صغيرة لا تطلب سوى أن تُهدّد لتندثر الكوابيس.

انطلقتُ نحو خيمتي، دون أن ألتفت إلى الوراء، تاركة
خلفي تلك التي كان من الممكن، بـزوّ، أن تكون ابنتي.

أن اكون أمّا، أخيراً

لن أصبح أمّا أبداً. العقم، دوّت الكلمة كأثها حكم قطعي. ترك السجن وسواساً حقيقياً للأمم يسيطر عليّ، وكأنّ الولادة كانت الطريقة الوحيدة لأغدو امرأة مستقلة تماماً. مع ايريك، جرّبت كلّ الطرق: معالجات هرمونية، تلقيح اصطناعي، تخصيب عبر فيترو، جماع في أوقات ومدد محدّدة، عيادة أكبر الأخصائيين من بينهم د. رينه فريدمان. في كلّ أربعماء كنّا، ايريك وأنا، نذهب إلى لياج، لتمنحني إحدى شقيقتي بويضة. لمجرّد رؤية اللوحة التي تحمل اسم لياج كنتُ أرتعش وكان قلبي يؤلمني. على مدى ثلاثة أعوام، اتّبعْتُ سباقاً شاقاً في علاجات مضيّة، كان تأثيرها النفسي مفعجاً. في بعض اللحظات، بعد صدور السجينة، كنتُ أشعر بتضاؤل جدارتي بالأمومة، بحيث كنتُ أريد تقويض علاقتنا. شعرتُ بالحاجة التقويض الذاتي: شيء ما كالانتحار. صمدت العلاقة الشائسة. كان ايريك ملاكاً صابراً. غفرتُ لأولئك الذين سجنونا لعشرين عاماً، إلّا على شيءٍ وحيد: حرمانني من أن اكون أمّا.

– لو أنّ أولئك الناس قد قتلوك، يقتلونك لمرة ثانية، قال لي الطبيب المختصّ بالأمراض النسائية، الذي اضطرّ للغياب عن دروس علم النفس في كلّية الطب.

أمام وجهي المتقطّر رعباً، عدّل في رأيه:

– ولكن يمكن التّبي، كما تعلمين.

أعلم أنّه يمكن التّبي، ونوال، ابنة أختي، أيضاً ستعرف

ذلك ذات يوم. لم أضف شيئاً على ما قلته له. الآن أتجادل بمفردي مع شعوري بالذنب، ومع ذلك تبدو هذه الطفلة سعيدة إلى جانبي. لست أمها، ولست متأكدة من قدرتي على أن أكون يوماً ما كذلك. أمها، أختي مريم، فريسة نوبات الصرع منذ سجننا، والتي تتقاذفها المستشفيات، في حالة صحية سيئة للغاية بحيث لا يمكنها الاعتناء بالطفلة. يعيش والدّها في الرّباط، ولكنّه، للأسف، غائب في غالب الأوقات. ما العمل حينما تناديني نوال ماما، وتنادي ايريك بابا؟ اضطرت لأن أخبرها بأنّها أمان وأبوان. تعيش معنا الآن في ميامي. طبعاً، عوض الشعور بالذنب، الذي كان قد شدّ على خنّاق، لأنّ نوال بالمعنى الرسمي ابنة مريم وفؤاد، حاجة الطفلة إلى أسرة مستقرة. كنت وصيّة عليها في باريس، ومنحني والداها المنفصلين عن بعضهما حضانة الطفلة، طفلة آية في الجمال ذات شعر مجعد، طفلة لعوب، حيويّة، فتاة صغيرة عشقناها.

هل سيمكنني أن أنسى ذات يوم أنّ الطفلة التي تغسّط في نوم عميق في الغرفة بنهاية الرواق ليست طفلي؟ هل سأملك ما يكفي من الحبّ لأمنحها إياه، أنا التي أحسّ بأنني في غايّة الضمور واليباب؟ قرأت نظريات مبهمة عن غريزة الأمومة، تؤكد بأنّها تتطوّر تدريجياً أثناء الحمل لتبلغ مداها في نهاية تسعة أشهر.

ولكن جرّبت كلّ الوسائل لأجد تفسيراً لذلك الحبّ الذي ينقصني. ثمّة أمر واحد مؤكّد: النساء محكومات بساعة عيدة، وأخشى أن ساعتني لن تعود تحدّد الوقت أبداً.

هطل المطر على الجادات الفسيحة، وأنا أحثُّ الخطى،
متشبّثة بيد نوال. لم ترق لي قط مشاوير العودة تلك أثناء
هبوط الليل، في عزّ الشتاء... قضت الطفلة النهار عند أمّها،
ووجهها الصغير الرزين يشهد بذلك. كلّما عدنا سريعاً، كلّما
نُسي ذلك سريعاً، الانتزاع الملطّف للبت من أمّها الذي تمثّله
تلك الزيارات، المسافة التي تبدو بعيدة للغاية، المطر الذي لا
يكفّ عن الهطول. كان ذلك عندما لمحتُ من خلال انعكاسات
الواجهات المبلّلة شبحَ رجل قصير وسمين يسير خلفنا عن قرب.
في البداية، اكتفيت بمراقبته بطرف عيني، ولكن سرعان ما بات
واضحاً أنّه يتعقّبنا. أُسرّعت، فأسرّعت، جامعاً كتفيه على رأسه،
وكأنّ دافعاً شريراً يحركه. شعرتُ بحضوره، باقترابه المترايسد.
أخذ قلبي يخفق سريعاً، شددتُ على يد نوال كأنه سينزعها
منّي؛ وتشبّثتُ بالأخرى بحقيتي. من خلال واجهة مخزن
للأحذية، لمحتّه، أقرب أكثر من أيّ وقت، بقميصه الرياضي
الفضفاض، وقلنسوته. سرّت قشعريرة في صُلبي وهو يقترب
جدّاً منّي بحيثُ شممتُ رائحته المفعمة بروائح لفائف التبغ.

دون أن أفقد رباطة جأشي، توقفتُ فجأة، آملة أن أخدع
العدو. ولكنه بدا أكثر مكرّاً منّي، تجاوزني لا مبالياً وتابع
طريقه، لدرجة أنني تساءلتُ في لحظة إن كان خوفي المفاجئ
العنيف من كلّ شيء ومن أيّ شيء لم يضلّلني. عبثاً ألفتُ
قسماً كبيراً من الرموز السرية للبشر الأحرار، غالباً ما حدث
لي وخلطتُ حسني النية بسيئها، تجنّبتُ الألبسة العسكرية
لأرتمي بين ذراعيّ أوّل نشالٍ قادم، لذلك اللطف الطفيف
الذي يغشى هيئته.

مع ذلك، لم تختني فطرتي، هذه المرة: أبطأ الرجلُ خطوه، وتركني بدوره أتجاوزه، ثم انقضَّ عليّ. هزّت هزّةً عنيفةً كتفي: كانت حقيقتي هي مقصده. تشبّثتُ، متكرّزةً خوفاً، بما كان يطمع فيه، لأنني، لزمّنٍ طويل، بلا هوية. تحتوي هذه الحقيقة على أوراقٍ، وصورٍ، ومالي، ومفاتيح البيت، بالإجمال حياتي. لا تُتزعّج حياةٌ هكذا، في زاوية شارع. ولكنّ كان للرجل رأي آخر، وهزّني موبخاً على أمل أن يراني أفلتُ فريسته.

- ستعطيني حقيبتك، وإلا سأهاجم صبيّتك، نفث من بين أسنانه.

أحياناً، تكفي كلمة لتغيّر مجرى الأمور، لتحويل الفريسة إلى فئاب. أخلّى الخوف، مُجْتَثّاً في لحظة، مكانه لشعور من الشراسة العنيفة جداً بحيث شعرت وكأنّ مخالباً تنمو لي. فجأةً، كنتُ لبّوةً، ذئبةً، دبةً، على طريقة الدابة التي قلما تقبل العبث بذريتها.

- ردّد ما قلته، قلتُ له دون أن أترك له الفرصة ليردّ بكلمة.

لوته ضربةً من ركبتني في المكان المناسب على نفسه؛ دفعته إلى الواجهة الزجاجية، بقوة بحيث اصطدم رأسه بها. وبقيتُ أضربه، اعتباطاً، بكلّ ما يقع تحت يدي - بيدٍ فقط، بقدمٍ وبحقيقتي. تحت ثقل الحقد، أصبحتُ المعتدية وهو الضحية؛ لم أعد أشعر إن كنتُ أدافع عن نوال أم عن حقيقتي أم - عن حياتي، لم يبق أكثر من تلك الموجة التي تدفّقت في داخلي والتي

قد يمكنها سحق باريس بنفخة واحدة. كما في أفلام العنف الرديئة التي عادة ما أنام أمامها، لم أعد أرى سوى أنواراً وانعكاسات ضوئية تحت المطر، والشبح الملتوي على نفسه الذي يحاول الاحتماء من ضرباتي. أنا حيوانٌ كاسر، سأتوقف حينما يموت.

انتهى الرجل إلى الفرار، دون أن ينال مراده. في تلك اللحظة، اكتشفتُ نوال، ممتدة أرضاً، باكيةً، متشبثةً بعرقوبي. هداً الحقد في الحال، انخبتُ لآخذها بين ذراعي. همستُ ببضع كلمات في أذنها هداًتها، مبددة رعب الدقائق الأخيرة تلك. داعبتُ شعرها، بينما شدت نفسها إليّ. من حولنا، وعلى مساحة لا بأس بها، حملق الناس الأحرار إلينا كبهائم فضولية، مشدوهين وكأنّ أملهم قد خاب من جراء النتيجة غير المتوقعة للاعتداء. على المرأة الحرة أن تكون ضحية... ما كان ذلك سوى لإتاحة الفرصة لأن يعود المتسكّع إلى بيته ويروي حكاية سترعد عائلته الصغيرة. سيسهى في لحظة عابرة عن الاعتراف بأنّه لم يرفع إصبعه الصغير مخافة أن تأتية ضربة غير مناسبة.

فتحت حادثة الاعتداء، عيني واسعاً على الأمومة، على نحو غريب، الأمر الذي لم يكن أيّ أخصائي نفسي قد نجح في تحقيقه. ربّما ذلك الغوص في أعماق الغريزة الأولية أتاح لي التحقق كم كنتُ والدة الطفلة التي أربيها، دون أن أدرك ذلك. اللبوات أيضاً تتبنّى الصغار المتروكين، ترضعهم وتحميهم كصغارها. الآن أعلم أنّه ليس من الضروري أن تنجب المرأة

طفلاً لكي تحبه، وأنَّ كلَّ مَنْ سيحاول انتزاع نوال مني سيقوم
كذلك بقتلي في نفس المكان. كما أعلم أنَّ هذه الطفلة التي
ستكبر في حضني سيمكنها أن تعتمد عليّ طويلاً إلى أن ينمو
جناحها.

أنا أمّ، وكنتُ أجهل ذلك.

الحب في الأربعين

الرجل الأوّل في حياتي، الذي كان لا بدّ من أن يجعل منّي امرأة حقيقية هبط على حياتي، بعد قليلٍ من إطلاقي من السجن.

عمري 43 عاماً.

انطونيو، إيطالي، جميل مثل أبولون*، أشقر، شعره مجعّد وناعم الملمس، له لحية قصيرة. على قدر كبيرٍ من الفطنة والجمال. إنّه ممثّل كوميدي، التقيتُ به أثناء تصوير الفيلم الذي دُعيّا، أختي ماريا وأنا، إليه من قبل صديق طفولة، ومستشارٍ ثقافيٍّ في السفارة، وقد التقيت به عند خروجي من السجن.

جرى التصوير في الصحراء، منتج الفيلم مغربي وفريق التصوير فرنسي - إيطالي. احتجنا في البداية إلى بضعة أيام لكي نتأقلم، ماريا وأنا، مع الجوّ: منذ زمنٍ طويل لم نشاهد هذا القدر من الناس. ففي اليوم الأوّل، جعلتني رؤية كل تلك الأجساد بلباس البحر مستمتعة بالشمس أرتجف. لو أردتُ البقاء واقفة، لكان عليّ أن أستند إلى جدارٍ أو عمودٍ، وخلال لحظات، تبلّلت ثيابي.

مع ذلك، كان ذلك المكان، بالنسبة لي، الفردوس على الأرض، ولكن كغالب الأحيان منذ إطلاقنا، كان لدي شعورٌ

* إله الجمال عند الإغريق - المترجم.

بأنني دخيلة على هذا العالم. خاصة هناك، وسط كل هؤلاء السينمائيين المنهمكين في العمل، ذلك الوسط الذي سبق وقاربته بعض الشيء، والذي كنت قد رغبت أشد الرغبة في الانضمام إليه، كان ذلك الشعور أقوى من أي وقت مضى.

قلّة من أعضاء الفريق يعرفون مَنْ نكون، من أين خرجنا، مع أنّ نظراتنا الحزينة أثارت التساؤل لدى أكثر من واحدٍ منهم.

كانت أختي ماريا أوّل مَنْ كشف انطونيو.

- هناك شخصٌ جميلٌ جداً مغرّم بك، همست لي في اليوم الأوّل.

سألته.

- كيف هو؟

- أشقر، عيناه زرقاوان، وله لحية!

أختي مجنونة. جميعهم شقر، وبشرتهم برونزية، وملتحون. ولا ينقصهم الجمال. ولماذا سيهتم «شخصٌ جميل» أخيراً استطاعت تمييزه من بين الآخرين، ودلّني عليه خفية بإشارة من إصبعها. فعلاً، إنه جميل، ولكن لم أر سوى نظراته المثبتة علي. ولو كان بإمكانه، لالتهمني كاملة.

بعد بضعة أيام من وصولنا، أقام المنتج حفلة شبانيا مناسبة عيد ميلاد أحد الممثلين. حينما وصلتُ إلى قاعة الطعام الفسيحة، كان هناك عالمٌ مجنون.

أخافُ الحشد، ولكن عليّ أن أرغم نفسي. عليّ أن أتحدّى عفاريقي. كنتُ هناك، متردّدة، حينما أخذتُ يدَ يدي بلطف. ثمّة حرارة جارفة في تلك اليد، بحيث لم أبد آية مقاومة. تشابكت أصابعنا برقة ثم شعرتُ بضغط شديد، وكأنّ صاحب اليد، وهو يكاد يهرس أصابعي، كان يريد أن ينقلني إلى كلّ حبّ الدنيا.

التفتُ حينها ورأيتُه.

إنّهُ الرجل الذي كانت ماريا قد دلّتي عليه. ظلّ يرمقني ودائماً بنفس الطريقة. شعرتُ أنّه قد خصّني من بين الجميع وانتظرني بشغف. عرفتُ أنني أقصُّ على نفسي حكايات. عمري 43 عاماً، ولي قلب فتاة طائشة. ولكنّ، عيناها لا تكذبان. يبدو هذا الرجل مجنوناً بي. تكمن صعقة الحبّ إذاً في مكان آخر غير الكتب.

جذبني نحو صالة الطعام، بصمت، ولكنني انسحبتُ خلسةً. شعر بتحفظي، فأخذ كرسيين ووضعهما حول طاولة خارج الصالة.

جلسنا. ظلّ يحدّق فيّ ذاهلاً. توارت ماريا. بقينا هناك، نحن الاثنان، دون أن ننس بينت شفة. كنتُ أرتجف بشدّة، فرفع سترة من كشمير أسود موضوعة على كتفيه ولفّني بها مثل شال. ثم وضع يده على ضفيري ومسدني برقة وحنان.

ظللتُ أرتجف ورغبتُ في ذلك. تعاملتُ مع نفسي كبلهاء. كيف بي، أنا التي كنتُ من بين جميع أخوتي وأخواتي،

أمتلك « بين هلالين » التجربة، وواثقة من أنني، لفرط ما
رويت حكاياتي العشقية، سأكبح جماح جسدي، أكون هنا
خرساء كفتاة صغيرة فزعة، مذعورة، خجولة، أنتقل بغموض
من الفرح إلى الخوف.

بقي إلى جانبي، لم يفارقني. شعرتُ بحرارته، برقته. ردّدت
في نفسي أن هذا مستحيل. لطالما حلمتُ بهذه اللحظة، هكذا
أردتُ أن يكون الحب الذي يُقدّر لي. عليّ أن أظفر بهذا الحب.
قدّم لي انطونيو زجاجة من النبيذ الأبيض. بذل جهده
ليحدثني بالفرنسية.

- هذه ستبثُّ الدفء فيك، قال لي.

على العكس، أرجفني الخمر من جديد؛ فأنا لستُ معتادة
على الشرب. بنهاية الكأس الثانية، وقد رأى حالتي، توقّف عن
تقديم النبيذ إلي، ومدّني بكأسٍ من الكونياك.
هنا، كان الأمر معاكساً. لم أعد أحتمل المكان. كانت
حالتي سيئة. فمض.

- سأرافقك إلى غرفتك.

مدّني على سريري، بقي إلى جانبي بلا حراك. الفتاة
الصغيرة في داخلي كانت أكثر رهبة من أيّ وقت مضى.
التويتُ على نفسي.

قرفص عند أسفل السرير ورمقني مطوّلاً.

- ولكن من أنت؟ سألني. ومن أين أتيت؟ تبدين وكأنك

تحميلين كلّ بؤس العالم وشقائه في نظرتك.

تكرّزتُ. تنهّدت وحوّزّقت. وأخذت أنتحسب. بقسي إلى
جانبي حتى بزوغ النهار. شددتُ نفسي إليه، وبكيت. لم أفعل
سوى البكاء.

في الصباح، نمتُ أخيراً. حينما استيقظت، لم يكن إلى
جانبي.

من أين أتيت، يا انطونيو؟ من مكان معتم وجليديّ حيث
انتهيتُ بالاستسلام: سوف لن أعرف الحبّ أبداً. بالتأكيد،
ككلّ فتيات جيلي، كانت لديّ بعض المغازلات، ولكنها لم
تكن قطّ جدية. لقد أحببتُ أحياناً. كان حبّي في السابعة عشرة
بريئاً كأيّ حبٍّ أوّل. حتى كدتُ أن أعلن خطوبتي مع شابٍّ
ظريف التقيت به في باريس، في سنة دراستي للباكالوريا. وقد
واظبنا على المراسلة في بداية أسري، في تاماتاجت، حينما كان
لا يزال بوسعنا تلقيّ البريد. ولكن سرعان ما توقفتُ عن
الكتابة إليه؛ رغم رسائله المتأجّجة شغفاً، لم يكن يدرك شيئاً عن
وضعنا المنعزل.

لقد أخذني رجالٌ بين الأذرع، وهمسوا لي بكلمات عذبة.
لقد عرفتُ ما كان يعنيه الرقص البطيء باسترخاء، وتقبيل
صبيٍّ من ثغره.

في باريس، عرّفتني ابنة خالتي ليلي شتا، الممثلة الشابة
الفائقة الجمال التي هام بها لخضر حامينا، كاتب وقائع سنوات
الجمهر، إلى آلان ديلون وجاك بيرن. عقدتُ مع كل منهما

علاقة غامضة، صداقة حب لم تذهب بعيداً. راعى الاثنان الشابة التي كنتها آنذاك، المحاطة بالقيم الفاضلة، الحريصة على شرفها، وان كنت أحب الرقص والتسلية أكثر من كل شيء.

أما أنا، فلم أكن مستعدة لأخصّ أيّاً كان. ببساطة، كنت أعرف بأنني سأتزوج، ذات يوم ليس بعيد.

كان كل هذا من قبل. قبل قرون وقرون.

في السجن، كنت عازمة بشدة، في حال استعادي للحرية، على أن أرمي بنفسي في سرير أول قادم لأنال مُرادي. ولكن الواقع أكثر تعقيداً. ألسْتُ معرضة للانكسار، في حين أنني لم أبدأ إلى الآن بالخطو على دربي؟

مع ذلك، لديّ متسع من الوقت لأتخيل الرجل الذي سيعرف كيف يهزني ويؤثر في. حسب المزاج، والحكايات التي كنت أرويها كل مساء لأخوتي وأخواتي، كان فتى الأحلام، مقاتل، حامل جوقه الشرف، رماح بنغالي، طبيب بلا حدود، بدويّ بعينين زرقاوين، روسيّ أبيض أو هنديّ أمريكي، جيمس بوند، طرزان، أو دكتور جيڤاكو (بلا الشارب، لأنه صفة السجان).

ولكنني كنت أركز على الحب العظيم أكثر من المتعة الجسدية كي لا أحبط المستمعين إليّ وأشعرهم بالكبت، وخاصة كي لا أحبط نفسي. كم من الليالي المنعزلة، في تلك الزنزانة المعتمة، مستلقية على حشيتي البائسة، حلمتُ بأنني سأمارس الحب؟ في الصباح، كنت أستيقظ يعتصرني الحزن والمرارة.

سرعان ما تعلّمت ألا أفكر في ذلك، على الأقلّ ألا أكثر من التفكير بذلك، خشية أن أفسد أكثر.

في العشرين من عمري، نسيتُ تدريجياً ما يعنيه أن أكون امرأة، شهيةً ومشتهاة. لم أعد أجيد الابتسام والضحك والرقص لرجل يرمقني فيشعُّ بريق الرغبة في عينيه. تخونني الغواية، ولم أعد أجيد الإغراء.

احتفظ جسدي، الفارق في الرقاد لزمنٍ طويلٍ جداً، بالانعكاسات الضرورية للبقاء: الأكل، الشرب، النوم، السير...

وثمّ ماذا؟ وثمّ، لا شيء آخر... لم يعد جسدي يشعر حتّى بالحزن، إنه معدوم. من هذه الجهة، لديّ كل شيء يجب أن أتعلّمه. ما أن تتركّز نظرة رجلٍ على حنايا جسدي، حتّى تَحمرّ في الحال وجنتاي، وترتعش يداي... أنا كائنٌ ينطوي على مفارقة تاريخية وهذا يؤلّني. أعطتني الحرية المستعادة شعوراً غريباً بالدوّار والفراغ. أحلم بالحُبّ، بالرغبة، بالشهوة، وأخاف، وهذا الخوف يُخجلني. أجد نفسي مشيرة للثراء والشفقة.

لم أعد أعرف كيف أتحسّس نفسي. لأنّ شيئاً ما يقفز أمام عيني، وأنا بالكاد قد عدتُ إلى عالم الأحياء: الجنس بات كليّ الوجود. في المواقع الالكترونية التي أشاهدها أثناء تناول الفطور، في الإعلانات، في السينما، على الملصقات حيث فتيات معريّات، مهيّبات وأكثر شباباً منّي يعرضن أنفسهن على مرأى الجميع.

لا يُتَكَلَّم سوى عن « هذا » ولا يُفَكَّر سوى بـ « هذا ».
أثناء غيابي، الوسواس الجنسي هو

القاعدة الآن، مسبباً الدوّار للأقلّ احتشاماً. غيّرت الثقافة
الخلاقية الجيل المتنوّر وتركت حتى الهبيين الذين يدعون التحرر
متخلفين عنها.

وها هو الوسواس يصيبني بدوري. ممارسة الحبّ. في
الحال. فكّرت فيها بلا انقطاع. إذا كنتُ

صادقة مع نفسي، فإنّ الرغبة السويّة هي ما تثيرني وتحثني
بشكلٍ خاص. أريد أن أسمع الكلمات فجّة، رقيقة أو لاهبة،
التي يهمس بها رجل ولهان ومهتاج في أذن امرأة. أريد استعادة
الزمن الضائع. أكون امرأة. أخيراً. ولكنني مدعورة يا انطونيو.

تعاقبت الأيام، أنا مَنْ حاولتُ تجنّبه، وليس هو. قدّم لي
زهوراً، وغنى بافاروتي وشدّتي بخطوات واسعة في الصحراء،
عند مغيب الشمس. وذهبنا للعشاء لوحدهنا. اجتمعت كلّ
المقومات لكي أستسلم للغواية. ولكن فشلت.

هو، أراد أن يظفر بحبّي. وأنا، أبحثُ عن هويّة. توجّهت
اهتماماته واخراجاته إلى امرأة حرة أكثر منّي أنا السجينة التي
لا معالم لي. وبينما كان يهمس لي «ti amo» كنتُ أتساءل إن
كنتُ سأجيد الاستسلام أبداً.

حدث لي هذا مرّة وحيدة. حينما أدرك أنني عذراء،
حينما شاهد ردّ فعل جسدي، بلغ بي الارتعاش حداً ما عدتُ
استطيع التوقّف عنه.

جلس.

بكى.

— ولكن ماذا فعلوا بك؟

شقّ عليّ أن أروي له ما فعلوه بي. الأحرى أنّه هو مَنْ تحدّث لي عن حياته، هو المطلق والأب لطفلين. الحرّ.

كنتُ واضحة جداً. حينما داعبني، أو حينما اكتشفت جسده، انتابني الشعور بأنني أتصفّح قاموساً. أتعلّم هذه اللغة الجديدة كلمة بكلمة. أجّد وأثابر فيها. ولكن الإحساس يخذلني بغيابه.

أشاهد نفسي وأنا أقوم ببعض الحركات. لا أحسُّ بأية لذة. إنّهُ مغرّمٌ أشدّ الغرام بي، أشعر بذلك، أرى ذلك. أنا مغرمة بالحبّ، وهذا كلّ ما في الأمر. أعتقد أنني أشعر بأنوثتي، ولكنني لازلتُ جد بعيدة عن الواقع. احتجتُ للقاء ايريك، الذي سيصبح زوجي، لأعرف ماذا تعني هذه الجملة بمعناها الحقيقي.

انتهى التصوير، ورغم الخيبات المتكررة لعناقنا، اقترح عليّ انطونيو، بمنتهى الجدّة، أن يدسّني في إحدى شاحنات الإنتاج ليُخرجني من البلاد سرّاً. ولكنّ الهروب الأوّل أفرغ مدّخراتي من الشجاعة؛ ولم يبق لي منها ما يكفي لهروب ثانٍ. لا سيما وأنّ الفريق محترقٌ من قبل عسس الأمن. فمغربُ الحُسن الثاني لا تنظر بعين إيجابية تماماً لوجود الأجانب على ترابها، يزيد على ذلك كوني على اتصالٍ بهم.

كلّا، لن أهرب مرّة أخرى، لا إلى إيطاليا ولا إلى أيّ بلد آخر. ذات يوم سأكون حرّة رسمياً، سيكون لي جواز سفر في جيبي، وحينها، سأختار مصري.

عدتُ إلى بيتي، في الرباط. عدتُ إلى الشقة الصغيرة التي أتقاسمها وأختي ماريا، مقتنعةً بأنّه سوف ينساني. ولكن كانت قناعتي هذه تعبيراً عن سوء معرفة به.

هبط انطونيو ذات صباح باكراً في المطار. ما أن عبر الجُمرك، حتى ارتقى بين ذراعيّ، وتعبّج لفتوري. هذا لأنني لا أستطيع أن أخطو خطوة دون أن أكون متبوعة بشرطيّ. ظنّ أنني لم أعد أحبه، وبأنّ هناك أحداً ما في حياتي سواه. كيف لي أن أفسّر له رتأتي اليومية، والرقابة التي لا حدّ لها؟ وخاصّة السجن الدائم الحضور في ذهني. كيف لي أن أقبّله في وضوح النهار بينما جميعهم من حولي ويكمنون لي؟

خلال بضعة أيام، ازدادت حالات سوء التفاهم بيننا. إنّه غيور، ويعتفني. وأنا، لا أطيق الصراخ والهياج والتهديدات. التويتُ على نفسي، وشعرتُ بأنني أمام جلاّد معذب.

انتهينا كلانا بالاسترخاء، فأمضينا أياماً رائعة. ذهبنا معاً إلى السوق، ثمّ أخذ انطونيو يعدّ الطعام في المطبخ: يعدّ لنا عجائن وسمكاً وطماطم بالريحان، وكلّها على طريقة نابولي، ويغني في الشقة التي تفوح بروائح الثوم وزيت الزيتون. انطونيو ممثّل حقيقي، مرحّ، هائج، ذلقُ اللسان. أحياناً مُتعب. ولكنّه يحبّني. يصرخ لي بحبّه بجميع الطرق.

تناولنا الغداء صحبة ماريّا، تحت الشمس، في شرفتنا الصغيرة. وضعنا موسيقى، استرحنا، ذهبنا للتزّه في السوق، تناولنا العشاء أحياناً في المطعم. في الليل، حاول باستمرار أن يُطمئني ويزيل قلاقلي.

— انطونيو، هل أنا « طبيعية » ؟

— لا تقلقي، لا يمكن لهذا أن يأتي بين ليلة وضحاها.

اعتقدتُ بأنني، معه، في مأمن، ولكنني أخطأت الاعتقاد. ذات صباح باكراً، في الساعة السابعة، دقّ رجال الأمن بابنا. كانوا أربعة. اثنان لم يقولوا شيئاً، ولكنهما زرعاً الشقة خطي قلبان اعتباطاً كل ما يقع تحت أيديهما، واثنان آخران لعبا بالتوالي دور الشرير والظريف، كما في الأفلام.

— هل تدركين أن والدك، لو كان حيّاً، ما كان ليتقبل أن... أجنبي.

— أبي؟ شقّ علي أن أصدق أن أداة النظام هذا تجرّأ على ذكر أبي، المقتول على أيدي زملائه.

شعرتُ بغضب رهيب يسري في داخلي تجاه هذا المقمّاق النحس الذي يجعل الأموات يتكلمون، حتّى أقوى من الخوف. — انتظري في الغرفة، قلتُ لأنطونيو الذي لم يفهم شيئاً مما يجري.

شعرتُ من نظرتّه المذعورة بأنّه يخشى عليّ.

انتهر الشرير، المسترخي إلى ذلك الحين ببراءة في أريكة،

قولي لأنطونيو ليطلق صواعق الجحيم. نعتني بكلّ الألقاب: ساقطة، عديمة الأخلاق، عار الإسلام، بينما الآخران، وقد وجدا نفسيهما دوراً إضافياً، يسجلان الحديث.

بأيّ حقّ أسمح لنفسي أن أدّس اسم عائليّ يابوا رجل ليس زوجي؟ هل فكّرتُ بأمي، بجيراني، بأسلافي؟ إذا صدّقته، انطونيو إرهابي ومدمن مخدّرات وجاسوس.

تكمّ الظريف:

- هل تعلمين لو أنّ الإسلاميين رموك من الأعلى إلى وسط الشارع، لا يمكن فعل أيّ شيء من أجلك...

بعد التلويح بالأخلاق والدفاع عن شرف أمي - متظاهرين بنسيان أنّهم حطّموا حياتها إلى الأبد - تابع الرجلان الحديث عن أمني الخاص، وكذلك أمن هذا الرجل غير المسلم الذي دّس بحضوره هذه الأرض المقدّسة التي هي المغرب.

فطفح بي الكيل.

- أمارس الحبّ مع مَنْ أشاء!

دوّت كلماتي كطلق ناريّ. ثمّ ساد الصمت. دار الشريط المغنط مع ضجيج رثانٍ خفيف. تنحنح أحد الرجلين

- نعم مع مَنْ أشاء، وخاصة مع أجنبيّ تحديداً لأنّه غير مسلم.

- هل تعلمين ماذا يسمّى هذا؟

- ماذا يُدعى هذا؟ طبعاً أنا أعرف ذلك! وإذا كنّما

تجهلانه، سأعلمكم إياه: هذا يُدعى بكلّ بساطة ممارسة الحبّ مع كوميديّ إيطاليّ شابّ وجميل، شخصية مذهشة.

لم يمتلك الرجلان الوقت للردّ عليّ حتى ارتقيتُ في الشرفة، بينما سال فيضٌ من الكلام منّي، سريعاً جداً، وعشوائياً جداً حتى لأظنّ أنّ عفريتاً تملكني. لقد أخذَ منّي شبابي، اسمي، حياتي، أبي، هويتي، أحلامي، نسومي، صحتي، واليوم يُراد ما بقي لي، أو على الأقل ما يعتقدون أنّه بقي لي؟ كلاً، جسدي يخصني وحدي، إذا كان صحيحاً أنّ شيئاً ما لا يزال يخصني.

هذا، لن يُؤخذَ منّي. ولأبرهن على ذلك، هدّدتُ بلا تبصّر بأن أرمي بنفسي من النافذة. للوهلة الأولى، كدتُ لأن أصدّق بأنني قادرة على القفز من الشباك؛ فلم أعد أطيع وطأة الطغيان، وطأة هذه الدكتاتورية المتوحّشة التي تتسلّل حتى إلى سرير مَنْ قرّرت تحميمهم.

- طيّب، طيّب، اهدي، قال الظريف بصوتٍ قاطع، مشيراً إلى الآخرين أن يخرجوا.

ارتجفت على شرفتي بشدّة كورقة شجر، عرفتُ تماماً أنّه يخاف بدوره، من أن يضطرّ لتبرئة نفسه أمام رؤسائه من لطخة سيلومونه عليها. لقد أعطيت لهذا الرجل صلاحية أن يفسد حياتي، أن يُرهبني، ولكن لا أن يقتلني. لو كانت الفكرة السيئة راودتني بأن أقوم بالقفزة الكبرى لانقلبت الآلة الجهنمية ضده هو وعائلته واسمه وشرفه.

- سننصرف، ردّد ذلك لثلاث أو أربع مرّات، افعلني ما تشائين، لا شأن لنا بك.

انغلق الباب عليهم. انعتاقٌ جيد. خرج أنطونيو بخجل من الغرفة، أقلّ جاذبيّة مما هو في العادة.

- هل كلّ شيء بخير؟

كلاً، ليس كلّ شيء بخير. بكيت. مرّة أخرى، أفسدوا عليّ كلّ شيء.

بقي أنطونيو بضعة أيام أخرى، ولكن السحر تحطّم. لم أعد أطيعه. لدى عودته إلى نابولي، ظلّ يهاتفني باستمرار، وهو يعدني بأنّ الأمور ستتّظم عمّا قريب...

إلى اليوم الذي أخبرني، متألّفاً، خبراً عظيماً.

- مليكة، سأترك كلّ شيء، السينما، مهنتي، ليس لكلّ هذا أية أهمية. امنحيني مهلة ثلاثة أسابيع، الوقت اللازم لإنهاء أعمالي، وسأتي للإقامة معك.

- في المغرب؟

- نعم، في المغرب. إذا لم يكن بإمكانك مغادرة البلد، أنا من سيأتي إليك.

أساءت الحياة التصرف. للحظة، أخذت أزدري هذا الرجل البائس، المستعدّ لترك عمله للعيش إلى جانبي. لقد تحسّب لكلّ شيء: سيرسم على أقمشة وبييعها. إنه يتقن صنع

وزرات تاهيتية*. لقد عشت من الخضوع أكثر من أن أرتضي به عند رجل، والحال أنه سيأتي ويخضع ذليلاً أمام الدكتاتورية. أيرادُ إبقائي سجينة ومحرومة من جواز سفر وتعيين إقامتي؟ لا بأس، سيأتي بملء إرادته ليقاسمني حياتي كسجينة مع وقف التنفيذ. أفلا يفهم أنني أريد عكس هذا؟ أن يأتي رجل، كما سيفعل ايريك، وينتشلني من هنا؟

منذ ذلك الحين، بدأت أكرهه.

- لا أفهم شيئاً، أنا أحبك، قال متحسراً.

لا شيء ينبغي فهمه، يا أنطونيو المسكين، لم نُخلق أحداً للآخر. لشهور بعد ذلك، استمرّ الاتصال بيننا، وخاصة من جهته في الفترة الأخيرة. ولكننا عرفنا نحن الاثنان بأنها نهاية علاقتنا.

تجربتي الثانية حصلت مع شاب عارض للأزياء في الثانية والعشرين من عمره، جاء إلى المغرب من أجل تصوير عرض. كان صبيّاً في غاية الجمال، ذو جسم رياضي. كيف يمكن له أن يُعجّب بي أنا العجوز؟ إنه لغز. أو أنه ربّما تصوّر أن خبرتي ستذهب به مباشرة إلى السماء السابعة. المسكين، لو كان يدري...

استعمل صديقي الجميل جميع الوسائل لألتقي به في غرفته في الفندق. وليس في مكان آخر، لأنه حُظر عليه تحديداً أن يقترب من المغربيات أثناء إقامته القصيرة في البلاد. ولكنّه لم

* paréo: وزرة أو تنورة تاهيتية، وهي كلمة تاهيتية - المترجم.

يذعن.

بعد نظراته المتقدة وابتساماته المبهمة، حدثني قلبي عن
نواياه.

ومع ذلك لم أتوقع أن يفتح لي الباب عارياً مثل دودة.

- ادخلي.

كانت الصدمة الأولى. ارتقيتُ إلى الداخل مذعورة من
فكرة أن يكون أحد ما قد رأي، أو رآه، علاوة على التثبت
من أن الوقت لم يعد للأغاني الإيطالية عند مغيب الشمس.
أكنتُ أرغب في الجنس؟ اعتقدتُ بأنني سأحصل على بعضه.

فتمدد على سرير، مرتخياً، فاردأ ذراعيه. فتح درج
طاولة السرير، وأخرج منه واقياً ذكرياً، ومدّه إلي.

يا للهول. لا أعرف كيف أستخدمه. بذلتُ جهدي حيال
الجراب الصغير، دون التجرؤ على رفع عيني. سأبذل حياتي
لكي أختفي، أتوارى، أتفتت في مكاني. وكانت حركاتي مرتبكة
جداً بحيث انتهيت إلى تمزيق الغلاف والواقى دفعة واحدة.

تممت، اعتذرت، ارتبكت.

أسرعتُ وانزويت في الحمام. كانت يداي دقيقتين.
وصدغاي يخفقان بشدة شعرتُ معها أن جمعتي ستحطم.

عند عودتي إلى الغرفة، رأيتُ شريكي يمدني بالواقى الثاني
مع ابتسامة مرحة.

- لا تتلفيه، فهذا هو الأخير!

أنا، أتلّفه؟ آية فكرة. توخّيتُ العناية به، عناية فائقة بحيث فقد صبره، أخذ الجراب الصغير مني بيديه، ووضعه بلا مساعدتي. ولما بقيتُ مزروعة في مكاني ببلاهة، أخذ بيدي ووضعها بقوة على ذكّره. بقيتُ مثبتة في مكاني بلا حراك، أسأل نفسي عما قد يمكنني أن أفعله بيدي اليسرى. نظر إليّ، ورأيتُ في عينيه أنّه كان ينتظر شيئاً آخر من امرأة أربعينية. أما أنا، فقد كنتُ خاوية، بلا إرادة، يستغرقني الخجل، والشكوك والصداع. سوف لن أعرف أبداً أن أمارس ذلك.

أرخي تدريجياً يديه عن عناقي، وحاول أن يوحى إلى يدي بحركة لم أقلدها، ثمّ تهدّل ساقطاً على السرير، متنهّداً.

— لا طائل من هذا.

لن يكون هناك طائل من هذا وأنا أوّل من أعرف ذلك. سيعود إلى وطنه الأم أمريكا دون أن يفهم شيئاً عن المغريبات. من جهتي، اقتنعت بأنّ لا شيء ولا أحد سيعوضني حياة مفوّتة.

سوف يجعلني ايريك، بعد ذلك ببضعة أشهر، أكتشف خطأ قناعتي تلك. إذا كان هو رجل حياتي، فذلك ليس فقط لأنّه فتني، كما في الروايات العاطفية الرديئة، أو لأنني أشعر بأنني سوف لن أعيش إلا كنصف إنسان حينما نفصل، فهذه الأمور مشتركة بين جميع الناس الذين يتحابون.

لقد عرف ايريك أن يجد المفتاح الذي نزع بضربة واحدة الرتاج عن قلبي. نجح حيث فشل كل الأطباء النفسانيين: لقد أعاد كتابة الوصفة المفقودة أبداً، سطرّاً بسطر. جعل منّي أكثر

من مجرد امرأة: جعل منّي امرأته.

قادته رحلة مدبرة من العناية الإلهية إلى المغرب، حيث التقينا كأكثر الجاهولين من الناس الأحرار، أثناء حفلة زواج. وهو لا يعلم بعد أن ذلك سيكون بالنسبة له بداية طريق شائكة طويلة، لازلت أريدها لنفسى كلّ يوم. كما لا أعلم أن هذا الجسور الطويل بابتسامته الماكرة، والذي يصغرنى بأحد عشر عاماً، سيكون هروبي الوحيد والحقيقي.

أعلم فقط أنه لم يطرح نفسه كغاو أو كآسر للنفوس، وأنه لم يعرضني ولا للحظة إلى الخطر. امتدّ حديثنا حتى مطلع الفجر، دون أن نشعر بمضي الوقت. ضحكتُ من كلّ قلبي، لم أصدّق ذلك بنفسى. لقد خلّقنا لنتقي: يتكلّم العربية بطلاقة - عاش كلّ شبابه في لبنان - إنه وديع، ودود، ظريف، رقيق، ذكي، ساخر، إنه...

إنّها المرّة الأولى منذ إطلاقى التي لا يتحوّل فيها لقاء منفرد برجل إلى غثيان وهموم. معه، لم أشعر بالخوف. إنه الوحيد الذي جعلني أشعر ذاك الشعور بالأمان. شعرتُ في الحال بأنّ هذا الرجل سوف لن يخضع لتأثير أيّ ضغط كان.

شعرتُ بقوة. واستشعرتُ لطفه. عرفتُ في الحال أنّه سوف يحبّني لما أنا عليه فعلاً، لا لما أمثله. حينها، بدا لي أنّ كلّ شيء طبيعيّ جداً حينما أكون معه، بحيث سيطيب لي الذهاب معه، بلا تبصّر، بعيداً عن قلاقلي وشكوكي.

في ذلك المساء، آمنتُ أخيراً بالحب. ولكن، للأسف، لم

تكن تلك هي حالنا. احتاج ايريك إلى شهور طويلة من الصبر والشغف لكي تتكرر حالة النعمة العابرة تلك وتمتد. روضني تدريجياً. أخذ وقته الكافي. وإن كنتُ حتى وأنا معه، لا أزال أجد مشقة في الشعور بالاطمئنان، فقد ردّد بلا كلل بأن هذه ليست سوى لحظة عابرة...

من خلال اللمسة، واليد، وطريقي في الحديث إليه، والجلوس إلى جانبه، أدرك في الحال أنني كنتُ طفلة متكررة في هيئة امرأة، متمردة تخفي ألمها. أمضى ليلتنا الأولى في مداعبتي ولم أبدي أية مقاومة.

قادني، شيئاً فشيئاً، دون أن يعاجلني، إلى ما كنتُ أعتقده مستحيلاً إلى الأبد: اللذة.

خلال عام، قام برحلات متتالية بين المغرب وفرنسا. وليكون أقرب إليّ، أهداني هاتفاً نقّالاً. وكنتُ من أوائل مَنْ اقتناه في الدار البيضاء. حتى أثناء غيابه، أشعر أنني محمية. أسمع ذلك الهاتف يرنّ من عشر إلى خمس عشرة مرة، في اليوم، وأكون أقوى امرأة في العالم. بعد الآن، هناك في حياتي مَنْ يمكنني الاعتماد عليه، إنه درع أمان. قبل أن أعرفه، كنتُ يتيمة، وبعلاقتي به، حتى حينما لا أكون إلى جانبه، أصبح امرأة أخرى، أصبح متآلفة مع ذاتي. إذا كانت لكلمة الحرية من معنى أبدي، فذلك من خلاله ومن خلاله وحده.

رافقني ايريك في طريقي الطويلة نحو إعادة الانسجام مع نفسي، دون أن تهن عزيمته. حينما أعترف بالإخفاق، يدفعني

بهْدوء ولكن بثبات. وحينما أكون فهب الإعياء والإحباط
مستسلمة، حينما أحتاج إلى أن أتكور على نفسي في ركنٍ
بانتظار أن تمضي الحياة، وحده هو من يعرف أن يوقني على
قدمي ويدعني استسلم له.

— سننال ما نريد، قال لي مع ابتسامة مطمئنة.

نحن. لأننا اثنان، وهذه هي المرة الأولى التي أكون فيها
واحدة من اثنين. ايريك من هؤلاء الرجال الذين، بدل أن
يكبحوك، يبعثون فيك القوة التي تحتاجين.

ليست لدي سوى تجربة قصيرة في الحياة الزوجية، ولكن
يبدو لي أن التجربة نادرة. سألحق به إلى آخر الدنيا.

لقد برهن لي، من خلال الانتقال إلى ميامي من أجلي،
بأنه هو أيضاً سيلحق بي إلى هناك، إلى آخر الدنيا.

هذه هي المرة الأولى التي يقضي فيها ايريك أعياد الميلاد
في مراكش. وددت أن يكون ذلك ماراتون المداعبات
والملاطفات. أمضينا ساعات طوال في قلب سوق المدينة عند
بائعي الأعشاب الطبية الذين طالما أحببت رفقتهم.

عرض أحدهم علينا نبات مزهرة صغيرة استعملها
أسلافنا (لم تُخلق الفياغرا بالأمس فقط): سلاحف قرمزية،
حربايات، « تعويذة بالنسبة للنساء»...

سألته إن كان لديه شيء ما لرجل. مجرد الحديث بحرية
عن الشهوة أمدني بارتياح كبير. لم يصدق ايريك، القادم من

بلد يُتصوّر فيه بأن المرأة المغربية تخفض عينيها في الحلّ والترحال.

- الرومي معدوم؟ سألني الشخص بابتسامة صفراء.

- لا، لا، الرومي ليس معدوماً تماماً. ولكن أريد أن تعطيني شيئاً لإقامة الحفلة طيلة الليل. له ولي، أكثر قليلاً.

هزّ رأسه. وجلب من عمق حانوته الصغير مكونات وصفة سلفية، مع رماد الضبّع كمادّة رئيسية، مثلما أكّد لي.

تحت أنظار إيريك المرتابة، طحن الحانوتي مجموع المكونات وأفرغ المزيج في دورق.

- ها هو، يا حلوتي! ملعقة قهوة في كأس شاي له، وملعقتان لك. وإلا... ستكون مشكلة!

وهكذا بدأت حفلة الشاي، منذ عودتنا إلى البيت. كجيشا* حقيقية، أخذت حماماً معطراً، قبل أن أدهن نفسي بالمراهم. بضع قطرات من المسك في تجويف رقبتى، وشعري لا يزال مبتلاً، والمثزر

مفتوح بلا مبالاة، دخلتُ دخولاً مسرحياً متفاخرة متباهية. على إيريك أن يعود إلى باريس في اليوم التالي... أردتُ لهذه السهرة، والليلة التي تكملها، أن تكونا سهرة وليلة لا تُنسيان. بينما

تناول إيريك ملء ملعقة حساء من المزيج، تمسّدتُ على

* الجيشا (Geisha) اليابانية، مغنية وراقصة ورمز للجنس - المترجم -

السريـر، والمتـنـزـر مـفـتـوح. مـلـء مـلـعـقـة حـسـاء... كـان بـائـع
الأعـشـاب قـد قال مـلـء مـلـعـقـة قـهـوة، وـلـكن ما الفـرق؟ عـلى أيّ
حـال، لـأـكـون واثـقـة مـن عـدم التـعـرّض لمـفاعـيل المـزيج، ابتـلـعـتُ
بـنـفـسـي مـلـعـقـة مـنـه فـي المـطـبـخ بـمـفـرـدي، قـبـل أن أضـيـفـه إـلى الشـاي
مـقـدّماً. لا ضـير مـن الإفـراط فـي اللـذّة. دـون أن يـحـسـب المـرء بـأنّه
لـيـس واثـقاً مـن نـفـسـه أبـداً، حـيـنـما تـكـون لـه حـيـاة مـفـوّتة...

تـمـدّد رـجـل حـيـاتي بـدورـه، التـوى رَأـسـي قـلـيلاً، تـفـوّقت
الرـغـبـة فـي غـفوة صـغـيرة عـلى الحـمـيّة الجـنـسيـة. غـطّ ايريك بـاكرأ
فـي النـوم، بـيـنـما انـغـلـقت أجـفـاني عـلى مـشـاريـعي عـن لـيـلة مـجـنـونة.

فـي الثـانيـة فـجـراً، اسـتـيقـظـنا دـون أدنى رـغـبـة، اللّـهـم سـوى
الرـغـبـة فـي ألا نـعـود إـلى النـوم. فـأمـضـى ايريك آخـر سـاعـات
احـتـفالـه المـغـربي بـأعيـاد المـيـلاد فـي مـرقـصٍ، مـترنّحاً غـير مـصـدّقٍ
عـلى حـلـبـة الرـقـص.

طـلـع فـهـارٌ مـشـوشٌ بـالأخـضر والأزرق بـيـنـما نـتـكـور فـي سـيـارة
الأجـرة الـتي أـقـلّـته إـلى المـطار. يُثـقـلُ عَلـيـنا شـعـورٌ بـالإخـفاق، سـوف
لـن تـنـجـح الكـلـمـات فـي التـخـفـيف مـنـه. بـدت لـنا هـذه اللـيـلة
الأخـيرة، مـع أنـا نـعـلم بـأنّـها لـن تـكـون الأخـيرة، فـجـأة أنّـها خـطـيرة
ومـثـقـلة بـالعـواقب.

فـي الصـباح التـالي، بـيـنـما كـنتُ أجـترّ خـيـبـتي ويأسـي، رنّ
الهـاتف. إنّه ايريك. قال فـرحاً:

— أحـزري ماذا؟

— ماذا؟

— أنا في حالة انتصاب دائم! لقد راودتني الحالة في الطائرة، ومنذ ذلك الحين، أنا عاجزٌ عن فعل أي شيء! لم يعد ذكرى يرتخي.

لم يلقَ ايريك أسلحته، إن جاز لي القول، لثلاثة أيام. لا بدّ أنّه لعني، من أعماق عزلته الباريسية، أنا وكل عطارى المغرب، بمساحيقهم الضبعية، وتعويذاتهم، ومراهمهم العجيبة. لا يزال يشقُّ علي التخيّل أن منزراً موارباً كان ليكفي، وحده، لجعلني مشتهاة، ولكن مسحوق الدجالين ذاك ضمّ في قعر خزانة زبدة الفول السوداني الذي جلبَ لي من مكانٍ أجهله، والذي أمقته.

بعد بضعة أشهرٍ من ذلك، امتدّ حبنا أخيراً، في فرنسا، إلى وضوح النهار. أعيش في بيته. أنا إلى جانبه في كلّ ليلة. إذا تركني في الصباح فذلك ليلتقي بي على نحوٍ أفضل في المساء.

حلّت فورة جنسية، مبرّرة بلذّة، في العطلات الأسبوعية المسروقة محلّ رقابة البعض وحكم البعض الآخر.

ولكن طريق ايريك الشائكة لم تنته... عاد هوس الأمومة، المكبوت لأمدٍ طويل جدّاً، المكظوم، المحجوب، بقوةٍ ليحشر نفسه بين اللذّة وبيننا. لم يعد هناك شيء سوى هذه الفكرة المعذّبة: أن أنجب. أن أصبح أمّاً.

ماما، هذه الكلمة هي الأحبّ إلى قلبي من كلّ

الكلمات التي أعرفها. في كلّ لغات الدنيا، تعني الشيء ذاته: الحبُّ بين امرأة وطفلها.

لأتملك تلك الكلمة، سأكسر كلّ الأبواب خلال ثلاثة أعوام؛ أنا غير القادرة على أن أطلب طبقاً من عجة البيض دون أن يُغشى عليّ، تابعتُ الفحص تلو الفحص.

أريد طفلاً. أريدُ أن يُنظر إليّ كأّم، أن يكلمني الناس عن ولدي، أن يستهلّوني بأسئلة بلهاء: هو في أيّ صفٍّ، أو هل طلعت أسنانه أو هل اشتريت هذه التوراة الصغيرة؟ أريد الدخول إلى النادي العالمي للميارات الأمّهات الخرفات، اللواتي يقتصر عالمهنّ على التفاخر بصغيرهنّ الأخير.

أصبح الأمر عقلياً، علمياً. حسبنا الأيام والدورات والرؤوس والقيعان. انتهيت تدريجياً إلى أن أطرح على نفسي أسئلة مؤلمة حول شرعية الزوجين والجنس وهذه اللذة التي يأخذها المرء هنا حيث آخرون ينجبون.

لم أعد أدري ما هو الصائب، ما هو الصحيح، كدتُ أكره من جراء ذلك رجل حياتي، الرجل الأحبّ إلى قلبي.

قبل عدّة سنوات، أثناء تصوير، أحد الأفلام رجلٌ إيطالي يدعى غورينك، يهوى المظهر النازي بالجزمة والسوط، قال لي جملةً لم أنساها أبداً:

- أنتِ وأخواتكِ، وظيفته في الحياة هي إنجاب الأطفال.

بغضّ النظر عمّا إذا كان الرجل الطيّب يحنّ أم لا للعهد
العظيم لذوي القمصان السوداء*، غالباً ما أقول لنفسي إنه لم
يكن مخطئاً...

عاش ايريك تلك الدوّامة التي قوّضت علاقتنا الثائية
دون أن يضطرب، دون أن يحيد، وخاصة دون أن يتخلّى عن
كفاحه الذي جعل منّي، تقريباً عكس إرادتي، امرأة حرّة.

في ليلة زواجنا، حجز جناحاً فخماً في فندق رافائيل،
شرنقة ساحرة كما تحلم بها كلّ الفتيات، صغيرات أم كبيرات.
منزراً بلون السلمون على السرير، كوعد خبيث. زجاجة كبيرة
من الشمبانيا، ألواح من الشوكولاته، ستائر مُسدّلة، أنوار
خافتة؛ إنها اللعبة الكبرى في ديكور حالم... حيث سيجعل
أصدقائنا من الجناح منزلاً مملوكاً كلياً حتى الخامسة صباحاً.

ففي الساعة السابعة تماماً، ايريك على موعد في المستشفى
الأمريكي ليسكب في أنبوب، البذرة النفيسة التي ستجعلني أمّاً.
في السابعة صباحاً، في اليوم التالي لزفافه...

- أكرهك، قال لي دون أن يفقد تلك الابتسامة
التي جرّدتني منذ الأزل من أسلحتي. هذه أسوأ ليلة
زفافي في التاريخ!

أعتقد أنني تزوّجت قديساً.

* ذوو القمصان السوداء: هو اللقب الذي أطلق على أعضاء الميليشيات النازية الإيطالية
بدءاً من عام 1919 - المترجم-

الحلم الأمريكي*

كانت الولايات المتحدة تجسد حلمي. منذ كنت في السابعة عشرة من عمري والتانير القصيرة تجتني. وفي ذلك الماضي الذي يصعب جداً تخيله، أقل ما يمكن قوله هو أنني لم أضجر فيها. قبل الانهماك في البكالوريا، تسللت إلى نيويورك، مثلما تسللت فيما بعد إلى باريس أو الرباط أو الدار البيضاء، لألقي بشلة من بينها مارفن دايان، ابن أخ موشيه، الأمر الذي وضع وزراء الملك في حالة ارتباك. عدا والدي، الذي ابتسم للأمر. كنت قادرة على الخروج كل ليلة، دون أي شعور لا بالخطر ولا بمفاتيح الخاصة.

في لوس أنجلوس، رافقت للأنهزة، الشقيقة الصغرى للحسن الثاني، وأستقبلنا في هوليوود: التقيت هناك بسـ زازا غابور وادوارد ج. روبنسون، وطبعاً على كيثان ماليو الرملية، ستيف ماك كوين الذي دعاني لرقصة بوغي في صحراء كاليفورنيا. كم هو بعيد المنال كل هذا! القول بأنني لربما كنت سأصبح ممثلة طلقت مرات عديدة على حافة مسبح هوليوودي.

لم تعد الولايات المتحدة، والحال أنها تُدعى الآن أمريكا، تسحر الكثيرين من الناس، ربما لأن العالم أصبح أصغر، ولأن الطائرات تطير أسرع، والمرء لم يعد مرغماً على الصراخ في الهاتف ليسمع صوته من نيويورك. ولكن بالنسبة

* هذا العنوان وارد في النص الأصلي باللغة الإنكليزية American dram - المترجم-

لي، لم يتغير شيء. وكتابي الذي نُشر على نحوٍ واسعٍ في البلدان الأوروبية، شقَّ عليّ أن أصدّق الناشر، الذي أكّد لي بأنّه، بقليل من الحظ، سيُباع قريباً في الولايات المتحدة. كتابي، في أمريكا؟ مستحيل، مستحيل. لقد سبق وصعب عليّ كثيراً أن آلف حقيقة أنني أقرأ في أوروبا، حقيقة أن أناساً يهتمون بي. ولكن في أمريكا، هذا كثير، كثير جداً.

– هذا بسيط جداً، قال ناشري بابتسامة. سوف لن يُنشر هناك ما لن تقومي ببعض الدعاية. فالأمريكيون لا يشترون بالمراسلة، إنهم يريدون التعرّف على البضاعة.

– سوف لن يتعرّفوا على شيءٍ البتّة. من المستحيل أن أذهب إلى هناك.

– تصدميني عند كلّ توقيعٍ، يا مليكة.

– هذه المرّة، الأمر يختلف. لا أستطيع، لن أذهب.

بعد ثلاثة أشهر، كنتُ في الطائرة، وفي رأسي كلّ النصائح التي تُسدى لفتاة صغيرة تسافر بمفردها. لا تنسي جواز سفرك. احتفظي ببطاقتك معك. ارتدي سترتك الفرو، فالجو باردٌ في نيويورك.

نيويورك؛ عبرتُ، والأصابع قابضة على جواز سفري، الخط الأصفر الشهير الذي حلم مهاجرون كثر بحياتهم الجديدة خلفه. ثم تتالى كلّ شيء: جيء للبحث عني، الملحق الصحفي، والسائق، وسيارة الليموزين، وأمتعتي المأخوذة بأياد غير مرئية، والتي وجدت طريقها لوحدها إلى صندوق السيارة. أهلاً

وسهلاً في أمريكا Welcome to America، قيل لي عندما نودي عليّ باسمي. وسُئِلْتُ إن كانت رحلتي مريحة؟ نعم، شكراً. كان طابور مَنْ ينتظرون سيارات الأجرة طويلاً جداً، ولكن ما هم، فسيارتنا متوقفة هنا أمام المخرج، وهي تومض بكل أضوائها. غاص جسمي في المقعد الناعم الملمس، وقدم لي زجاجة مياه من بيرييه خارجة للتو من بار مُنار بالنيون. انسابت الليموزين على الطريق السيّار، تتالت الأنوار سريعة بحيث لم أر سوى سحباً من الألوان.

شرح لي الملحق الصحفي مسبقاً برنامج الأيام القادمة، وأعطاني بلا ترتيب اسم فندقني، والنشرة الجوية الحالية، والطرق الواجب سلكها إذا أردت تأمين متابعة إعلامية نوعية ومتميزة. لم يقل السائق أي شيء؛ هذا طبيعي لأته سائق، وقد رأيتُ عينيه في المرآة العاكسة. مَنْ أكون أنا، حتى يقودني هذا الرجل، بتدلل، دون أن يقابل قط نظري في المرآة؟ شعرتُ بانقباض في قلبي لفكرة أن يكون هنا من أجلي، ليخدمني، وحتى إن خُدمتُ طيلة شبابي، لم أعد أشعر بروح امرأة ثريّة. كنتُ متضايقّة، وددتُ لو أعتذر منه. ذلك المساء، كم بدت لي بعيدة المؤتمرات الصحفية في ليون أو ستراسبورغ، والتزول من القطار حيث كنتُ أبحث، وحيدة أحياناً، عن سيارة أجرة لتزليني أمام الفندق الصغير للمقاطعة ذي الفتنة البالية. حينها، كانت أمريكا هي تماماً أمريكا استيهاماتي، آلة مرعبة وأخاذة في آن والتي تغطيني وتحملني نحو مستقبل مرسوم ومخطط تماماً. أغلقتُ عيني، مبهورة بخير المحركات. سيمكنني أن أكون نجمة، هذا المساء.

— من الطبيعي انجيء لاستقبالك، ابتسم الملحق الصحفي.
يُسعدنا أن نستقبلك.

— سأعود حالما ترتاحين لبعض الوقت، قال صوت الملحق الصحفي، الذي جاء يشوش من جديد سير أسئلتى المتافيزيقية.

لأننا أصبحنا في الفندق، حيث جاء ساع بلباس أخضر يفتح لي البوابة، بينما وضع آخر حقائبي على عربة كبيرة مذهبة. أهلاً وسهلاً Welcome، مرة أخرى، good evening madame أسعدت مساء يا سيدتي، وُجِّهتُ نحو مكتب ضخم حيث جعلني بواب متصنّع في لباسه وكأئه أمير ويلز* أن أوقع استمارة. سار كل شيء سريعاً، صُعِبَت علي المتابعة. كان بهو الفندق مدوّخاً: فهو واسع، بأكمله من الممر والمرايا. يمرّ فيه عدد هائل من الناس، مستعجلين، حتى يُخال أنه باحة محطة فاخرة.

أخذ جواز سفري (لمرة، لم يكن لدي الوقت لأقلق بشأنه)، وأعطيت لي بطاقة أشبه ببطاقة ائتمان أكدوا لي أنها مفتاح، وصحّني رجل آخر قصير يرتدي اللباس الأخضر، وكذلك عربتي المذهبة، نحو المصاعد الأربعة، المذهبة هي الأخرى. توقف المصعد الأول، المنجد والملبس بخشب الأكاجو كسيارة ليموزين. ثم وصلنا إلى الغرفة التي وضع فيها الساعي أمتعتي قبل أن يتمنى لي طيب الإقامة. أمريكا هي البلاد التي يتمنى الناس لك فيها أكثر أشياء كثيرة هنيئة. هنيئاً مريئاً، إقامة

* Prince de Galles لقب يأخذه الابن البكر للملك في إنكلترة منذ عام 1301 —
المترجم-

هائلة، وصولاً هائلاً، عصيرة هائلة، سهرة هائلة... لو كان جزء يسير من هذه الأمنيات يتحقق، لكانت أمريكا بالتأكيد الفردوس على الأرض.

- أين جهاز التحكم؟ سألته مذعورة.

- هنا، يا سيدي.

- آه، شكراً.

يتقن الرجل الطيب عمله، فبعد تحققه من أن تشغيل الجهاز يشغل بالي بعض الشيء، (استغرق الإمام بدقائق جهاز التحكم الباريسي شهراً كاملاً من وقتي)، شرع يشرح لي طريقة استخدامه. هنا، لتغيير القناة، وهنا لقائمة القمر الصناعي (القمر الصناعي؟ هاأنا ذا في عالم جيمس بوندا)، الصوت إلى الأسفل، توقيف التدوير إلى الأعلى، ما تبقى لا يهم.

وضبط التكيف؟ زرّ ضخّم مثبت على الجدار، مع درجات وأرقام في كلّ مكان منه... وركوة القهوة؟ لا أجيد حتى استخدام ركوة القهوة. فشرح الساعي، بأناة، من جديد. وأعاد الشرح مرّة أخرى. أمضى ما لا يقلّ عن ثلاثة أرباع الساعة، والابتسامة لا تفارقه، في تقديم التفاصيل عن تشغيل الصنابير (هيا اعرفي كيفية استخدام هذا المقبض الذي يُسَدّار ويُسحب في كلّ الاتجاهات حتى الحصول على درجة الحرارة المناسبة)، وعن البار الصغير (المقفل بالمفتاح، لا شك لمنعي من سرقة أيّ شيء منه)، وعن القواطع الكهربائية الست السهلة

المنال حينما نكون في السرير، وعن الخزانة الصغيرة المثبتة في الخزانة الجدارية (خزانة يمكن إسكان زوج من الطلبة فيها بسهولة).

لحسن الحظّ، بقي لي التلفاز، المألوف والمسكن، لولا أنّه أفرغ جهده في البث باللغة الإنكليزية. هناك مئات من المحطات، وهي كثيرة جدًا لزوج وحيد من العيون، وكافية لتسلية أكثر المشاهدين ضجرًا. ما همّ البرنامج، الشاشة الصغيرة صديقتي، صديقتي الأمريكية، الوقية والمتفرغة لي ليلاً ونهاراً. طوال يومين، باستثناء اللحظات التي كان الملحق الصحافي يطلبني فيها ليدسني في الليموزين، شاهدت التلفاز دون أن أتحرك من غرفتي. في الخارج، هناك نيويورك المدينة الكبيرة الأسطورية التي تغدو باريس أمامها دسكرة ريفية. احتجتُ إلى شهورٍ لأواجه باريس وأعتاد عليها، بمساعدة رجل حياتي وأصدقائي... لا شيء في العالم سيدفعني إلى أن أكتشف بمفردي التفاحة العظيمة، التي تلفظ في الهواء القارس أعمدة طويلة من البخار، خارجة من أفواه المزاريب وسط الشارع. تبدو نيويورك تتنفس تحت قدمي، وقد تزدردني لقمة واحدة.

أخيراً، بدأت «الدعاية». وأنا التي كنتُ أعتقد أنني قد رأيت كل شيء، لم أصدق ما رأيته عيناى.

– ستقدّمين في كلّ الأقنية التلفازية المعنية، قيل لي أثناء الموعد الأول مع الناشر الأمريكي.

أمام الآلة الإعلامية الأمريكية، استحالت الدعاية الباريسية

نزهة ريفية. نيويورك غلاية، غطّستُ فيها فجأة ككيس شاي صغير. سبّب لي غدائي الأوّل مع Good Morning America صباح الخير يا أمريكا، عند شبكة CBS الدوّار، كان يجب أن أتناول الطعام وأجيب على الأسئلة، وأتظاهر بمعرفة كلّ شيء، وأعبر عن أفكارى بالإنكليزية! ثم كان راديو NPR ، و Fox TV ، و CNN ، (إنها المدفعية الهائلة)، أخبرتني الدائرة الإعلامية بفرح، بينما سيارتي الليموزين لا تهدأ ولا تقف لثانية واحدة. ولعدم إضاعة لحظة واحدة، يُستفاد من أوقات الاختناقات المرورية لمواصلة العمل عبر الهاتف: هاتف السيارة، ولكن أيضاً النّقال... لقد وهب الله أذنين للملحق الصحفي، يحمده عليهما كلّ يوم.

- Hold on a second.

وبالنظر إلى مفكرته، وتسطير وشطب وقلب الصفحات بعصبية، عندما لا يكون «المنظّم» جاهزاً. «المنظّم» هو نوع من جهاز يعرف كلّ شيء، حجمه بحجم علبة السجائر، ويُنقَر بمساعدة قَلَمٍ صغير لجعله يتكلّم. كدتُ أشتكي منه، ذلك الجهاز الذي تمّت محاولة شرح استخدامه لي لخمس عشرة مرّة، والذي يعاني من إرهاق مستمر. يُنقَر المنظّم، ويُعاد نقره، فينتهي بالبوح بسرّه: يُعطي كلّ شيء، أسماء، أرقام، تواريخ وآيام. على ما قيل لي، يمكن دسّ محتويات قاموس في هذه الأجهزة. والأفضل من هذا: إنها تصحّح الإملاء، تماماً مثل أستاذ، أولاً بأوّل، ما أن يُضرب عليها. لقد صرفت النظر عن

فكّ رموز هذه العجائب الفرعونية منذ أمد طويل؛ الأمر الوحيد الذي يهمني اليوم، هو أن أحظى ببضعة لحظات من الراحة قبل أن تتوقف الليموزين من جديد، وأدفع إلى خارجها، ويُرحّب بي وتُستأنف الدوامه. لا شكّ أنّه في حرم جامعة نوتر- دام في شيكاغو، كنتُ الأكثر تأثراً: فقد تملكّني حقاً نوبة من الغيرة أمام كلّ تلك الوسائل المدهشة الموضوعة بتصرّف الطلبة. فقد وجبَ عليّ أن أقوم بوظيفة معلّمة المدرسة لأخوتي وأخواتي، بواسطة مخيلتي وحدها.

من وقتٍ لآخر، وجد فريقنا الصغير نفسه في عين الإعصار، حيثُ يأخذ فرصته في طرح بعض الأسئلة على نفسه، ونحن نتناول السندوتش. هل أرسلَ الكتاب إلى اوبرا؟ نعم، ردّ ملحق صحافي، ولكننا لم نلقَ الردّ بعد. رغم التذكير لمرة أو مرتين.

- لا بدّ من الاتصال بها، قال الناشر بين لقمتين، وسماعة الهاتف على أذنه.

كانت تلك هي اللحظة التي اخترقها لإبداء رأي، ربّما هو الرأي الأوّل منذ أن رُميتُ في لجّة الإعصار. لأنني تألّمت بعض الشيء للخضوع الصامت الذي يجعلني بلا شكّ أبدو في عيونهم امرأة بلهاء.

- الاتّصال بها للمرة الثالثة؟ ولكن من تظنّ نفسها، تلك المرأة؟

استدارت رؤوس ثلاث نحوي، وكأني قد أهنّت الربّ الأب.

- اوبرا وينفراي!

- آه، نعم.

قلتُ نعم، ولكنني لم أعرف مَنْ هي اوبرا وينفراي. إطلاقاً. وخبّنتُ، في الوجوه المذهولة لرفاقي، أنّها شخصية هامة. لم أتخيل بعد إلى أية درجة هي شخصية هامة، بكل ما تعنيه العبارة، وكم سيبذل لقاءنا حياتي.

لقاء غريب كاد ألا يحصل. في عام 2001، وأثناء ماراثون جهنمي، نظّمت تينا براون، التي كانت تدير حينها مجلة Talk الصادرة من ميراماكس، مأدبة غداء صحبة ما يقارب أربعين امرأة نافذة. أعلمتني صديقتي ناتالي مارسيانو بأنّ هناك حفلة كبيرة بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لصدر مجلة Talk، وأنّ اوبرا ستكون حاضرة فيها. وماذا يعني؟ قلتُ لها: ومن تكون هذه؟ في ذلك المكان الذي ضمّ في أدنى حدّ ألفي شخص، اجتاحني ضجيج فظيع كأعماق صاخبة، شعرتُ بنفسني كحيوان نادر سأقدّم للبيض المتمدّنين. فقدّمت، وحُشِرْتُ بين أياد مجهولة، شعرتُ بتعارف مصطنع بعض الشيء. مترنّحة نحو المائدة، لمحتُ امرأة معضلة أشارت لي بإشارة النصر: «مرحى لأجل برنامج ستون دقيقة!» بعد ذلك بلحظات، عادت تلك الحارسة الخاصة ودعتني للحاق بها. لمَ لا؟ أسرعْتُ، فاقدة الأعصاب، إلى مربع الشخصيات الهامة جداً VIP نحو أريكة ناصعة البياض، شاغرة من أيّ كائن بشري، والتي أدركتُ فيما

بعد بأنها محجوزة لاوبرا! كأني أُعدمتُ بالكُرسي الكهربائي،
 فهُضت ورحتُ أنضمَّ إلى جموع الراقصين. تفرّست امرأة في؛
 اقتربت مني وبنبرة حازمة، قالت: « غداً، سأقرأ كتابك. »
 أخذتني بين ذراعيها، وبمودة زائدة، كتعاهد بين النساء،
 كرّرت: « أعدك بذلك. » لم تكن تلك المرأة سوى اوبرا.

في طائرة العودة، حلمتُ بذلك البلد، بلد كلِّ الممكنات،
 حيث لا سنّ اليأس ولا العقم ولا السجن سيمنعني من ترميم
 حياتي. لمَ لا؟ ولكننا بعيدون عنه. كئنا، بالتحديد، في جنتيلي،
 كنتُ مع ايريك الذي أعددتُ له طبقاً من اسكالوب بصلصة
 كريما الفطر مع المعكرونة. رنّ الهاتف، كانت الساعة العاشرة
 مساءً. أوه، كلاً. إنه صوت ناعم أبان عن نفسه باللغة
 الإنكليزية. دعني اوبرا إلى برنامجها، في أيار 2001. ستختار
 الكتاب لناديها، وللمرة الأولى في مهنتها، طلبت مني الحضور
 إلى البرنامج حيث سيكون عليّ الردّ على أسئلة لجنة نسائية
 منتقاة من بين أربعة آلاف مرشحة.

البقية تخبر عنه وقائع النشر: باع الناشر الأمريكي ما
 يقارب 700000 نسخة. ولكن ليس لهذا أية أهمية إذا ما قارنته
 بالتأثر الذي كان يسود تلك المنصة.

حينما سأعود في عام 2002، لتسويق كتاب الجيب،
 سيهمس مشاهدان، واقفين أمام استديو التلفاز، لدى اقترابي:
 «هذه أميرة المغرب.» وهذا دليلٌ على أنّ المرء لا ينجو من
 قدره، وان كان وهمياً! إنّ إغراء الشهرة وقتي وزائل. ولكن
 الأمريكيين أدركوا أن لغة الألم كانت شاملة، وأن رجلاً أُعْثِرَ

كأب يضعك لعشرين عاماً في سجن للأشغال الشاقة، هذا أمرٌ يتجاوز الحدود. وجب علي أن أراقب أقوالي، لأنني لم أكن أريد إطلاقاً أن يتم الخلط بين بغضي الشديد للملك وبين البلد الرائع جداً الذي كنتُ أشجع الناس على الذهاب إليه.

الولايات المتحدة: لم أتوقف عن التجوال في هذا البلد العملاق. كل شيء هنا مفرط فائق الحدود. شرائح اللحم الكبيرة التي تكفي إضافة القوائم إليها لتصبح أبقاراً، وبالإضافة إلى الكميات الكبيرة من البطاطا؛ حتى ولو كررنا أن الطعام الأمريكي لا يساوي مآثر الذواقة الفرنسية، فأني من جهتي لا أرى في ذلك سوى فورة كرم. حرّري المخزون الشامل من خجلي الباريسي: هنا، لم أعد أتخفي أن أجمع، وصرت على مرأى ومسمع من الجميع، وبمعرفتهم، الأكياس المخصصة لإطعام الكلاب التي تتكدّس في الفندق. سوف لن أتناول كما في باريس رقائق البيتزا ونصف شريحة اللحم أو البطاطا الباردة.

ما دام علي أن أجمع، شئتُ غارة على المنتجات الصغيرة، من مراهم وشامبوان وعيدان القطن المنشّفة للأذنين، وألواح الصابون الصغيرة، التي تضعها أياد غير مرئية كل يوم في حمامات الفندق. إنها جذابة للنظر، متقنة الصنع، مدموغة بشعار الفندق، منمنمة كأنها لوازم دمية... لابد أن تكون في أمريكا حتى تحظى بترف يتجدّد يومياً دون أن يُطلب منك قرشاً واحداً. سرعان ما اضطررتُ إلى استخدام كيس ثان، امتلاً بتلك الكنوز التي لا تنضب أبداً. إن أيريك هو مَنْ سيكون سعيداً!

سيكون سعيداً على نحو خاص بالمصير المذهل الذي سير
شهادتي تحت أنوار المسرح، متيحاً لي طرد مَنْ تبقى لي من
العفاريت. الكتاب نجاح، رُدّد ذلك على مسامعي كل يوم؛
حتى أنني وقّعت نسخاً وسط الشارع، وكأنّ الكلّ كان يعرف
بعد الآن حكايتي. إنها هنا، إنها ثأري، انتصاري: أن أصرخ في
وجه العالم، في مواجهة الحسن الثاني ورغم أنفه، بالرعب الذي
أذاقه لعائلي ولآلاف الناس الآخرين. انكسر الصمت. لقد
دوّت فرنسا أولاً، والعالم الناطق بالفرنسية، ستة وعشرون بلداً
في العالم، وأخيراً القوة العظمى أمريكا، بهذه الصرخة التي
أحيت اسمي، اسم والدي. ماذا بوسعه أن يفعل هذا العاهل
المطلق السلطة ليُحيل بإشارة من إصبعه حياة عائلة بأكملها إلى
جحيمٍ سخني؟ لا شيء. ولا حتى إجراء بسيط، ولا توقيف
عابر. لا شيء. ليس بوسعه سوى أن يُصغي إلى صوتي، القادم
من كلّ مكان، من نيويورك وغيرها من المدن، صوت أتمنى أن
يكلّفه بعضاً من الحسرة والندم.

سلكتُ من جديد طريق بناريس، محمّلة بالأكياس
والذكريات، حيث ينتظرن من أزداد شوقاً إليه كلّ يوم. أنا
خاوية ومتخفّفة ومنهوكة القوى وسعيدة في آن. لحظة صعودي
إلى الطائرة، ذكرني انقباضٌ خفيفٌ في قلبي أنّ جزءاً صغيراً مني
سيبقى في هذا البلد، لأنّه يبقى بلد المنفيين والمهاجرين الذين لا
وطن لهم. أنا أيضاً، هبطتُ من Mayflower أو Exodus،
هاتين الباخرتين التائهتين، المليئتين بأرواح حزينة، متعطّشة إلى
إعادة البناء. لم أعد أملك جذوراً، وإذا كانت التربة الأوروبية

عصية على مَنْ يحاول الاستقرار فيها، فإنّ تربة هذا البلد سهلة الحراثة، مُريحة، تكاد تكون مفتوحة لكلّ من يريد أن يُزهِرَ فيها.

سأستقلُّ Mayflower مرّة أخرى إلى ميامي. حيثُ شعرتُ هنا في هذه المدينة الساحلية، ذات المسحة الإسبانية، المجتاحة من قبل المهاجرين من كلّ الأجناس، بأنّه من الممكن البدء من جديد، أكثر ثمًا في لوس أنجلوس، التي لديّ فيها العديد من الأصدقاء. Ocean Drive: إنّهُ حلمٌ. وجدتُ نفسي فيها بحالة جيدة، وبدأ لي أن نفس التصرف أسهل هنا. أقمتُ فيها، مع نوال وايريك، مغسولة من ماضيّ، شبه عذراء، أعمل في مكتبة على الكتاب الذي تقرأونه في هذه اللحظة. انضمّ ايريك إليّ بعد عامٍ من انتقالي. لا شكّ أنّ خطأي الوحيد هو انشغالي بالسياسة. تابعت الجدل بين جورج بوش وجون كيري بوجوم. الغريب أنّه لا توجد نفس الدرجة من حرية إبداء الرأي السياسي في الولايات المتحدة كما هو في فرنسا، بل وأحياناً، كما هو في بلدي، في المغرب. مَنْ لم يقرأ السجينة خفية؟ لم يكن بوش يُنتقد حينذاك. بعد 11 أيلول 2001، لم أكن أعرف ما سيكون ردّ فعل أصدقائي الأمريكيين. أيمكن أن أكون مسلمة متطرفة؟ بعد ذلك بشهر، وخلال مؤتمر، كنتُ مقتنعة بأنني قد أرفضُ بتهذيب. مطلقاً: لقد صُفّقَ لي. كنتُ حرة. الآن، ومنذُ تبني آدم، أعيش بين ميامي ومراكش.

موت ملك

ظلّ الهاتف يلاحقني برنينه، إلى أن انتزعني من نومي. نحن في 23 تموز 1999، وما من شيء يسوّغ لي القول بأن جراحني ستفتح من جديد دفعة واحدة. رفعتُ السّماعة، تعرّفت على صوت صباح، التي تتصل بي من الدار البيضاء لأجل السرّ الأعظم. صباح صديقتي منذ زمن غابر، يمتدُّ إلى أربع وثلاثين سنة. لأنّها كانت صباح، ولأنني كنتُ مليكة.

- لقد مات، همست.

مات! احتجّت إلى بضعة لحظات لاستعيد أنفاسي.

- هل سمعتني؟

- نعم، سمعتك.

سوف لن أسألها، في آية لحظة، عمّن تتكلّم. أعرفُ عمّن تتكلّم. ذاك الذي لا يُلفظ اسمه، إنه ليس الله وإلّا هو الحسن الثاني، عاهل المغرب، الذي كان ظلّه يخيم على البلاد منذ أمد طويل جداً بحيث كان يُعتَقَد أنّه خالدٌ. لقد برهن أمير المؤمنين على أنّ ذوي السلطان يموتون أيضاً، وأن السلطة، وإن كانت مطلقة، لا تحمي من الاستحقاق المقدّر. لم يمنعني ذلك، ما أن أغلقت سماعة الهاتف، من العجز عن العزم على الإيمان بذلك، فتمثال الفارس الأمر، المثبت عميقاً على قاعدته، بدا لي - كما للجميع - أنّه خالدٌ أبد الدهر. طيلة حياة، صقلتُ عليه ظنوني، وأسألني، وحزني وكراهيتي... أيمن، في لحظة، بمكالمة هاتفية وحيدة، أن يزول من على وجه الدنيا؟

بي حاجة إلى التأكد من الخبر، إلى جعله رسمياً، إلى أن أرى وأسمع. تناقلت جميع محطات التلفزة الخبر، بالانكباب على عرض محطات موجزة عن حياته، وبث صور من الأرشيف: الحسن الثاني شاباً، الحسن الثاني كهلاً، الحسن الثاني عجوزاً. كان يُرى في كل مكان، راجلاً، في السيارة، محيياً الحشود، في الشرفة، في الصورة الرسمية، مسافراً. الكثير من المصافحات، في الغرب، في الشرق، في الشرق الأوسط، الكثير من الابتسامات المتخثرة على الشفتين، الدبلوماسية... يكاد المرء، وهو يراهم يتالون في الإيقاع المتقطع للتقارير، يعتقد أن جميع قادة القرن العشرين يتقاطرون في طابور لالتقاط الصورة العائلية رفقة ملك المغرب. لم يرد بعد جثمان الحسن الثاني، حتى بات من التاريخ... لم تنضب التعليقات التي دوت في أذني من المدح والثناء لهذا الرجل العظيم الذي تأسف عليه كل صحافي كائنه والده، وقد اختنق الصوت بتأثير إعلامي.

في اليوم التالي، منذ الساعة صباحاً، تواعد كل ما يضمه العالم الناطق بالفرنسية من وسائل الإعلام أمام باب دارتي، مسببة خيبة أمل كبيرة لايريك، الذي كان يفكر في تناول الغداء بهدوء في أنتركوت، تحت شمس تموز.

- إنهم في الأسفل، قال لي بابتسامة منكسرة.

حقاً، إنهم في الأسفل، من TF1 إلى M6 مروراً بالتلفاز البلجيكي، والقنوات البرقية، والإذاعات وبعض الفضوليين، المنجذبين إلى العدسات كالفراشات إلى الأنوار. انهالت علي الأسئلة. الأسئلة ذاتها، دائماً ذاتها.

ما هو شعورك؟

ما هو شعوري؟ أنا نفسي أجهل ما هو شعوري. قلقٌ كبير بشأن انتقال السلطات، ومستقبل المغرب، ومصير أصدقائي الباقين في البلاد. ولكن ليس هذا ما جاء الصحفيون ليسمعه... لقد مات جلّادي؛ فهم هنا ليروني أقفز فرحاً للخبر. كالصور التي سيثونها تحت العنوان: «أوفقي، تحريراً ثانٍ»، أو شيء من هذا القبيل. وبما أنني لم أبدي أي نوع من الارتياح والسرور - لم أشعر سوى بفراغ منتشر، فكيف سأظهر فرحاً؟ - جرت محاولة تقويلي ما يودّون سماعه:

- لا بدّ أن يكون هذا عزاءً لك!

- هل تشعرين بنفسك أحسن حالاً؟

كلاً، هذا ليس عزاءً لي، كلاً لا أشعر أنني أحسن حالاً. لقد تبخّرت عشرون عاماً من حياتي في بطن الغول، لن يعيدها لي موته. ولن يعيد لي والدي. لقد مات جلّادي ميتة رضية، في سريرته، مع أمجاده، وجميع محطات العالم تنعيه هذا الصباح.

شرحتُ، بهدوء، أن أفكاري الوحيدة قلب اليوم نحو المغرب، وأني لست سعيدة ولا حزينة لموت الحسن الثاني، وأني أتمنى أن تصل البلاد إلى برّ الأمان. ولكن لم يُردّ أن يُسمع رأيي.

- ولكن، في المحصلة، لا بدّ أن سماع الخبر قد ترك فيك أثراً غير عادي.

- أثر غير عادي، نعم.

- في المحصلة، هذا انتقام بعض الشيء، أليس كذلك؟

- كلاً، أبداً.

رغبتُ في أن أضيف: «آسفة»، لفرط ما بدت عليهم خيبة الأمل.

غادر الصحفيون، متأبطين كاميراتهم، خائبين، دون ضحكات أو دموع «في جعبتهم»، لا شيء يترك أثراً عميقاً في نشرة أخبار الساعة الثامنة.

كانت الخيبة كبيرة لدرجة أنه بعد نفاذ جميع الوسائل، استخدمت إجاباتي الموجزة لتأكيد أنني، وعوض أن أفرح لموت الملك، بكيتُ له. فبالنسبة لوسائل الإعلام، إما أن يكون المرء فرحاً أو مستاءً، ولا وجود للألوان الأخرى. قرأتُ في الصحف بأنني كنتُ أسعى لإرضاء النظام الجديد بإظهاره حزنًا شديدًا. بل إن صحافياً أكثر وقاحة من الآخرين انهمسك في تحليل نفسي نابه، مبرهنًا، من خلال $A+B$ ، على أنني كنتُ مرتعاً لتناذر* ستوكهولم: الضحية المغرمة بالجلاد.

لا شك أنني كنتُ سأبدي فرحاً لو أن الحسن الثاني كان قد أقرّ بأخطائه قبل مماته، لو كان اسم عائلتي قد بُرأ علانية، لو أن الصورة العامة للجلاد قد أُغشيت بكشف انتهاكات النظام وتعدياته. ولكنه رحل معطرًا، مبخراً، على محرقة جنائزية

* التناذر: تزامن أهراس مرض من الأمراض - المترجم -

تكاد تكون وضیعة، يتدافع من حولها كل واحد لكي يظهر في موقع مناسب. فهذا سيحظى بوضع الأكثر محبة والأفضل شهرة والأفضل خدمة...

(هذا الصديق العظيم لفرنسا)، (هذا الديمقراطي العظيم)، خطب السياسيون، مطبين، الذين آملين أن يكون خليفته حكيماً كوالده...

تركني الحسن الثاني يتيمة من ألمي، جرّدتني وفاته من باعشي الوحيد للكره والكفاح والتألم - ومع ذلك كان ذلك الباعث هو ما أبقاني لزمّن طويل عائمة في قاع سجن. حزن شديد كلما انقضت الساعات، لأن موت أمير المؤمنين هو في بعض منه موتي أنا. فبرحيله المفاجئ دون تسوية حساباته، دفن معه فرصتي الأخيرة لأفهم. لماذا؟ لطالما أردت أن يجيب، شخصياً، ذات يوم، على السؤال الذي راودني طيلة حياة: لماذا؟ لماذا نحن؟ لماذا أنا، التي كنت بمثابة ابنته؟

لن أحصل قطّ على إجابة لأسئلتني. وهذه الخسارة الأخيرة، هذا الحرمان الجديد من الهوية - هويتي كضحية - غادر الحسن الثاني نهائياً من المسرح مع الدور السهل.

- طبعاً، أنت معارضة للملكية، سألني صحافي معدّ ريبورتاجات، على أمل أنني على الأقل سأناهض النظام، إن لم أرقص على قبر الملك.

خيبة أمل جديدة: فقد علم بأنني أؤيد مبدأ النظام الملكي، لأنني أعلم كم هو ضروريّ لوحدة بلدي. لم يعد الحسن الثاني،

في ذهني، لا أب ولا جلال، إنه شخصية عامة مفصولة عن الجسد، تركت خلفها بلداً هشاً، مهدداً من كل تجاوزات العالم العربي المأزوم وعنفه. لست مشبعة بالفكر الإسلامي الذي يريد أن ينحني المرء أمام الموت، ممتنعاً عن النقد، وإنما علي الاعتراف للغول الذي خيم طيلة أربعين عاماً على المغرب بأنه لم يفعل سوى الشقاء للبلاد. فقط، لو أن محمد السادس يستطيع أن يظهر بأنه أقل دموية من والده، ويضع استبداد والده وعسفه في عداد كوابيس الماضي، لربما يتمكن النظام الذي ورثه أن يكون أفضل ما يكون...

— أفهم، قال الصحافي الذي أدرك في الحال بأنه سيكون عليه أن يغذي نزعته التلصصية في مكان آخر.
لم أرَ قط أثراً لتلك المقابلة في الصحافة...

لمرتين، سأخيّب أمل وسائل الإعلام؛ فحققت عليّ بما فيه الكفاية لتختلق لي تعليقات أجهلها. فموت جلّادي يتوفر على كل شيء لاسترجاع وصولي إلى باريس: فقد جرت هذه المراحل الكبيرة في حياتي دون تفجّر الفرح، وحتى دون عزاء. جاء العزاء لاحقاً، تدريجياً، حينما بدأت الكتابة. لأنّ السورق امتصّ كلماتي وذكرياتي، مزيلة العبء عن كاهلي أخيراً. ليست الأحداث ما خفف عبئي، وإنما الكتابة.

الآن، وبينما يستعدّ العالم الكئيب لإقامة المآتم للحسن الثاني، الذي لم يحظَ والدي قط بحق إقامته، آمل الكثير من النظام الجديد. كلمة واحدة. كلمة واحدة قد تكفيني. ولكن

لا يتوجب على ملك أن يعترف، تلك أمورٌ مقدرة لعامة الناس، لأولئك الذين يُرمون في السجن. إن ملكاً، مثله مثل قاتل، لا يعترف بعدالة غير عدالته...

أما الشعب، فليس ميّالاً إلى النسيان، وهذا ما يمنحني، منذ سنوات طويلة، القوة في المزيد من الأمل: منذ إطلاقي من السجن، عام 1991، كان رجال الشرطة يحْيُوني باحترام عند كل إشارة مرور، وهم يرفعون يدهم إلى مقدمة خوذاتهم. أي مفارقة أن نرى الرجال الذين كانوا في أمس جزءاً من حراستنا اللصيقة، يقتربون مني وسط الشارع ليؤكدوا لي إعجابهم، وتعاطفهم المطلق مع والدي...

في كل أنحاء المدينة، توقف قوات النظام السيارات لتيح لي المرور. لا شك أن بلدي هو الوحيد الذي يجتاز فيه المرء، الخارج للتو من السجن، التقاطعات كشخصية فائقة الأهمية VIP، دون تقيّد بالإشارات الضوئية، تحت دقات صفارة رجال الشرطة. طبعاً، هؤلاء الرجال يراعون نظام المخزن، الذي يحكم المغرب، ويحدّد عن قرب السلطة الإلهية للملك وخدمه. لا يفتابون النظام، لكنهم يحْيُون باحترام ذكرى والدي، هذا الوالد الذي أُعِد من قبل العاهل الذي يخدمونه.

والمفارقة هي أن الانتقام الوحيد، التعويض الوحيد الذي سيحمله إليّ موت الحسن الثاني سيأتي من الحقل الذي لم أكن أتوقّعه: الصحافة. إن أسوأ ما يمكن أن يحصل لرجل دولة ليس هو النسيمة وإنما النسيان. والحال أن المغاربة يجيدون أكثر من غيرهم اللجوء إلى نوع فريد من النسيان: بالكاد مرّت عِدّة

أسابيع على موت الرجل العظيم، ولم تكن الصحافة تتكلم عنه إلا نادراً. وربما لأنه دخل التاريخ، كان سبق وقد هُجِرَ حتى قبل انتهاء الحداد، ولم تعد تهم الصحف أين اختفى وجهه...

الصحيفة اليومية الكبرى للبلاد- التي كانت، أثناء حياة الملك، صوت الحكومة- تجرأت أخيراً على أن تنشر على صدر صفحتها الأولى إعادة النظر في القضية التي تحمل اسمي. لا اعتراف، ولا اعتذار من القصر، ولكن الصحافة، المتحررة من الخوف الآن، لم تتردد في أن تنطق، للمرة الأولى منذ عشرين عاماً، باللقب الملعون لعائلي. وللمرة الأولى، شاهدتُ صورة أبي تنتشر كبيرة على الصفحة الأولى، في حين أن صورة الملك، في زاوية متواضعة تكاد تكون باهتة، صغيرة جداً بحيث يجب الاقتراب منها حتى يتم التعرف عليها.

الولادة الجديدة

منذ بضعة أيام، وَجِدَتْ ترمامارت، لأنه لم يكن لترمامارت، الواقعة في جنوب-شرق البلاد بين ميدلت والراشدية، وسط الصحراء، وجوداً رسمياً. حتى أن برلماناً مغربياً، لا يعدم الوقاحة، كان قد ردّ على سؤال لإذاعة غربية: «لم يكن هذا السجن المزعوم موجوداً قط سوى في خيال أعداء ديمقراطيتنا.» وبضربة عصا سحرية: العفو الملكي، انفتحت أبواب ذلك السرداب الفظيع في عام 1999، ونجا ثمانية وعشرون معتقلاً من النسيان، أي من الموت. كانت أعمال هذا اللا مكان قد بدأت عام 1971، مستودعاً لـذخائر الجيش، وقد حوّل إلى حصن ضمت زنزاناته الستون السجناء السياسيين. كانت الزنزانات على مقاسٍ مماثل، طولها ثلاثة أمتار وعرضها متران ونصف، مع ثُرف حفرة تغوط وموضع قدم على كل من جانبيها. وصحن وغرفة وإبريق ماء، كان يُستخدم، في آن واحد، للشرب والاغتسال وتنظيف الألبسة. البعض قضى هناك أكثر من سبعة آلاف ليلة دون أن يأخذوا قطّ دوشاً ساخناً. وحمل آخرون، مثل عائلتي، السجن في داخلهم.

هكذا، بعد سنين كثيرة من حداد لا ينتهي لعائلات أولئك الذين لم يعودوا إليها أبداً، قبل محمد السادس بما لا يُقبل به، وأنا ممتنة له على ذلك. نعم لقد أرسل إلى هناك سجناء سياسيون بالمئات، منهم عسكريو انقلاب تموز 1971 في الصخيرات ومتمرّدو آب 1972 (أنصار والدي). نجا منهم

ثمانية وعشرون فقط. ماذا جرى للآخرين؟ تلاشوا، ذهبوا هباءً منشوراً. هيا اعرفوا.

لحقتُ بالطابور الطويل للسيارات الرباعية الدفع التي سُمح لها أخيراً بالذهاب إلى أطراف المعسكر، مخنوقة تملأ الدموع عيني. هناك على مقربة بضعة مئات من الأمتار من المكان حيث ذاب آباؤهم وأزواجهن وأخوتهم في الرمل، استسلم أصدقائي للمضي في حزنهم الأول الذي لم يكن مصبوغاً بالغضب. كم كان عددهم؟ العشرات، المئات؛ فبين أسر الضحايا والجمعيات الإنسانية والصحافة لم يعد يُميز سوى كيان تضامني، سلسلة من الألم. انتهى كل شيء، أخيراً. يبقى الشروع في الحداد. وضعت المعركة من أجل الاعتراف بوجود ترمامارت أوزارها.

ترمامارت موجودة، وعاد نجل بن بركة صحبة عائلته إلى البلاد، وعاد إبراهيم صرفاتي من المنفى. ووضع طياران ناجيان كتاباً حول معسكر الموت، نُشر في المغرب. ورفعت الحقيقة، شيئاً فشيئاً، غطاء تابوت مثقل بأربعين عاماً من الطغيان. بقي جانباً وحيد مغطى بيأس: ذلك الذي يخيم على عائلتي. لأثمه، لسبب أجهله، لم يجر الحديث عن رفع قانون الصمت بما يخص «قضية أوفقيير». ولا يزال كتابي -السجينة- ممنوعاً في المغرب. لا يزال يُنكر على عائلتي، بمقتضى التعسف الملكي، الحق في أن تكون ضحية. وإلى متى؟ طيلة حياتي، ربّما. يبدو أنني سأدفع إلى الأبد ثمن جريمة لم أقترفها. ولكن ما هم، فتأري الأجل هو هذه الحياة الجديدة التي لم يُعد من الممكن انتزاعها مني، وإن كانت أليمة جداً.

ولكننا لا نألف بمفردنا عالماً عدوانياً. لقد انتشلني رجل حياتي من الجحيم؛ وعلمتني امرأتان العيش من جديد. امرأتان متشابهتان ومختلفتان في آن، أدين لهما ببذرة الصفاء التي تكبر في يوماً بيوم.

الأولى، هيلين بامبر، وهي ليست سجينة للمرة الأولى فقط: ففي عام 1945، في سن التاسعة عشرة، كانت هذه المرأة الاستثنائية تذهب إلى معسكرات الاعتقال المحررة لتوها، لكي تعالج وتسمع وتخلق الحياة من جديد عند أولئك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم موتى. منذ ذلك الحين، كانت على كل جبهات الشقاء، في كل مكان احتاجت إليها الأرواح والأجساد الممزقة؛ ومع ذلك بقيت ذكية النفس، شفيفة الروح كيومها الأول. دون ذرة من المرارة أو الحمية...

إنها هي من علمتني أن أتحمل الحقد والتمرد اللذين كنت أخفيهما بداخلي. هي التي ساعدتني على إطلاق صرختي الأولى، صرخة أولية لولاها لكنت قد بقيت بلا شك خائفة القوى بقية أيام حياتي. وبينما كان الغضب مستمراً، وبينما كنت أحاول كظم الحقد المخيف داخلي مخافة أن أغدو أسوأ من جلادي، دفعتني هيلين إلى أن أعبر عن نفسي بصوت عال. حينها اتضحت الرؤية أمام عيني: الشاعر الملجّمة، المكتمّة تستحيل حمضاً حارقاً وتنخر شيئاً فشيئاً الأسس الهشة التي لا تزال تسندني.

— إنه أمرٌ يبعث على الجنون، ليس لديها حقّ على أحد، كان يُقال عني، بإعجابٍ كاملٍ، طيلة سنوات.

وكنْتُ أمدُّ الحَدِّ الأيسر، متشجَّعة بمَدائح أولئك الذين كانوا يضعونني في مصاف الأم تريزا. ما كانوا يجهلونهُ، وأجهله، هو أنَّ الضَّغينة التي أمتنع عن الإفصاح عنها كانت تنهك جزءاً ما في داخلي، مستورة بأقوال كنتُ أريدها سلمية. والحال أنني أعرف الآن، لما تعلَّمتُهُ من هيلين بامبر، أنَّه لا يمكن للسلام أن يولد إلاَّ حينما يُصَفِّي المرء حساباته الخاصَّة. وأنا واقعة في شركِ صورتي كسجينة، غير قادرة على إبداء أيِّ شعورٍ عنيف، كنتُ ألعب دوري كضحية بدقَّة متناهية.

- اخرجني من ذاتك، تَخَلَّصي من هذا الجلد الذي هو ليس جلدك.

كانت هيلين علي حق. الحقْد، ما أن يُلفَظَ إلى الخارج، يخفّ ويتلاشى، لا يتبقَّى منه في الحال سوى الإحساس بالتنفّس على نحو أفضل، والحرية في الحب أو الكراهية، ليس بالمبدأ وإنما بالاختيار.

لقد تَخَلَّى والداي عني، كان سيلزمني كلَّ هذا الوقت لأقول هذا. في الأربعين من عمري، أستطيع وأجرؤ على تأكيد ذلك، لقد قطعتُ - بمساعدة هيلين - الحبل السريّ.

صاحبة الفضل الثانية علي تدعى اوبرا وينفراي، وهذا الاسم لوحده يفتح، في الولايات المتحدة، كلَّ الأبواب (العروض الجماهيرية الضخمة تكاد تكون مفتاحاً سحرياً في العالم الحرّ). التقينا في عالمها المزركش، ذلك العرض غير العادي الذي ترتاح فيه مثل القرشة المنتشرة فيه. ولكن اوبرا

على النقيض من أترابها: إنها إن صحَّ القول 1% من الإنسانية التي تنسجم معها المحطّات الكبيرة، كي لا تخضع تماماً لثقافة الربح. إنها تقدّم منبراً للطبقة الوسطى، لضحايا الرعب والظلم. طبعاً، سبقها آخرون إلى فعل ذلك، وليس دائماً لدوافع غيرية. لقد شاهدتُ برامج لا تُعدّ ولا تُحصى كان الشقاء يُشبع فيها، على نحو مريب، فهم المشاهدين.

ولكن اوبرا ليست من أولئك الذين يستغرقون في الجمالة. بعد الحقّ في التمرد، أتت بعد هيلين بامبر لتعلّمني الحقّ في السعادة. لأنها عرفت أفضل من أيّ آخر أن تكشف « تمثّل دور الضحية»^{*} في شخصيتي، وزعزعت القدر الذي كان يمنعني من الطموح إلى السعادة.

- هذا القدر غير موجود، أنت من خلقتَه.

أيتعلّق هذا بالمرحلة الأخيرة من ولادتي الجديدة؟ بقي أن أكون سعيدة، وهذا ما يصعب عليّ كثيراً الاقتناع به. في نهاية مقابلي، قالت اوبرا جملة، ترنّ كل يوم في ذهني:

- قولي لي بأنك قادرة على أن تكوني سعيدة.

وفي ظلّ الانفعال المساعد، وتحت سحر مقدّمة البرنامج، ومدفوعة بالضغط الإعلامي، أجبتُ بنعم. تحت موجة التصفيق والتهليل. دون تفكير بذلك، ودون تصديق لذلك. أو ربّما مصدّقة ذلك في لحظتها... اليوم، لا أعرف إن كان بإمكانني أن أكون سعيدة؛ فالمستقبل سينبئني بذلك بلا شك، إلّا إذا مرت

بجانب السعادة دون أن أراها. أكاد أكون كذلك الشيخ الجميل الذي مثل دور دراكولا لعشرين عاماً متتالية: وإذ بات فريسة دوره، كان ينام كل مساء في نعشه، وانتهى الأمر بدفنه في مشمّله الأسود ذات البطانة البنفسجية. التصق دوري كضحية بجلدي بشدة بحيث أخشى ألا يمكنني التخلص منه أبداً. هل سأدفن في جلدي كسجينة؟ المرأتان اللتان حثّاني على الولادة من جديد أكدتا لي بأن لا. لقد منحني هيلين الأسنان لكي أعض، بالضبط؛ ودفعني اوبرا إلى أن أطرح على نفسي السؤال الأهم. لا أعرف شيئاً عن قدرتي على بلوغ السعادة، ولكن بالنسبة لهما سأبذل أقصى جهدي...

يومياً، أشاهد برنامج اوبرا، مع ذلك الشعور الغريب بأنها تتوجّه إليّ وإلى وحدي. كتاب الطقوس هذا الذي يثير أحياناً سخرية ايريك، يمدّني بالطاقة التي احتاجها للبحث عن تلك السعادة التي غابت عني كثيراً. أحسُّ بأنني أعيد شحن بطارياتي وأتشبع بالطاقة الإيجابية لصديقتي. قلّما نتحدث، ولكن برنامجها أشبه بموعده معها... يلزم الكثير في سبيل إيجاد السعادة. فضلاً عن ذلك، يبحث الملايين من الناس الذين لم يعرفوا لا السجن ولا الرعب عن السعادة (فلنأمل ألا يكون هناك عددٌ من النماذج المحدودة منها)، دون ضمانٍ بالنجاح.

بكتابة تتمّة السجينة، أعرف أنني أتخلص من الشقاء. أصبح طبيعية، إن صحّ القول. سواء كان هذا أسوأ أم أفضل، سوف لن أكتفي بذلك.

التعويض

المال لا يُعوّض ولا يُصلح ما فات. ومع ذلك، وبمساعدة الدولارات والفرنكات والدراهم يضمّد العالم جراحَ الذين حطّمهم. أهو خطأ قضائي؟ عشرون عاماً من السجن لكوبي ابنة أبي؟ إن شيكاً سيعوّض كلّ شيء في حينه. يجلّ الناس الأحرار المال كثيراً لدرجة أنّهم ينتهون إلى التّصوّر، بكلّ حسن نية، إنّ بوسعه طمس كلّ شيء. غالباً ما تساءلت كيف كان يُظنّ ذلك في سبيل تحويل إجحاف إلى نقود... كم من المال لقاء سنة في المستشفى أو لقاء شهر من السجن أو لقاء ساق ناقصة أو لقاء قريب دُهِسَ بحافلة؟ كلّ شيء يُحسَب، أكثر أو أقلّ ثمناً، حسب البلدان، حسب المحامين. إنها لعبة لوي الأذرع، الشاكي ضدّ القضاء، الأوّل ساعياً إلى ابتزاز أقصى ما يمكن من المال من الثاني، والثاني باذلاً أقصى ما لديه ليتمّ حتى السنتيم. الأكثر سخريّة هو أنّ أفضل المعوّضين ليسوا بالضرورة الأكثر تضرراً وإنّما أولئك الذين لديهم المحامي الأفضل. والحال أنّ المحامي، مثل اللبن الرائب، أفضل حينما يكون أغلى أجراً. والأكثر فقراً، الذين سوف يُعاقبون من المحامي ذي الأجر العالي، سيكونون الأقلّ نيلاً للعناية ساعة التعويض.

في عام 1999، وبينما كنتُ قد يُستُ لزمّنٍ طويل من أن أرى يوماً يجري فيه الإقرار بمسؤولية الدولة المغربية عن الخنّة

القاسية لعائلتي، شكّلت لجنة بهدف - أن يكون ذلك متأخراً خيراً من ألا يكون أبداً - تعويض ضحايا الطغيان. أو على نحو أدق، لتقديم تعويض مالي إلى الذين دفعوا ثمناً باهظاً لقاء « الأخطاء » القضائية الكثيرة جداً لأمر المؤمنين.

وهكذا، للمرة الأولى، ظهر اسمي على قائمة للضحايا. وإذا استطعت المطالبة بتعويض، فلأنّ هناك خطيئة؛ إذ سيكون هذا الاعتذار الوحيد الذي ستودّ المغرب أن تهمس به، بطرف الشفاء، جراء سرقة عشرين عاماً منّي. هذا قليل، ولكنه هائل. وإن وجب الانتظار إلى عام 2005، ليعلن بأنّ الإجحاف قد « رُقِمَ »، فإنني، أخيراً، ضحية معترف بها، سافرة، ورسمية.

من جهة أخرى، هذا الاعتراف هو ما دفعني إلى القبول بالصدقة. وهو اعتراف يكاد يكون ندماً، فإذا كان قد رفع آخر حائل بيني وبين الحرية، فقد أعفى كذلك جلادي، بثمن زهيد، من مسؤوليتهم. القبول بالمال الذي عُرض عليّ، هو إلى حدّ ما إعلان بأننا متعادلان، الغول وأنا. والموظف الذي سلّمني الشيك لم يشكّ في ذلك: مدّها إليّ، دون كلمة، دون شعور، بلذعة ازدراء. ثمّة في نظرتة شيء ما ربّما أمكن ترجمته بالتالي: امسكي، خذي مالك واغربي. وأنا واقفة، ويدي ممدودة، شعرت وكأنني أتسوّّل، وكأنه عليّ أن أشكر على الصدقة. انعكست الأدوار، فأصبحت مدينة لجلادي. اشتري ألبسة، ولن يعود لي قط الحقّ في التشكي.

لو أنّ أصدقائي لم يفتحوا لي عيني، لكنت سأرمي الشيك في وجه الموظف المكار، لأثبت للجميع أنّه ليس بالمال، دون

طلب كلمة عفو، يُشترى الألم. ولكنني لم أنسَ نصائح مَنْ يحبونني. رفض التعويض؟ مسألة غير مطروحة. فجلادي ليسوا على شهامة، وسوف لن يجدي عملي الجريء أيّ صدى. سوف توفر الحكومة مال التعويض، لا أكثر ولا أقلّ.

- ألا تريدون شيكهم؟ رُدّد ذلك على مسامعي، سيتهجون بذلك!

مع ذلك، لا تتعلّق المسألة بثروة. فقد قرّرت لجنة مغربية مائة بالمائة، أجهل تركيبها، المبلغ اعتبارياً بعد مناقشة ارتجالية. وعلى نحو غريب، لم يكن تقدير الضرر واحداً لكلّ أفراد العائلة: فأُمّي وأخي وأخواتي سوف لن يقبضوا نفس المبلغ الذي سأقبضه. وذلك لاعتبارات العمر والجنس والمزاج. سخرتُ من ذلك: سيفيدني هذا المال في أن أقترض خمسة عشر عاماً، كامراً حرة، لأحقّق أخيراً حلمي: شراء بيت لي. حقاً لي. مكانٌ يخصّني، شرقة، جحر. فربّما سيقدّم لي الاختباء، بطريقة ما، ملاذي الأوّل.

لا شيء سوف يعوّض عشرين عاماً من السجن، ولا عشر سنين، ولا حتّى ستة أشهر. ولا هذا الشيك «التافه»، والبيت الذي سيقدّمه لي. فضلاً عن أنّ مليوناً سوف لن يكون أفضل من هذا. لا قيمة للمبلغ في نفحة الأوكسجين في النشوة التي ستأتي لاحقاً. لأنّه إذا كان لا يزيل الألم، فإنّ جلادي قد اعترفوا أخيراً أمام العالم بعذاب عائلي. لقد بُرّأ اسمي. وهذا لا يُقدّر بثمن.

يكفي توقيع على قطعة من ورق لأصبح امرأة ثرية. وإذا كان ثرائي نسبيّ تماماً، في نظر ذلك الرجل الطيّب ذي الأسمال الذي اقترب منّي لدى الخروج من المحكمة، فإني ملكة إنكلترا. إنّه ليس متسول وإثما طبّاخ، على ما شرح لي. طبّاخ لم تفسده الحياة، بحيث سيصبح مشوّهاً بعد بضعة أيام، جرّاء غنغرينة سريعة الانتشار. ماذا عساي أن أرى في بؤسه؟ لا شيء أكثر من كلّ الناس الذين يمرّون دون أن يلحظوه. ولكنني أخذت فرصة الإصغاء إليه، لأنّه أظهر الضيق، ولمرة واحدة منذ سنين، كاد قلبي أن يكون مرتاحاً.

يحتاج الرجل إلى المال، بالتأكيد. بماذا ستعيش أسرته بغيابه، حينما تُبتر ساقه. عشرون يوماً، هذه ليست نهاية العالم... وعده وجية بمساعدة، ولكن في اللحظة الأخيرة، ظلّ بابه موصداً، وقد مرّت بضعة أيام والطبّاخ يدقّ الباب يائساً دون أن يتلقّى ردّاً.

وبعرضه لساقه المصابة بالغنغرينة عليّ.

— لقد جئت في الوقت المناسب، يا صديقي، أنا ثرية.

أعطيته خمسمائة دولار. وهو المبلغ الذي لم أكن لأستطيع تقديمه لأيّ كان لو لم يكن شيك جلاديّ في قاع حقيبتي. عشرون عاماً من السجن لأكون قادرة ذات يوم أن أتيح لمُعوز العيش لعشرين يوماً... كلانا لن نعود سعداء بذلك: هو سيفقد ساقه إلى الأبد، وأنا من المستبعد أن أستعيد شبابي ذات يوم. ولكن ذلك سوف يجتبه التسوّل والتذلل أمام المارة وسر أغوار

البلّور الملون تلويناً خفيفاً لسيارات المرسيديس، لكشف البريق الإنساني في عيون راكبيها.

المال لا يعوّض الخسارة، حتى وإن ساعد في تضמיד الجراح. شيء واحد في العالم يملك قدرة الشفاء: الحب، ولو متصّعاً، وأيضاً المرتقب بقدر ما يمكن لذلك أن يظهر. حسب إيريك، طبعاً، الذي تلقّيته بالحقن منذ ولادتي الجديدة، والذي جدّد دمي. ولكن حب الآخرين كذلك، حسب عائلتي وأصدقائي وكلّ الذين نجحوا، بحضورهم ودفئهم ودعمهم، في طرد الأشباح.

عائلة موجودة، قويّة دائماً، حاضرة دائماً، وحتى إذا كنّا موزّعين اليوم في أركان الدنيا الأربعة، فإنّ العلاقة الدائمة التي تُسجّت بالحن تفيّدنا كملاط يشدّنا إلى بعضنا. نحن نشبه بعض الشيء أغصان الشجرة الواحدة، ملتحمة إلى الأبد حول جذع هو هويتنا، مع أنّه محمّل بالآلام. لو أننا كنّا قد افترقنا إبان السنين السوداء، لما كان أحدٌ من بيننا قد نجا.

منذ إطلاقنا عام 1991، صارعت والديّ، بصبر لا حدود له (السجن مدرسة جيّدة للصبر) لتؤمن لنا حقاً في العيش قدر المستطاع مرفوعي الرأس. منحتنا القوّة على مواصلة الصمود. ماذا جرى لميراثنا؟ تطايرت المستندات القانونية هباءً منشوراً حينما أمر أمير المؤمنين بتجريف منزلنا، معتقداً بأنّه يجتث بذلك حتى ذكرانا. إنّ والديّ تدير صراعها من أجلنا أكثر ممّا يكون من أجل نفسها. دائماً، نحن السبب الوحيد لوجود هذه المرأة التي توقفت حياتها في سنّ السادسة والثلاثين. دائماً، حملتنا بلا

مساعدة من أحد، نحن الذين دخلنا إلى الجحيم في عمر مبكرٍ للغاية، والذين سعت لأن تمنحهم طفولةً. الآن، تعيش تلك التي ستبقى في نظر العالم أرملة أوفقيير بين باريس ومراكش. عمرها 69 عاماً، عمر التنفس الجهد، أخيراً. أعرف أنها أخذت فرصة الحياة؛ لا أحد استحق ذلك بقدر ما استحقته هي.

تزوجت مريم، وتعيش في باريس كامرأة حرة، ولكنها لا تزال تحمل آثار السجن. وبسبب هذه الصحة العليلة، أصبحت نوال، ابنتها، ابنتي أيضاً... ولكن في كفاح حقيقي، لم تستسلم مريم: بعد الحصول على إجازة في علم النفس التربوي (اسم بربري للإشارة إلى الأخصائيين في مجال الطفولة في وضع عسير) أعرف أنها تعدّ مجموعة صور مزينة بقصائدها. بالنسبة لي، تبقى تحفتها هي نوال...

يبلغ رؤوف 47 عاماً... وهو أبٌ لطفلة صغيرة في الثانية عشرة من عمرها، ويصعب علي تصديق ذلك. لو لم يكن اللقب رثاناً، للقبته بمثقف العائلة. إنه عقل أكثر من مفكر نال الشهادات، ولا زال يحضر للدكتوراه، ونشر في عام 2003، كتاباً متميزاً: الضيوف، يعود فيه إلى جذور محتنا. أنا معجبة بأخي، وهذه القوة المتميزة التي أتاحت له ألا يروي غليله أبداً من المعرفة، هناك حيث نُشَفَ كل شيءٍ آخر.

إذا كنتُ حرة اليوم، فهذا أيضاً وخاصة بفضل ماريّا، التي لا تحمل عبثاً اسم قديسة. بفضل فرارها في عام 1996، وبفضل الضجة التي أجادت إثارتها لدى وصولها إلى فرنسا، رفعت الأغلال أخيراً. لقد هزت البشر الأحرار، الذين خرجوا،

فجأة، من غفلتهم... لولاها، لكنتُ بلا شك لا أزال طيفاً
بنصف حرية، بلا أسرة وبلا عمل، أعيش على الكرم الزهيد
لجلّادي.

أختي أمّ لصبيّ في الثالثة عشرة، ميشيل، ابن أختي
الأول...، وتدير بحماسة داراً للإنتاج السينمائي. نادراً ما
تحدّث ماريا عن نفسها - لا تحبُّ التبحّج.

لن تكون صورة العائلة كاملة دون فنّاني الصغيرة،
سُكينة، التي استعادت سريعاً سنوات التأخر بتقديمها
للبكالوريا في 96، ومطابقتها بدراسات في القانون قلّما كانت
توافقها. التصوير والرسم والنحت، ستجح في كلّ شيء عدا
ما يغذي البشر الأحرار، العمل في مكتب بلا هواء. في البداية،
تاقت لبعض الوقت في الأعمال الصغيرة كوسيلة للعيش قبل
أن تجد نفسها: الآن هي منصرفة إلى الغناء بمهنية حقيقية. أحبّ
نصوصها وصوتها وحضورها، ولست الوحيدة في هذا ما دام
النقد متحمّس لها؛ لدرجة أنّه كتّب بأنّ هناك شيء من بياف*
في هذه المرأة الشابة.

أخيراً، عبد اللطيف، وهو أكثر من عاني بيننا من مشقّة
ولادتنا من جديد: ربّما لأن حياة بدأت (في سنّ الثالثة!) في
قاع سجن هي عبء حتى نحن لا ندركه. لقد احتفظ من
السجن بشغف لا حدود له بالسمااء المفتوحة، وتعلّل طويلاً
بالأمل في أن يصبح طياراً. لقد طار، أثناء بعض التدريبات،

* إديث بياف، المغنية الفرنسية الشهيرة، 1915-1963 اشتهر أداءها بالقوة والانفعال
-المترجم-

ولكن شح المال ، منعه حينها من تحقيق حلمه. أسأل الله أن يجد الهدوء والاتزان وأخيراً الراحة، لأنني أعرف حجم الثقل الذي ينوء به، الثقل الذي قضيت سنين كثيرة كي أتخلص منه.

كيف يمكن نسيان الغصن الذي انضمّ بملء إرادته إلى ذلك الجذع الذي لفظه الجميع كما لو أنّه كان ميتاً؟ حليلة، التي تركتنا بحزن ولكنها ظلت على الدوام في قلوبنا؛ وعاشورا، ابنة عمّ أمي التي لحقت بنا إلى أعماق الجحيم، وعاشت دائماً وسط العائلة، وناداهّا الأطفال جدّتي. أعتقد أنّها وجدت السعادة... ربّما ليس تهاون البشر الأحرار، وإنّما السلام الذي هو لنا بمثابة كثر حقيقي.

حبّ إيريك هو نسغ حياتي. وحبّ عائلي، هو الملاط الذي أعانني على أن أبقى كاملة. أمّا الأصدقاء، فقد دخلوا تدريجياً في حياتي، وقد علّموني دون إظهار ذلك أن أتآلف مع العالم. لقد بات بعيداً زمن الأكلة الكبار حيث كنت أتساءل، مشلولة، كيف، بل ولماذا، المشاركة في الأحاديث. اليوم، أصدقائي هم متنفسي، الذين لولاهم لكان العالم لا يزال أرضاً قاحلة، حيث كنت لأتكور على نفسي تحت ظل إيريك. لم يعد الإنسان الحرّ مجهولاً: إنّهُ يُدعى ناتالي، موريس، ناديا، مارتان، سوزي، وليد، توي، سيرج، اكسيل، كوزيما، بيت، ميريام، كلوديا، بياتريس، اليزابيت، لوران، فيليب، فيرجيني، ويللي، دانيال، بريجيت ودانيال، فريد، باي، اوسكار، كارول، ريمّا، كريستيان، فانيسا، ايثان، ماتيو... طبعاً دون أن أنسى أصدقاء السجينة بين فرنسا والمغرب ولبنان وأستراليا وبلدان أخرى

أيضاً.

لم أعد الدكتور ليفنكستون في بلاد الأقزام. لم أعد كائن مريخي. لم أعد تلك التي كان العالم بالنسبة لها يختصر في عائلة صغيرة مخفية في قاع حفرة. تعلمت أن أحب وأن أُحِبّ، وأن أنفتح على الآخر. بقليل من الخبرة، لم يعد الإنسان الحرّ، الذي كان يُفزعني أشدّ الفزع، بذلك الرعب. بل على العكس، إنه جوهريّ أحياناً لتوازي. وأنا لتوازنه، لأنني في النهاية قادرة على مبادلة من يمنحني الحب.

الفهرس

7.مقدمة
35.الرجل الأول في حياتي
39.الحرية المرة
51.ايريك الشرقي
63.الخوف من الآخرين
77.هبيرناتا في باريس
91.حينما كان المال ملموساً
103.البؤس
111.الشهية
125.الكتابة شهادة على حياة
143.مغربي
153.الملتحيان
161.سجينة الصحراء
175.أن أكون أمّاً، أخيراً

181. الحبّ في الأربعين
207. الحلم الأمريكي
221. موتُ ملك
229. الولادة من جديد
235. التعويض
245. الفهرس



20 عاما في السجن...

لكن رغم ركود ورتابة
السجن، كتبت مليكة أوفقيير
كتابا مثيرا للغاية
(السجينة) الكتاب الذي هز
كل من قرأه، وحمل إليها
تضامنا غير عادي.

كتبت في (السجينة)
حياد السجن، والضرر منه.
وتكتب في (الغريبة) الرغبة
في استعادة الحياض بكل ما
تحملة من هجنة. بعد
انقطاع دام 20 عاما.



مليكة أوفقيير

الضريبة

عشرون عاماً من السجن !! . عشرون عاماً !!

لقد خرج كتاب السجينة. ولاقى من النجاح وحرارة التواصل ما جعله يتصدر أبرز صحف وواجهات مكاتب العالم. وجعل من مليكة أوفقيير نجمة في أكبر وأهم محطات التلفزة وفي برامجها الأولى.

لقد كان "السجينة" شهادة مؤثرة عن الألم والظلم، وأيضاً عن البقاء. عن القمع وجشع السلطة، وكذلك عن الصبر والرغبة في النسيان. عن السجن والسجان، وعن الحرية ومحاولة الصفح.

ها هي مليكة أوفقيير، الحرّة، تواجه مرحلة الخروج مما تركه السجن في الذهن والروح، مما تركته سنوات الغياب عن عيش مجتمع الناس الأحرار.

ومرّة أخرى، بجرأة وكشف، برغبة في عيش الحياة، تكتب عن سجن ما بعد السجينة. عن الناس الذين أحبّتهم، عن الذين ساعدوها في استعادة الحياة كامرأة حرّة.

Bibliotheca Alexandrina



0646852



للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - هاتف: 009611471357 - 0096113728471

توزيع المركز الثقافي العربي

بيروت: ص.ب: 113/5158
هاتف: 009611750507 فاكس: 009611343701

cca_casa_bey@yahoo.com